دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مكسيم چوركي

المؤلفات الكاملة

٦

أين الله

أو

اعتراف ابن الشعب

تأملات فلسفية في الحياة



سلسلة عيون الأدب العالمي

٢٥

المجلد

٦

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مكسيم چوركي

المؤلفات الكاملة

المجلد

٥

أين الله

أو

اعتراف ابن الشعب

تأملات فلسفية في الحياة

نقلها الى العربية

نظير زيتون

اديب المهجر الكبير

سلسلة عيون الأدب العالمي

٢٥

١٩٥٨

تعهد

المؤسسة الثقافية
للنشر والتوزيع

بدمشق

الناشرون في البلاد العربية

دار اليقظة العربية : دمشق شارع المتنبي هاتف ١٢٢٦٤
موسسة الخانجي : القاهرة شارع عبد العزيز « ٤٣١٤٨
مكتبة المثنى : شارع الرشيد « ٨٣٥٨٨
المكتبة الشرقية : شارع المعرض « ٣٣٢٣٤

تقدمة الرواية

الى الشباب العربي المتحرر والمتحفّز للبعث والابداع والمجد .
ذكرى عبوري بهذا الوطن الفنّان .

نزيل حمص نظير زيتون

تموز ١٩٥٤

المقدمة

(الطبعة الثانية)

ليس مكسيم جوركي مؤلف هذا الكتاب نكرة في عالم الادب العالمي فنعرفه الى القراء ، فهو أشهر كتّاب روسيا في عهديها القيصري والشيوعي ، وأمير كتّاب العصر الحديث وأعلاهم أدباً وأعمقهم تفكيراً وأصفاهم مورداً وأسماهم نزعة وأبعدهم نظراً ، وهو الى هذا كله أشدّهم وطأة على الظلم والظالمين وأجرأهم على الجهر بالحقائق ونشر التعاليم التي تجعل من الانسان «رجلاً مفكراً» لا آلة عمياء تحركها أصابع المدجلين والعتاة طوراً باسم الدين والعبادة وتارة باسم السلطة والقانون .

ولا غرابة بعد هذا ان تطير شهرة مكسيم جوركي في كل انحاء المعمورة ، وان تتهافت الجماعات على مطالعة مؤلفاته فتردها معيناً عذباً تروي بسلسبيله ظمأها الفكري والروحي ، وتنتقيها اكسيراً عجائبياً يبعث الحياة في قوم عاشوا أذلاء غرباء عن الحياة فلعنوا الحياة . وتلتمسها علاجاً شافياً يقيها شر التخم والتفخ - تخمة الخرافات والتقليدات ، وتخوخه العقائد والاضاليل - وتستضحيها شمساً تندفئ بها وتطهر بحرارتها رجساً روحياً موروثاً وتستهدي بأنوارها سواء السبيل في سديم الحياة .

* * *

ولد مكسيم جوركي في نيجني - نوفجورود من أعمال روسيا وذلك في السنة ١٨٦٩ ، اما اسمه الحقيقي فهو الكسي ماكسيموفتش بشكوف ، ولكنه اقتبس اسماً ثانياً ُعرف به في عالم الادب وقد قرن فيه اسم ابيه مكسيم الى جوركي ومعناه المرّ ، اشارة الى ما كابده من شقاء الدنيا ونكدها .

ولكنه اذا كان روسي المولد واللغة، فهو عالمي النزعة والروح لا يعرف وطناً خاصاً ذا تخوم سياسية، وانما الانسانية وطنه الاكبر واليها وحدها ينتمي. فهو من هذا القبيل رسول عالمي يحمل رسالة الانسانية العلوية التي لا تقيدها حدود ولا تصدّها حواجز ولا تقف في سبيلها لغات وسلالات وملل ونحل .

نشأ جوركي فقيراً معدماً، وما بلغ التاسعة من عمره حتى هاض اليتم جناحه وابى الدهر إلا أن يقسو عليه فأذاقه من ضروب الفاقة والشقاء والتعس ألواناً وأشكالاً الى أن ضاقت في وجهه الحياة وكشر له اليأس عن أنيابه فعمد الى الانتحار بعد اذ ورزح تحت وطأة القوارع ورمته الارزاء بسهامها الدائمة ، بيد انه نجا من الموت بعدما اخترق الرصاص صدره .

والقنوط اذا لم يقض على صاحبه أو يهو ِبه الى الحمأة يتمرغ بها ، فلامشاحة في انه يجدد القوى الروحية الخفية ويبعث في المرء نفساً حرة جبارة تهزأ بالبلايا والنكبات وتسخر بأعاصير الحياة ، وكأن جوركي بعد ان حاول الانتحار ، ولد ولادة جديدة وانبعث وهو بين ميت وحي رجلا قوياً .

وبديهي بعد أن عانى ماعاناه من صروف الدهر وما ذاقه من مرارة الحياة التي شرب كؤوسها حتى الثمالة ، أن يعطف على ذوي الفاقة والتعس ويدافع عن الفقراء الاشقياء والمظلومين المنهوكين ويكافح الشريعة العمياء التي أضحكت قوماً لتبكي آخرين وأسعدت نفراً لتشقي شعباً ، وحمت أفراداً لتظلم مجموعاً .

فمكسيم جوركي اذن كاتب ثائر وأديب متمرد ونقّادة دقيق الملحوظات ومزراء بعيد الغور يستعرض التقاليد الفكرية والاجتماعية والدينية فيسخر بها ماشاء له بيانه وبلاغته وفنه ثم يجلوها ويصقلها بنقده ولواذعه ولا يزال يفندها ويمحصها على نور العقل الى أن تتلاشى وتضمحل فيتركها أثراً بعد عين .

ولا يظنن القارىء ان جوركي قصر همه على الهدم والتدمير ، كلا فهو يهدم

المغاور المظلمة والكهوف العفنة والمعابد المدنسة والأسوار التي قامت سداً منيعاً في سبيل الرقي الفكري والكمال الروحي ليبني على انقاضهـــا الصروح الشامخة وينشيء الحدائق الغناء ويشيد الهياكل المقدسة المضحاة التي تسرح وتمرح فيها عذارى النور الفكري المنبثقة من شمس الحق .

* * *

ليست هذه التأملات الفلسفية المطبوعة على غرار روائي الا قـــذيفة من قذائف جورکي الهدامة المحطمة التي أطلقها على معاقل التقاليد الاجتماعية الموروثة وحصون الالوهية الـكاذبة .

فان كنت أيها القاريء ضعيفاً جباناً لا طاقة لك بمكافحة التضليل والكذب بحكم التربية التقليدية والبيئة ، فلا تخف إن أصابتك شظايا جوركي فشظاياه كمبضع الجراحي انما تبتر العضو الفاسد وتطعن الدمل ، ومن ذا الذي يؤثر العلة على الصحة والضعف على القوة والشقاء على الهناء .

وان كنت قوياً شجاعاً تنشد الكمال الفكري في الحقيقة فهذه الرواية تزيد في حصانتك وتستثير حماستك وجرأتك وتفتح لباصرتك كوى النور العلوي الذي يجعل من البشر أنبياء يناجون الحق .

ونحن اذا كنا قد آثرنا نقل هذه الرواية الفلسفية الى اللغة العربية وفضلناها على سواها من الروايات الغرامية والقصص الخيالية والشرطية الملفقة مما يحرك الشعور ويستفز العواطف ويهيج الخواطر ولكنه يخدّر الفكر ويقيد العقل ويجنح بالنفس الى التداني بدل التسامي ، فلأننا نرى ان امة كأمتنا العربية هجعت في ظلمة التقاليد وتقيدت بأوهام العصور وعصفت بها أعاصير الجهل والكذب ، وهبت عليها سموم التعصبات وغاصت في ثقب الجمود ، واستبدّ بها سادتها من رجال الدنيا والدين فمزقوها شرّ ممزق ، ان امة هذه حالتها وهذا شأنها لهي أشد الامم افتقاراً الى ثورة فكرية

تحطم قيودها وتوقظها من رقادها وتبعثها من مدفنها التقليدي امة حية قوية لها مقامها تحت عين الشمس .

* * *

نحن شعب زهد بألوهيته المدركة المحسوسة فباعها بأبخس الاثمان واستكان لقوم طغاة لم يتورعوا عن ان ينصبوا له الاحابيل ويزينوا له الأكاذيب ليستعبدوه باسم الوهية مسيخة جامدة متقهقرة ، فأصبحنا ولا حول لنا ولا قوة ولا مرجع ولا رأي ، تحت انتدابين - سماوي وارضي - وفي كليهما من ألوان العبودية مايزهق النفوس ويشوه محاسن الحياة ، فحتام الجمود وإلام الاستسلام ، ولماذا لا يسترد الشعب ألوهيته ويحطم الاصنام التقليدية التي استعبده بها رجال الدين باسم الله - والله بريء - وزعماؤه ورؤساؤه الاقطاعيون باسم القانون والشرائع الرجعية .

أمن العدل ان نشقى ونتقهقر في ميدان الحياة ليتمجد اله المنافقين وتنفذ الشريعة الظالمة .

أمن الحق ان نسام خسفاً وذلاً ليتبارك الاستعمار بألوانه المتعددة ؟

أيها الشعب ، لقد هدم أسلافك ما بناه أسلافهم فحطموا أصنامهم ونبذوا عاداتهم وتقاليدهم ونقضوا تعاليمهم ليطهروا نفوسهم من الدنس الروحي فعلام لا تقتفي خطواتهم وتثور ثورتهم لتتحرر من سيطرة الخرافات والاضاليل والشرائع العمياء الجائرة .

لقد حان لك ان تكفر بهذه الآلهة المسيخة التي اذلتك واستعبدتك أنت سيد الآلهة .

ان الموت كل الموت في الجمود والاستكانة والاستسلام للظلم السياسي

والاجتماعي ، والحياة كل الحياة في الثورة الفكرية التي تبعث الشعب من مدافن الجهل والذل والخمول فينشد أغرودة الحياة الحرّة الطليقة ويتغنى بأنشودة التسامي .

الحياة كل الحياة في الثورة الفكرية التي تسترد للشعب ألوهيته المغتصبة .

فمباركة أيتها الثورة المباركة ثمرة تعاليمك !

نظير زيتون

سان باولو - تموز - ١٩٣٤



مقدمة الطبعة الجديدة

بقلم الشاعر الناثر الشهير
الاستاذ محي الدين
الدرويش

ليست هذه السطور مقدمة بالمعنى الشائع المعروف لهذه الكلمة فالرواية المترجمة ليست بحاجة الى التقديم، وهي غنية بوفرة مادتها ووضوح فكرتها وحصافة الآراء المنطوية فيها عن كل تعريف أو إبانة . ولعل مؤلفها مكسيم جوركي لم يعدُ وصف نفسه عندما قال في احدى مقالاته « معرفة النفس باب النجاح . »

واقد عرف جوركي نفسه حقاً، واهتدى الى مكامن الشعور الحي ومنابت الفكر الرهيف ، لتتساوق الشخوص الانسانية فيها ، منكرة العلل الغائبة التي يؤمن بها كثير من الفلاسفة وأصحاب الديانات جميعاً . فالاشياء لم تخلق بهذه الغايات التي يبدو للنظر الخاطف انها خلقت لها ، وكان من الممكن ان تخلق على غير صورها المألوفة .

* * *

وجوركي في روايته « ابن الله أو اعتراف ابن الشعب » يتفادى العدول عن الطريق الواضحة المستقيمة في عرض آرائه ، فلا يلتوي ولا يجنح الى التلميح والغموض ليشتغل الناس بألفاظه عن معانيه وبأساليبه عن آرائه ، وبفنه عن دخيلة نفسه ، بل يسلك سبيل الوضوح ولا يتورع في الكشف عما تواضع الناس عليه واصطلحوا على تسميته خيراً وعبادة وهدى .

ومن هذا المنبع ابتداء تفكير الرجل ، ناعياً من يسمون انفسهم صلحاء ودينيين ماهم فيه من طبع غوي ، ليفصل عنهم الاصابيع المموهة . فكأن ابا

العلاء رأى منذ الف سنة ، ماراه مؤخراً من مكسيم جوركي ، عندما رسم لهم هذه الصورة :

يحسن مرأى لبني آدم — وكلهم في الذوق لايعذب
مافيهم برٌ ولا ناسك — إلا الى نفع له يجـذب
افضل من افضلهم صخرة — لاتظلم الناس ولا تكذب

وجوركي يحاول ان يبدأ من حيث انتهى برجسون الذي بحث في نفسه وتساءل : اين تسكن ؟ و كيف تتغير ؟ و كيف تكون مجبرة؟ وكيف تكون مختارة . ثم استقر عند الله الذي منه المبدأ واليه المنتهى . بل بحث رأساً عن الله ، في المعابد والمناسك وصدور رجال الدين ، لعله يهتدي اليه ، ولكنه كان يصطدم بالخيبة تلو الخيبة ...

وقد حام الغزالي حول هذا الحمى وكاد يرتع فيه عندما قال « ومن ظن ان سعادة الآخرة تنال بمجرد قول لا اله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة، كان كمن ظن ان البطيخ يحلو بقوله : طرحت السكر فيه ، دون ان يطرحه » .

وفي الحق لقد بلغ جوركي الغاية في حسر الستار عن المدلّسين والمتلبسين بالدين لأيقاع الاجسام الرخصة والشهوات الضافية في الحبائل وهذا ماقرره أبو العلاء من قبل :

فلا يغرّنك من قرائنا زمرٌ — يتلون في الظّلم الفرقان والزمرا
يقامرون بما أوتوه من حكم — وصاحب الظلم مقموراً اذا قمرا
يبدي التدين محتالاً ضمائره — غير الجميل اذا ماجسمه ُخمرا
يشدو مزامير داود ويفضله — في النسك نافخ مزمار له زمرا

* * *

ومن ثم كان مجهود المعرب البارع اديب المهجر الكبير الاستاذ نظير زيتون

ثيراً الى أبعد مدى . وكان موفقاً في سبر غور عقله بحسن اختياره فمن المعروف ان اختيار المرء وافد عقله ، والشاعر القديم يقول :

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

وكان مسدداً في الابانة وتفادي الغموض الذي يكتنف الترجمة في كثير من الاحيان . فلست تجد عسراً في الالمام بافكار المؤلف المتسلسلة ولا يكظك الظلام الذي هو - كما يقول ميشيله - اثر من آثار ظلام العقول .

فما اجدر بان نقرر في شيء كثير من الحزم ان المترجم الحاذق قد ألبس المعاني الأجنبية العمامة العربية .

وما اجدر نابتة الجيل بأن يعكفوا على مطالعة هذه الرواية ، استغفر الله بل ادمان مطالعتها ، لتكون لهم معالم صبح ، ولتعدهم لحياة موفورة ...

محي الدين الدرويش

حمص - تموز ١٩٥٤

الفصل الأوّل

اما الحياة فأمرها موكول الينا

اسمعوا لي أن أقص عليكم تاريخ حياتي . حسن ان تقفوا عليه ، فاسمعوا !
أنا ذلك المخلوق الذي اصطلح الناس أن يسموه « ابن الخطيئة » ، أي اني ابن غير شرعي ، لقيط مجهول الوالدين .

عندما قذفت بي امي الى هذا العالم طرحتني هي أو امرأة أخرى فوق سلم المصلى القائم أمام ضريح السيدة لوسيف في قرية سوكول التابعة لقضاء كرازنوغلنسكي .

وفي الصباح ، بينما كان البستاني دانيل فيالوف يتعهد الحديقة عثر بي . رأى طفلاً صغيراً ملقى بين خرق وقمط على احدى درجات المصلى والى جانبه هو اسود كأنه قائم على حراسته .

ولم يكن الطفل إلاي .

عشت في منزل دانيل البستاني أربع سنوات ، يعلم الله كيف قضيتها وكيف تعذبت .

كان الرجل معيل كثير البنين ، فاذا أدركني الجوع ولم أفز بما ألهو به عمدت الى البكاء فأتباكى وأتباكى الى ان يغلب عليَّ النعاس فأنام على الطوى .

وفي السنوات الاربع التالية تولى أمري الشماس لاربون ، وكان ناسكاً زاهداً ، رقيق القلب ، فلما رآني وحيداً في هذا العالم أشفق علي واتى بي الى مأواه كي لا أموت هماً وغماً .

كان لاربون رجلاً قصير الجثة مستديرها كالكرة ، رحوي الوجه اشقر الشعر ، ناعم الصوت كالنساء ، بيد انه ذو قلب حساس محب لكل الناس .

واذا بحثت عن مواطن ضعفه رأيتها في الخمرة ، كان يبتلع الخمر والخمر تبتلعه .

كان يفيق من نومه كالح الوجه متجهماً مغمض العينين متثاقل الخطى لا ينبس ببنت شفة ، بيد أنه لا يحتسي الكوب الاول على ريق النفس حتى يرفـع رأسه المطأطأ وتلمع عيناه وتبرق أسارير وجهه ويبتسم ويهش لكل من يراه ثم يأخذ بالغناء والترتيل ملء صوته .

ما أعظم تأثير الخمرة في هذا الشماس !

كان لاربون يجتنب معاشرة الناس مؤثراً العزلة، يعيش عيشة الفقراء ويهب مايكسبه اتفاقاً للابريشية ، وكان يقضي أيامه صيفاً وشتاء بالصيد ، لاهم له الا الصيد ، فاذا ضجر منه عكف على نصب الفخاخ للعصافير فيلتقطها واحداً واحداً ، وقد علمني هذا الفن الذي برع فيه .

ومن غريب أمره انه كان يحب العصافير والبلابل ، وهي تحبه كأنها تدرك ماينطوي عليه قلبه من الرقة والشفقة .

كانت العصافير التي يربيها في كوخه تلاعبه وتداعبه فتجتمع فوق رأسه تارة وتبعثر شعره ضاربة فيه ، أو تحط فوق كتفه وتنقر رقبته أو تدغـدغ بمناقيرها اذنيه ومنخريه .

ما أجمل هذه المشاهد !

وكثيراً ما كان يستلقي على ظهره ويتوسد يديه ثم يغري طيوره بالحب يبعثره

على رأسه ولحيته فلاتلبث أن تطير اليه مسرعة وتنتشر فوق وجهه ضاربة مناقيرها الصغيرة في الحب فيضحك كأن يداً خفية تدغدغه ثم يبدأ بمحادثتها فتصغي اليه وتأنس به ، ولطالما حسدته على هذه الالفة التي استحكمت عراها بينه وبين العصافير والبلابل التي كانت تهرب مني وتبتعد عني كأني باز أو شاهين .

والغريب أن الطيور كانت أعطف على لاريون من البشر .

اني لا أزال أذكر ايام الشتاء الباردة العاصفة التي كنا نقضيهـــا في ذلك الكوخ الحقير الموحش !

كان البؤس ينشب مخالبه فينا فيعوزنا الحطب وتنقصنا النقود لابتياع القوت ، لأن لاريون لا يهتم بما يأكله قدر ما يهتم بما يشربه ، فنضطر أن نتدثر بكل ما تصل اليه أيدينا طلباً للدفء في ذلك الكوخ البارد المظلم كالقبر ، أما تعزيتنا الوحيدة فكانت في مؤانسة الطيور لنا !

كانت العصافير تسلينا بزقزقتها ، والبلابل والعنادل بتغريدها فننسى مانحن فيه من الشقاء .

وكان لاريون يصفر لها نغماً عذباً شجياً يحرك شجونها فتسكت وتنقطع عن الزقزقة والتغريد مصغية الى صفير الشماس الحنون .

وكان اذا ملّ الصفير عكف على الترتيل والغناء ، فلاتلبث هذه الطيور الوديعة أن تبتهج وتغتبط ، ثم تأخذ بالزقزقة والتغريد كأنها تتحدى ترتيل الشماس . وهنا تبدأ المنافسة فيحاول لاريون أن يعجزها بقوة صوته ولكنها لا تلبث أن تقابله بالمثل فترتفع التغاريد من كل ناحية ويجهد الشماس نفسه الى أن يتفصد وجهه عرقاً وتجحظ عيناه .

وكانت أحب التراتيل اليه ما يرتل في صلوات الجناز ، فكنت أصغي بخشوع ورهبة وأسائل نفسي عن السبب الذي يحمله على اختيار هذه الانغام الشجية ؛ وفي ذات مرة قلت له وقد بلغ مني الانفعال النفساني مبلغه :

ـ لماذا تؤثر يا عماه أن ترتل صلوات الجناز ؟

فتأملني ملياً وأجابني ضاحكاً : ـ يا غلامي ، الموت لا يبعث على الخوف ، ان اجمل التراتيل الدينية تلك التي ترتل في الجناز ، فيها رقة وشفقة وشعور ، ونحن تعلمنا أن نبكي على الموتى وحدهم دون سواهم !

اني أذكر كلماته وخطبه ، ولكنني في ذلك العهد لم أكن ادرك مرماها ، والبشر لا يفقهون معنى الطفولة الا متى أدركتهم الشيخوخة . وأذكر ايضاً اني سألته يوماً :

ـ ان الله قلما يحفل بمساعدة مخلوقاته ، فلماذا ؟

ففسر ما غمض عليّ قائلا : ان هذا الامر ليس من شأن الله . ساعد نفسك اذا شئت أن يكون مساعداً ، والا فلماذا أعطيت الفهم ؟

اذا قيل ان الله موجود فلكي يخفف عنا شيئاً من هول الموت ، أما الحياة فأمرها موكول الينا .

وقد نسيت لسوء حظي هذه التعاليم بسرعة ،وعندما تذكرتها كان الوقت قد فات ، ولهذا ذهبت آلامي عبثاً . آه ، ما أعظم هذا الرجل !

حينما كان يصطاد ، يلوذ بالصمت فلا يصرخ ولا يتكلم لئلا يذعر السمك ، واذا عمد الى القنص تحذّر كثيراً ولكنه لم ينفك مرة عن الصفير ومخاطبة الطيور بلغتها ، فكانت العصافير والبلابل تقع تباعاً في الفخاخ التي نصبها لها .

وكان هذا شأنه مع النحل ، فاذا ساءه أمر منه عمد الى معاملته بقسوة ، ولم يكن يحبه لأنه أفقد ابنته بصرها ، وذلك ان صغيرته التي لم تتجاوز عامها الثالث اقتربت من قفير النحل فثار عليها ولسعها في عينيها فتورمتا ثم أصابها مرض حاد انتهى باعمائها. وبعد مدة توفيت الطفلة فجنت أمها حزناً عليها.

كان لاريون شاذاً عن سائر الناس لا يصنع مايصنعونه وبرهاناً على هذا أقدم نفسي .

فقد كان حنوناً عليّ كأم على حين أن واحداً من سكان القرية لم يحبني، ذلك لان الايام كانت قاسية عليهم فكيف يعطفون على غريب مثلي ؟

وعلمني لاريون أن أساعده في أعماله ، فكنت ارتل معه في الخورس وأنير الشموع كما كنت أساعد أيضاً فلامي قندلفت الكنيسة في تنظيفها وخصوصاً في أيام الشتاء اذ يشتد القر وتعصف الرياح فأجد في المعبد ملجأ دافئاً .

على أني ، والحق أقول ، كنت اؤثر صلوات الغروب على صلوات الفجر اذ كانت ترتاح نفسي الى مشاهدة الفلاحين في الكنيسة وقد عادوا من أعمالهم اليومية الشاقة فطهر الشغل أفئدتهم وأرواحهم وأعدها لاقتبال القداسة الحقيقية التي ينشدها اولئك التاعسون .

وكان لاريون يحب أن يقوم بالصلوات فيقف امام الهيكل بخشوع واحترام ويغمض جفنيه ويشرع في الترتيل وقد انصرفت أفكاره الى عالم مجهول فلا يزال يرتل الى أن تلتبس عليه الصلوات ويسهو ويتوه ، وكثيراً ما كان ينتقل على غير قصد من ترتيل الصلوات الى الغناء ، فيضطر الكاهن أن يتداركه بالاشارات أو ينبهه قائلاً :

– كفى ... كفى ... ما هذا الغناء ؟ يا للشيطان !

وكان يقرأ الرسائل وسواها بصوت عذب خلاب ولهجة مؤثرة تترك في الناس وقعاً جميلاً .

نعم ان كاهن الكنيسة كان يتذمر منه ويقسو عليه بلواذع كلماته، ولكنه كان يقابل الكاهن بالمثل ويجيز له قوارصه من نفس البحر والقافية .

وقد سمعته مراراً كثيرة يقول : أهذا كاهن ...؟ ان هو الا طبل تضرب عليه الفاقة والعادة فيسمع لهما صوت بعيد !.

أما أنا فقد خلقت حقاً للاكليركية ، ولو كنت كاهناً لقمت باحتفالات القداس والصلوات على شكل لا يستذرف دموع المصلين وحدهم بل دموع

الايقونات أيضاً ! لو كنت كاهناً لدخلت بتراتيلي الى اعماق القلوب وحركت جماد الصخور المقدسة .

ولم يكن لاريون مغالياً في تحامله على كاهن الكنيسة ، فهو ووظيفته ليسا في مستوى . واحد فقد كان أفطس الوجه أسوده كأنما حرقه البارود . وكان كبير الفم أدرد ذا لحية كأنهـــا حزمة من السنابل ، ورأس أصلع غريب التركيب وذراعين طويلتين وصوت أجش متهدج كأنه أنين يرسله رجـــل رازح تحت عبء ثقيل . وكان علاوة على هـــذه الشوهة الطبيعية سيء الخلق متلصلصاً ، لا يتورع عن سرقة ماتصل اليه يداه لينفق على عياله الكثيرة، لان الابرشيه فقيرة والارض مجدبة والتجارة اسم بلا مسمى .

وفي الصيف ، في هـــذا الفصل الذي كان البرغش نفسه ينال حظه من البحبوحة والرخاء ، في هذا الفصل الذي كانت الحشرات تغتنم قوتها بسهولة ، كنت أنا ولاريون نقضي الايام والليالي في الغابات طمعاً بالصيد والقنص .

وكان الكاهن اذا اضطر أن يقيم صلاة غير منتظرة ، أرسل غلمان القرية في طلب لاريون فتنتشر في كل صوب وتنادي :

ــ لار ... يو ... لار ... يو أين أنت ، أحضر ...

فاذا لم يعثروا عليه ، ثار ثائر الكاهن وقام يتهدد ويتوعد لاريون فيضحك الشعب من الاثنين .

● ● ●

الفصل الثاني

ان شيطانكم هو البؤس والجهل ...

كان للاربون صديق اسمه سافيلكو ميغون ، وهو لص خبيث وسكير مدمن ، وكثيراً ما كانت تتناوله الايدي بالضرب تأديباً له ، وكثيراً ما ألقي في السجن ، ولكن طبعه كان غلاباً عليه فلا يلبث أن يعود الى السرقة والسكر.

كان هـــذا الرجل الغريب يرتاد كوخ لاربون حيث سمعته يغني ويروي القصص على أسلوب ترك في نفسي أسوأ أثر ، ولا تزال نفسي ترتعش كلما ذكرت قصصه الهائلة .

أصغيت مراراً الى حكاياته ولاتزال صورته ماثلة أمامي مع تقادم العهد به.

كان يحمل زجاجة العرق في جيبه فاذا وصل الى كوخنا انتزعها وأقبل هو ولاربون على الشراب يتنادمان، وبعض الاحيان كان لاربون يقدم الخمرة لصديقه.

وبعد أن يحتسي الاثنان شيئاً يشرع لاربون في الغناء فيصغي اليه سافيلكو كل الاصغاء ، ولا ينبس ببنت شفة . ولكن حواسه تصاب بشيء من التخدير ونفسه بالانفعال الشديد فيضحك تارة وتنهمر دموعه اخرى ، ولكنه لا يلبث أن يستعيد جأشه ويلتفت الى لاربون صارخاً :

ـ حقاً ان تغاريدك جميلة ... واني اكاد أحسد الله لشدة اعجابي بها ... والآن اخبرني يا لاريون ، ما هو الرجل ؟ وما عسى أن يكون شأنه مهما يكن صالحاً نبيل الشعور كبير القلب ؟ ان رجلاً شريفاً لا يخشى أن يمثل امام الله ولا يخاف أن يقول له « لا تعطني شيئاً أيها السيد ، أما أنا فأهبك كل روحي » .

فيجيبه لاريون واعظاً : ـ لا تجدّف ...

فيرد عليه قائلا : أأنا ... اني لا اجدف ولم يخطر لي ان اجدّف يوماً ... والا فهل أهنت الدين وطعنت فيه ؟ كلا لم اصنع شيئاً من هذا ، وكل ماهنالك اني أغبط الله وابتهج به ولكن دعنا من الموضوع واسمع ما أنشده .

ثم يقف على رجليه ويمد ذراعيه ويغني .

كنت اتأمله في موقفه هذا فيعتريني الذعر وتستولي عليّ كآبة عميقة. حقاً ان منظره آنئذ كان شديد التأثير .

وبعد أن ينتهي يشرع الاثنان يغنيان معاً ثم يحتسيان الكؤوس ويتنادمان الى ان يجرر الليل ذيوله أمام جحافل النور .

وكان سافيلكو اذا غلبته الخمرة وأخذ منه السكر ، عمد الى قص الحكايات السخيفة المجونية أبطالها كهنة وملاّكون وملوك، وكنت أنا ولاريون نسمعه يقصها ونضحك ضحكاً متواصلاً بلا انقطاع .

وكان سافيلكو في أيام الاعياد والآحاد يغني غناء يثير الشجون ويحرك الجماد ، يرسل صوته القوي في الفضاء فلا يكاد يسمعه الفلاحون حتى يلتفوا حوله فيقفوا أمامه بخشوع واحترام ، فاذا سكت سألوه أن يغني اغنية اخرى وقدموا له ما يشربه من الخمر .

ومما يروى عنه في القرية أنه سرق مرة متاعاً أو شيئاً ، ولما أحس به الفلاحون

قبضوا عليه وقال له احدهم : — لا تحاول ان تبرىء نفسك فما امامك الا الموت. لقد آن لنا ان نستريح منك .

فرد عليه قائلًا : — اسمعوا ما اقوله واصنعوا بعدئذ ما شئتم .

— لقد انتزعتم من يدي ما سرقته، وعلى هذا لم تخسروا شيئاً، وباستطاعتكم في كل حين أن تقتنوا املاكاً جديدة . ولكن رجلًا نظيري أين تجدونه وكيف تحظون به ؟ من هو الذي يسليكم ويؤنسكم ويطربكم اذا قتلتموني ؟ أعندكم غيري يحرك عواطفكم ؟

فأجابه الفلاحون : — دعنا من الكلام المنمق ، لقد اشبعتنا هذراً .

ثم هجموا عليه واقتادوه الى الغابة ليشنقوه .

وفيما كانوا سائرين طفق يغني ، فأخذ الفلاحون يسيرون الهوينا بعد اذ كانوا يسرعون الخطى ، وما زالوا كذلك حتى أدركوا الغابة فأعدوا الحبل وانتظروا ريثما ينتهي من أغنيته الاخيرة ، ولكن بعض الفلاحين أخذوا يشعرون بشيء من الارتياح الى صوته العذب الحنون فقالوا لرفاقهم :

— دعوه يغني أغنية أخرى ، ان أنشودته ستكون صدى ذمائه واحتضاره، فليغن !

فبدأ سافيلكو ينشد أغرودة جديدة ثم اتبعها باخرى فأخرى الى أن مالت الشمس نحو المغيب .

كان سافيلكو ينتظر الموت وعلى ثغره ابتسامة كأنه غير حافل بالمشنقة المنصوبة ، غير ان الفلاحين تطرق الى قلوبهم التردد والحيرة وأخذ بعضهم ينظر الى بعض متسائلًا :

— ماذا نصنع ؟ اذا قتلناه لا نسلم من تقريع الضمير الى الابد. أيجوز ان نلطخ ايدينا بدم هذا الرجل ؟

ثم انتقلوا من التردد الى الجزم فقرروا أن يعفوا عن سافيلكو ويصفحوا عن سرقاته قائلين : اننا نحني رؤوسنا احتراماً لعبقريتك ، ولكن علينا ان نعاقبك جزاء سرقاتك فلا تمد يدك الآن الى مال الآخرين .

ثم انهالوا عليه بالضرب الخفيف وعادوا به الى القرية .

وأنا لا أثق كل الثقة بهذه الرواية وأعتقد أن فيها مغالاة، فالفلاحون ليسوا كراماً الى هذه الدرجة ، وسافيلكو ليس بالعبقري الذي يستطيع ان يستهوي بفنه قلوب العشرات والمئات ويستمطر على جمر انتقامهم برد أغانيه وسلامها .

وكانت تدور بين لاريون وسافيلكو أحاديث ومطارحات متعددة المواضيع ، دون أن يغفلا حتى الشياطين ، وأنا لا أزال أذكر ما قاله لاريون لرفيقه في ذات يوم عندما سأله عن الشيطان :

ـ الشيطان هو مثال الشر، هو المرآة التي ينعكس عليها الجهل الروحي .

فقال سافيلكو : ـ اذا قلنا الجهل الروحي عنينا الحماقة، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، الحماقة بعض معاني الجهل الروحي .

فأجابه سافيلكو ضاحكاً :

ـ لو كان الشيطان مخلوقاً حياً لاصطحبته معي من عهد طويل ..

ولم يكن لاريون يؤمن بالشياطين أو يعتقد بوجودها . وفي ذات يوم كان يجادل الفلاحين في أمر الابالسة ومما اذكره قوله لهم :

ـ لا ينبغي أن نتكلم عن اعمال الشيطان وانما عن القسوة والعنف ، الخير والشر هما في طاقة البشر ، اذا أردتم الخير فارادتكم تأتي بالخير ، واذا شئتم الشر ، فمشيئتكم تنتج الشر ، الخير مصدره انتم ، والشر مصدره انتم ، وذلك لان الله لا يرغمكم على اقتراف الشر أو صنع الخير .

لقد خلقكم بارادته احراراً مستقلين، واحراراً مستقلين تصنعون ما يحلو لكم

أما الشيطان ، شيطانكم الذي تتحدثون عنه ، فهو البؤس ؛ نعم هو البؤس والجهل ، شيطانكم هو ظل الشريعة العاتية المستبدة في القلوب !

ان الخير انساني هو ، لأن الانسانية مصدرها الله ؛ أما الشر فلا يأتي عن الشيطان ولكن عن الحيوانية . أتعلمون لماذا يصورون الشيطان بقرنين ورجلي ماعز ؟ ذلك لأنه مبدأ الحيوان في الرجل !

وكان لاريون اذا تحدث عن يسوع اطنب به واطلق لسانه في تسبيحه .

وكثيراً ما كنت ابكي عندما اسمعه يقص الحظ العاثر التاعس الذي رافق ابن الله . وكنت أتخيل المسيح ، منذ جادل الشيوخ في الهيكل الى يوم الجلجلة العصيب ، ماثلاً امامي كأنه طفل جميل نقي في حبه غير المتناهي للشعب ، في ابتساماته العذبة للعالم ، في جماله الالهي وطهارته المشرقة .

كان لاريون يقول : لقد جادل يسوع شيوخ الهيكل وهو طفل ، ولهذا كانت معرفته الساذجة تبدي لهم تفوقه عليهم .

ثم يلتفت اليّ ويعظني بقوله : — لا تنس يا ماتفي ما اقوله لك ، احتفظ على الدوام بكل ما في روحك من منازع الطفولة ، ضع هذا الامر نصب عينيك فان فيه كل الحقيقة .

فسألته : ويسوع ، أيعود قريباً ؟

فأجابني : نعم ، يعود قريباً لان الشعب على ما يتراءى لي يبحث عنه .

واذا أعدت الى الذاكرة كلمات لاريون ، لاح لي أنه يرى في الله الخالق الاعظم المبدع الذي برأ أجمل الاشياء .

وهو يعدُّ الانسان مخلوقاً شارداً أضل سبل الحياة الارضية ، يعد وارثاً جديراً بالشفقة لانه غير كفيء للتمتع بالخيرات العظيمة التي أورثه اياها الله على الارض .

وكان سافيلكو يشاركه في هذا الاعتقاد .

ولا تزال عالقة بذاكرتي حادثة الايقونة العجائبية التي ظهرت في القرية، وها هوذا تفصيل الخبر :

في صباح يوم من ايام الخريف ذهبت احدى النساء الى بئر تستقي ، وما كادت تطل على الماء حتى رأت في قعر البئر شيئاً لامعاً غريب الشكل ...

فركضت مدهوشة ودعت أهل القرية الى مشاهدة ما في البئر ، فلبى الدعوة كثيرون بينهم كاتب العدل والكاهن ولاريون ايضاً ، ثم هبط الى قعر البئر احد الرجال فانتشل ايقونة لأحدى القديسات . كانت هذه الايقونة تضيء فينبعث منها نور لطيف يحير الابصار، وبديهي بعد هذا أن تتلى الصلوات، وتقرع الاجراس ، ويتحمس الفلاحون ، وتنتشر بينهم دعوة الى تشييد كنيسة حول البئر ..

وكان الكاهن يحضهم على التبرع لبناء المعبد قائلاً لهم :

– ايها المسيحيون المؤمنون ، قدموا هباتكم !

وقد شاء رئيس الشرطة الريفية أن يشترك في هذه الدعوة ، فتبرع لمشروع الكنيسة بثلاثة روبلات من جيبه الخاص ، وما عتم الفلاحون ان حذوا حذوه فمدوا ايديهم للعطاء ، وكانت النساء أشد تحمساً فاندفعن الى مساعدة هذا المشروع الديني بكل ما في قلوبهن من حرارة وايمان ، وعمت الغبطة والبهجة كل سكان القرية التي لبست حلة العيد ، وكان سروري يفوق الجميع .

بيد اني لحظت من لاريون ما حيرني وادهشني ، كان عابساً متجهم الوجه لا يلتفت الى أحد ولا يكترث لهذا الحادث العظيم ، فما السبب يا ترى ؟

وفي المساء ذهبت الى البئر لمشاهدة صورة القديسة الملتهبة كما سموها ، فرأيت نوراً مزروقاً يفيض حولها منتشراً كالبخار ، كأن يداً غير منظورة ألقت فوقها بلطف وهدوء شعلة تنيرها وتدفئها ، فكنت أشعر أمام هذا

المشهد الجميل بارتياح نفساني عظيم .

وبعد ماعدت الى الكوخ سمعت لاريون يخاطب سافيلكو بلهجة حزينة :

ــ ليس بين العذارى كهذه العذراء الجديدة !

فأجابه سافيلكو ضاحكاً متهكماً :

ــ موسى جاء قبل المسيح بزمان طويل... يالهم من خبثاء ! أهذه أعجوبة ؟ ما أحمق الفلاحين !

ثم همس لاريون قائلًا :

ــ أتعلم ؟ ان الكاهن ورئيس الشرطة يستحقان الزج في السجن جزاء هذه الخديعة . انهما لم يتورعا عن خدمة مصالحهما ونفوذهما تحت نقابٍ ديني ، وقاما يوطدان أركان الدين في قلوب البشر إرضاءً للمنافع الشخصية !

فلم ترتح نفسي الى هذا الحديث ، ولما سألت لاريون أن يوضح لي الامر أبى أن يجيبني ، غير ان سافيلكو لم يسكت فقال للاريون :

ــ وأنت يالاريون ، ماذا تصنع ؟ انت الذي تشكو جهل الشعب وحماقته وتتذمر من هؤلاء الفلاحين الاغبياء ، ألا تستحي أن تصنع من ماتفي أيضاً غبياً أحمق ؟ ولماذا ؟

ثم وثب عن مقعده بسرعة وخاطبني قائلًا :

ــ أترى عيدان الكبريت هذه ؟ اني سأمرغ كفي فتأمل يا ماتفي مـــا أصنع ، أرأيت ؟

والتفت الى لاريون وقال : ــ اطفىء القنديل .

وبعد ماانتشرت الظلمة في الكوخ بسط كفه أمام عيني وسألني ماذا أرى !

فرأيت كفه يلمع في الظلام ويضيء بنور مزرورق متبخر كالنور المنبعث من قديسة البئر . وعلى أغمضت عيني ولم أشأ أن أقابل بين ما صنعه سافيلكو

والقديسة الملتهبة . .

وكأن سافيلكو لم يرض عن استيائي من جلاء الحقيقة فأخذ يحدثني بما يؤيد نظريته ، ويظهر لي الفرق بين الاعجوبة الحقيقية والوسيلة الخداعة التي يتذرع بها رجال الدين لايهام الشعب ، غير أني أبيت أن أصغي اليه فارتميت على مضجعي وقد سددت أذنيّ . .

وبعد يومين أو ثلاثة من ظهور الايقونة العجائبية وصل الى القرية عدد كبير من الكهنة ورجال الحكومة فانتزعوا الايقونة وخبأوها وأقالوا رئيس الشرطة من منصبه وهددوا الكاهن باقامة الدعوى .

أما انا فكان يصعب عليّ ان أصدق مايعزى الى الكاهن ورئيس الشرطة ، وان أقتنع بأنهما اخترعا مسألة العجيبة اختراعاً ولفقاها تلفيقاً طمعاً بابتزاز دريهمات الفلاحين ونسائهم .

عندما بلغت السادسة من العمر شرع لاريون يعلمني القراءة والكتابة باللغة الاكليركية ، وبعد عامين فُتحت في القرية مدرسة ابتدائية فارسلني لاريون اليها . وبالنظر الى انصبابي على الدرس اضطررت أن ابتعد عن لاريون . وقد كان في بعض الاحيان يسألني اعادة المسائل التي تعلمتها في المدرسة فيبدي ارتياحه ويثني على اجتهادي .

وفي ذات مرة بعد أن سألني أسئلة كثير تتعلق بدروسي وأجبته عنها بمنتهى التدقيق ، فاجأني بهذا الثناء الغريب :

— ان في عروقك دماً طيباً مما يدل على أن أباك لم يكن رجلاً خاملاً !

فسألته : — وأين هو ؟ أتراه أحد الفلاحين ..؟

فأجابني ان كل ما استطيع ان أؤكده هو أن أباك كان رجلاً ! أما الطبقة التي ينتمي اليها أو العترة التي يمت اليها ، فهذا ما لا أدريه . .

ولكني مع هذا لا اخاله فلاحاً ، نعم لا اخال اباك فلاحاً ، يدلني على هذا وجهك وبشرتك وخُلقك ، صفات لا تعهد الا في ابناء السراة الاشراف .

وقد انطبعت كلماته في ذهني ونُقشت في لبي ، بيد انها لم تأت بنتيجة حسنة. وكان رفاقي في المدرسة يهزأون بي ويدعونني « لقيطاً » فلا ألبث ان أصرخ في وجوههم غاضباً لكرامتي قائلاً :

– أأنتم أبناء الفلاحين تهزأون بابن السيد النبيل ؟

والغريب اني أقنعت نفسي كل الاقناع باني ابن سري شريف ، وبهذه الوسيلة كنت ادافع عن كرامتي أمام تهجمات رفقائي التلامذة .

ونشأ عن كبريائي أن التلامذة أخذوا يمقتونني ويطلقون عليّ نعوتاً قبيحة ، فكان جوابي عنها الصفع واللطم ، ولا بدع فقد ترعرعت واعتقدت كل الاعتقاد اني أمت الى عترة نبيلة .

وبديهي أن يشكو التلامذة أمري الى آبائهم ، وهؤلاء طلبوا من الشماس ان يؤدبني ، فدعاني لاريون وقال لي :

– ربما كنت يا ماتفي ابن قائد من القواد ، وكان هذا لا شأن له فالناس كلهم يلدون بصورة واحدة ، وعلى هذا فالشرف واحد للجميع .

غير ان هذه الموعظة جاءت متأخرة اذ بلغت آنئذٍ الثانية عشرة من العمر وتعودت رد الاهانات بشراسة وعنف .

وبعد سنة اي في الثالثة عشرة انهيت دروسي ، فأخذ لاريون يسائل نفسه عما يصنعه بي . أيرشحني للاكليركية ام للجندية ام للخدمة ؟

وكان يسألني عما أوثره فلا اجيب ، ولكنه مع هذا التردد يشجعني قائلاً :

– لا تثبط عزائمك ، وسواء أدخلت هذا الباب امذاك فلا بد لك من الصعود. وكل ما عليك ان تتجنبه هو ان تبتعد عن الخدمة العسكرية ، لبس مايفسد

الرجل كالجندية المأجورة . .

وبعد بضعة اشهر ذهبت أنا ولاريون كعادتنا الى الصيد في بحيرة ليوبوشين . كان زورقنا قديماً صغيراً مفككاً ، وكان لاريون كعادته يحمل زجاجة من الخمر فيشرب الجرعة اثر الجرعة . واتفق في هذه المرة انه اتى بحركة عنيفة في الزورق فمال بنا وانقلب وسقط كلانا في الماء .

ولم تكن هذه اول مرة مال بنا فيها الزورق وهوينا الى الماء ، ولذلك اخذت اسبح ولما عمت رأيت لاريون يسبح الى جانبي ، ثم سمعته يقول لي :

ـ اذهب الى الشاطيء وانا سأجر الزورق .

كانت الضفة قريبة منا فأخذت اسبح مطمئناً وفيما أنا كذلك اذ شعرت فجأة كأن شيئاً يشد رجلي ، واذ بي أرى الزورق وحده دون لاريون .

فأحسست كأن جلمود صخر سقط على رأسي ، وانتابني خوف شديد واهتز جسمي اهتزازاً عنيفاً وارتخت اعصابي فهويت الى قاع البحيرة .

واتفق آنئذ ان مرت مركبة تيتوف احد موظفي الحكومة وكانت متجهة الى الحقل ، وتيتوف رأى الزورق ينقلب ولاريون تبتلعه لجج البحيرة ، وعندما شاهدني اغوص في عباب الماء خلع ثيابه وانتشلني من مهاوي الغرق ، ورد اليّ حياتي بعد ما كدت افقدها .

اما لاريون ، لاريون المسكين فلم يعثر على جثته الا في المساء .

لقد طارت روحه الطاهرة النقية الى السماء وودعت الحياة الارضية غير آسفة .

ما افظع ما دهاني به القضاء ، وما اقسى ماخطته لي الاقدار !

كنت ارى العالم اسود حالكاً ، والحياة شوكاً يدمي الفؤاد .

فقدت مهذبي ومن كان لي بمقام أبي ، فقدت صديقي ومرشدي ومن كان يحن اليه قلبي . دهمته يد المنون فجأة فتحولت افراحي الى اتراح ، واسودت الدنيا في عيني

وتبعثرت آمالي على شاطىء تلك البحيرة المشؤومة ! أتراه انتحرام مات قضاء وقدراً ؟

وعندما دُفنت جثة لاريون في بطن الأرض ، كان المرض آخذاً مأخذه مني فلم أتمكن من مرافقتها الى مقرها الاخير ، وبعدما نقهت خرجت الى المقبرة لازور الضريح الذي ضم رفات ذلك الرجل الانساني النبيل الشعور ، فجلست الى جانبه وقد تقطع قلبي حزناً وألمـــاً ، وحاولت أن أروي تراب القبر بدموعي ، فخانتني عيناي وانحدرت عبراتي الملتهبة الى قلبي المتفجع فزادته حرقة وجوى .

كان صوته لايزال يرن في اذني ، فيخيل الي وانا جالس على قبره اني أسمع خطبه ومواعظه وتعاليمه ، ثم أغمضت عيني وانصرفت بي الافكار الى تلك الايام الهنيئة التي قضيتها بقربه ، ما كان أسعدني في ظله ! آه ! لقد مرت تلك السنوات العذبة على خشونتها وضيقها كأنها حلم ذهبي بددته أنامل اليقظة .

وفيما كنت مرخياً لتأملاتي العنان اذ شعرت فجأة بيد تقبض على يدي فرفعت رأسي ورأيت تيتوف أمامي يقول لي :

ـ هلم نذهب ، فليس لك ماتصنعه هنا .

ثم قادني بيده فتبعته صامتاً . وبعد مسيرة خطوات قال لي :

ـ انك رقيق القلب يابني ، لا تنس الرجل الذي أحسن اليك .

غير ان هذه الكلمات لم تكف لتعزيتي فتابعت سكوتي ، وعطف تيتوف على عبارته قائلا :

ـ كنت أنوي أن أتولى أمرك منذ عثر بك البستـاني على المصلّى ، بيد اني وصلت متأخراً . ولكن يلوح لي ان الله شاء ان اتعهدك فأتاح لي هـذه الفرصة ، فتعال ياغلامي وعش معي ..

كنت آنئذ لا أحفل بشي ولا اكترث لامر ، فسواء لدي الحياة او الموت ، سواء لدي عشت مع من أشاء أو عشت مع سواه .

وما عسى ان انتظر وقد تلاشى حلمي وعبثت يد القضاء بشعوري .

وهكذا انتقلت من حالة الى اخرى دون ان انتبه او اهتم ، لولا تلك الذكريات العاطفية او تلك اليد التي أحسنت اليّ ..

الفَصلُ الثّالِثُ

قلب يتفتح على الطهر والخير

بعد ان قضيت مدة في منزل تيتوف اخذت اهتم بما يكتنفني ...

كان تيتوف ضخم الجثة كث السبال حليق اللحية والرأس متأنقاً في ألفاظه، لا يكاد يخرج يديه من جيبيه واذا اخرجهما شبكهما وراء ظهره.

كان هذا الرجل مكروهاً وقد طالما نظر اليه الفلاحون شزراً ، وفي احدى المرات هجموا عليه وأشبعوه ضربا ، اما قرينته نسطاسيا فكانت امرأة جميلة طويلة القامة رقيقة الجسم شاحبة اللون ، ذات عينين نجلاوين يفيضان نوراً وصفاء .

وكانت ابنتهما اولغا جميلة كأمها وهي اكبر مني سناً بثلاث سنوات .

قطنت هذه الاسرة في منزل يحيط به السكون ، فالسجاد المفروش في الغرف والاروقة يلاشي صوت الخطوات ، والقناديل والشموع المضطرمة ليلا ونهاراً امام الايقونات لا يسمع لها أنين او شكوى او توجع .

وكانت جدران البهو والغرف مزدانة بالرسوم المتعددة ، هذا يمثل يوم الدينونة وذاك استشهاد الرسل ، وسواه قديسة او قديساً ، وهناك عدد من التماثيل الفنية الجميلة التي كان صمتها ابلغ من نطقها .

في هذا المنزل الهاديء الساكن كنت اجدد ذكرى لاريون ، هذا الرجل المحسن الذي لم يبرح فكري يوماً واحداً .

أما عملي فكان مقصوراً على مايتعلق بكتب تيتوف حيث كنت اطالع اوراقاً لاتحصى ، وغلب على ظني أن تيتوف كان يراقبني سراً كأنه يحذر ان آتي امراً إداً . وقد كان لهذه المراقبة وقعها المؤلم في فؤادي فعشت في منزله تاعساً .

نعم ، انا لم اكن ضحوكاً لعوباً طوال حياتي، ولكني في مدة اقامتي هناك غلب علي الحزن والكآبة . لم يكن لي ثمة صديق يواسيني ويسليني ولا من استأنس به او ابثه ما بقلبي ، وكنت اذا سألني تيتوف او قرينته عن لاريون اعمد الى السكوت فلا ارد على السؤال الا بكلمات وجيزة .

وكان ذلك السكوت المكتنف منزل تيتوف واسرته يبعث في شيئاً من المرارة المقرونة باللهفة ، ولذلك رأيت ان افتش عن التعزية والهدوء الفكري في الكنيسة فكنت اذهب اليها كل يوم، واساعد القندلفت فلاسي وبعض الاحيان الشماس الجديد الذي حل محل لاريون .

كان هذا الشماس شاباً جميل الطلعة غير انه لم يكن حاراً في صلواته وترانيمه كلاريون ، وفضلا عن هذا كان يتملق الكاهن فيقبل يده ويتبعه اينما سار .

ولا أزال اذكر الانتقادات المرة التي كان يوجهها الي اثناء خدمة القداس، وما ذلك الا لأني كنت احافظ على الطقوس الدينية واقوم بها اجمل قيام، اما هو فكان يجهل الطريقة المثلى والاصول المرعية .

في هذا الوقت شعرت بعبء الحياة الثقيل وذقت مرارتها فبدأت أحب الله .

وفي ذات يوم بينما كنت اضع الشموع امام ايقونة العذراء قبل الابتداء بالصلاة ، تراءى لي ان مريم وابنها الطفل يسوع يرسلان الي نظرات ملؤهـا الحنان والعطف ، فاخذت ابكي ثم جثوت على قدمي وشرعت اصلي .

لأجل من صليت ؟ لأجل لاريون ، صديقي ومعلمي ...

لا ادري كم استغرقت من الوقت صلاتي ، ولكني اذكر اني نهضت وقد امتلأ قلبي تعزية وغبطة ، وتزحزح عن عاتقي ذلك الحمل الثقيل .

وبعدما انهيت صلاتي جئت اساعد القندلفت فتأملني ملياً وقال لي :

ــ ان محياك يفيض سروراً ، فهل عثرت على قطعة من النقود ؟

فاغتظت وحسبته يهينني ولكني لم أشأ مناقشته . قلت له :

ــ اني صليت الى الله !

فسألني متهكماً : ــ والى اي اله ، ان الآلهة عندنا يعدون بالمئات ، فالى ايهم صليت ؟ والاله الحي اين هو ؟ اين هو الله ؟ اين هو الاله الحقيقي ، الاله غير المصنوع من الخشب ... اين هو ، اذهب وابحث عنه !

اما انا فلم احفل آنئذ بهذه الكلمات التي حسبتها اهانة ومذمة ، ذلك لان فلاسي القندلفت كان رجلا مشوه الجسم بطيء الحركة واهن القوى ضعيف الساقين كثير الاهتزاز ، وكان فضلاً عن هذا دميم الوجه ادرد كالاطفال ، كالح البشرة ذا عينين جاحظتين كأنهما مجفلتان ...

وعلى اثر وفاة لاريون بدأت الحظ فساداً في عقله . فمن ذلك قوله :

ــ انا لست حارساً للكنيسة ، انما انا حارس لقطعان الماشية ، خلقت لأكون راعياً ، وسأموت راعياً . ولسوف أترك الكنيسة لارعى الماشية .

والناس كلهم يعلمون ان فلاسي لم يحرس المواشي قط ولا كان راعياً .

وكان يقول ايضاً : الكنيسة والجبانة شرع ، فالموت يرفرف فوق الاثنتين على السواء ، وانا احب ان اتعهد شيئاً حياً . اني احب الحقول ورعاية المواشي . لقد كان أسلافي كلهم رعاة ، وكنت أنا راعياً حتى الثانية والاربعين .

وكان لاريون يتهكم عليه عندما يسمع كلماته فيقول :

كان للاقدمين اله للماشية يدعى فولوس ، أتستبعد أن يكون جدّ جدك ؟
فيجيبه القندلفت :

– هو ماتقول . لقد شعرت منذ زمن طويل بأني حفيد هذا الاله، ولكني لم اجسر على اعلان الامر خوفاً من الكاهن، فاياك ان تطلعه على حقيقة نسبي . اني سأكتم السر الى أن تحين الساعة !

ولم يستطع أحد ان ينتزع من دماغه هذا الاعتقاد .

وقد كنت انظر اليه نظرة ملؤها الشفقة والحزن واجتنب مناقشته واحذره بقولي : – حذار يافلاسي ، حذار من عقاب الله !

فيرد عليّ قائلا : – وكيف أخشى العقاب وأنا اله ؟

أما أنا فقد شعرت بميل شديد الى تقديس الكنيسة وما يلحق بها ، كان كل شيء في نظري مقدساً . من الايقونات الى الاناجيل الى القناديل والمبخرة ، فحم المبخرة كان في اعتقادي نفيساً ثميناً . فاذا لمست آنية كنائسية ، تخشعت وتحسست كأني ألمس شيئاً إلهياً منزلاً من السماء ، واذا صعدت درجات الهيكل ، وقف قلبي عن الخفقان وشعرت كأن عين الله التي لا تنام ولا تغفل ترمقني وتسدد خطواتي وتمدني بقوة عظيمة وتنشر أمام بصيرتي نوراً ساطعاً .

وكنت في بعض الاحيان أنفرد في الكنيسة فيكتنفني الظلام من كل ناحية، أما قلبي فكان يسطع فيه النور الالهي ويبدد منه آلامي وأوجاعي وما يعتري البشر من المصاعب .

كلما اقترب الانسان من الخالق ابتعد عن الناس ، غير اني لم أكن افقه آنئذٍ معنى هذه التعاليم .

عكفت على مطالعة الاسفار الدينية التي تيسرت لي ، فكان قلبي يمتلىء بالكلمات الالهية ، وتنتهل روحي من معينها العذب كوثر التقى والطهارة .

وكنت بعض الاحيان أدخل الكنيسة قبل الشروع في الصلاة فأركع أمام أيقونة الثالوث الاقدس واستمطر من عينيّ دموع الوضاعة والتخشع دون ان اصلي ، وما عسى ان أطلب من الله في صلاتي ، وأنا الذي اعبده عبادة نقية مجردة عن المصالح والغايات ؟

كنت اخاطب ربي قائلا : اللهم اني اصلي اليك لاطمعاً بنعيم ولا خوفاً من جحيم ، ولكن اهتداء الى صراطك المستقيم .

وكنت دائماً اذكر كلمات لاريون التي رددها على مسامعي وهي :

اذا صليت بشفتيك فانما تصلي الى الهواء لا الى الله ، ليس الله كالبشر . الناس يصغون الى الكلمات ، اما الله فيعنى بالافكار لا بالالفاظ .

وقد كنت أجثو امام الايقونة خالي الذهن نقي القلب صافي الضمير ، فأترنم بأغنية مبهجة ، ذلك لوثوقي بأني لست وحيداً في هذا العالم ، وبأن الله كان قريباً مني يرعاني بعين عنايته .

آه ما اجمل هذا العهد وما احلاه ، ما اعذب تلك التأملات الروحية وما أسعدني بها !

ولكن هذه الغبطة الروحية التي ملأت قلبي كان يشوبها بعض الاحيان شيء من الامتعاض والاستياء بسبب ما كان يقذفه قندلفت الكنيسة من السخافات والتجذيف كقوله معكراً صفائي :

– ليس لي ما أصنعه هنا . أخلقت ياترى لخدمة الكنيسة ؟ كلا ، كلا ، انا اله ، انا راعي كل المواشي الأرضية ، غداً أسير الى الحقول ، لماذا نفيت الى هذا المكان المظلم البارد ؟

كانت هذه العبارات وما شاكلها مما ردده القندلفت تثير غضبي عليه لأني كنت اعتقد انها تشوه طهارة الهيكل وتُسخط الله .

وقد لحظ الجميع شدة تعبدي وتقواي ، فاذا لقيني الكاهن هشّ لي وباركني فأضطر أن اقبل يده الباردة، ومع أني لا احترمه ولا اخافه فقد كنت احسده لانه تعمق في الاسرار الالهية ، كما كان يتراءى لي ...

وكانت عينا تيتوف لاتنفكان عن مراقبتي ، كما ان القرويين كانوا يحذرون كل الحذر ان يسيئوا الي ، وكثيراً ما سألتني اولغا ابنه تيتوف : أأنت قديس ؟

وفي ليالي الشتاء الباردة كنت اقرأ بصوت جهوري شيئاً من الكتب المقدسة فيصغي الى قراءتي تيتوف وامرأته وابنته . وبعد ان انتهي يسود السكون في البهو ، فلا تلبث نظرات نسطاسيا قرينة تيتوف ان تتحول اليّ مقرونة بابتسامة عذبة .

ولكني لم احفل بما يكتنفني ، بل تنصرف بي الافكار الى التأملات الدينية، فاراجع في ذاكرتي اعمال القديسين الشهداء الذين مجدوا اسم الرب في حياتهم ومماتهم . هؤلاء الشهداء كانوا احبّ الناس الى قلبي .

وكنت ايضاً احب رجال البر والاحسان الذين استعذبوا التضحية وانكروا انفسهم في سبيل محبتهم للقريب ، بيدَ اني لم اكن أفقه عمل اولئك الذين هجروا العالم باسم الله وقطنوا في الصحارى والمغاور ...

هل احسنوا بعملهم هذا الى الله اوالقريب؟ هذا سؤال لم أجد الجواب عنه، ثم أنتقل بالفكر الى مسألة الشيطان محاولاً جلاء الغامض .

كان لاريون ينكر وجود الشيطان ، بيدَ اني بعد الوقوف على حياة القديسين رأيتني مضطراً الى الاعتراف بوجود الشيطان .

وهناك نقطة لايجوز اغفالها وهي سقوط الانسان من الفردوس ، فكيف يتيسر لنا فهم هذا السقوط اذا انكرنا وجود الشياطين ؟

كان لاريون يرى في الله الخالق الفرد الكلي القدرة ، فمن اين نشأ الشر اذن ؟ ان حياة القديسين تدلنا على ان الشيطان مصدر كل شر واستناداً الى هذا قبلت في فكري اختصاص الشيطان بالشر .

الله خلق الورود والازاهير ، والشيطان صنع الاشواك .

الله خلق البلابل والعنادل ، والشيطان البوم .

ومع اني افترضت وجود الشيطان فلم اكن لأومن به واخافه وانما كان فرض وجوده ضروريا لتعلقه بمنشأ الشر ، ولكن مسألة الشيطان كانت تزعجني كثيراً لان وجود الشيطان يكسف شيئاً من شمس جلالة الخالق العظيم ، وهذا ما اريده . ولذلك كنت اتجنب زيادة التمحيص والتعمق في هذه المعضلة لئلا يطرأ على ايماني بعض الفتور .

أما تيتوف فكان يحاول دائماً ان يصرف افكاري الى الخطيئة والى سلطة الشيطان ، وكثيراً ما كان يوجه اليّ اسئلة غامضة مبهمة لا أدري كيف اجيب عنها . واذكر انه قال لي ذات مرة بينما كنت اقرأ قصة داود الملك هذه العبارات :

— كان داود ملكاً ، ومع هذا استولى عليه الخوف بعد ارتكاب الخطيئة . اي أن الشيطان كان أقوى منه . كان داود نبياً من أنبياء الله ، غير ان الشيطان انتصر عليه ودفعه الى ارتكاب المعاصي والخطايا . فماذا نتوقع نحن البشر ؟ أنؤمل الانتصار على الشيطان وقد اعجز الملوك والانبياء ؟

فوقعت هذه الكلمات وقعاً سيئاً في قلبي الهادىء الساكن فاضطرب وثار . وأنكى من هذا ان تيتوف كان يطلب مني ان اصلي لاجله فيقول لي :

— صلّ الى الله عني وعن امرتي وسله بحرارة أن يغفر لنا . صل لأجلنا ، فصلاتك تكافيء جميلي الذي اسديته اليك ...

لقد كنت ارسل صلواتي طائشة دون هدف أو غرض . كانت صلواتي كأغرودة الطير التي ترسلها الى الشمس ، ومع هذا شرعت اصلي لاجل تيتوف وامرأته وابنتهما اولغا وقد كانت آنئذ صبية فتانة .

كنت اتلو مزامير داود وسواهـــا من الصلوات التي تعلمتها لاجل تيتوف فأقول : — رب ، تعهد عبدك تيتوف بشفقتك ورحمتك ...

بيد اني لا اكاد اشرع في الصلاة حتى يعتريني انفعال نفساني شديد واشعر ان جبيني يندى خجلاً امام الله فأمسك عن متابعة الصلاة واغمض جفنيَّ لئـلا تقع نظراتي على وجوه القديسين المرسومة صورهم على الايقونات ، ثم انهض وقد انشطر قلبي بين الاسف والخجل. واحس ان غبطتي الروحية التي فاض بها قلبي بدأت تزول وتتلاشى بسبب تيتوف الذي لاتستطيع طهارتي أن تغسل موبقاته .



الفصل الرابع

على شاطىء الحياة ، بين الحقائق والاحلام . . .

اذا جاءت الآحاد وخرجت من منزل تيتوف ، اخذ الناس ينظرون الي بعين الفضولي . فكان البعض يرافقونني ضاحكين وسواهم يحدجونني بنظراتهم الجافة ، فلا اخطو بضع خطوات حتى يشيروا الي قائلين : ـ هذا هو الشقي !

او يسألونني : أعزمت اذاً على ترشيح نفسك للقداسة ؟

فيرد عليهم آخرون : انه ليس بكاهن وهو انما يؤمن بالله حباً للدراهم .

ويقول سواهم : ألم يقم بين القديسين رجال كانوا فلاحين ؟

ويتهكم علي البعض قائلين : ولكن ماتفي ليس فلاحاً انما هو لقيط نبيل .

وهكذا يختلط المدح بالقدح والاكرام بالشتيمة . أما أنا فلم اكن أعبأ بما يقولون بل أتابع سيري .

كنت في هذه الاثناء راغباً كل الرغبة في مسألة النـــاس لأعيش بهدوء وسكينة ، غير ان الاشرار كانوا ينصبون لي الشراك ويحولون بيني وبين رغبتي . وكان أشدهم مضايقة لي سافيلكو ، فهذا الرجل كثيراً ما كان يجثو امامي ويسألني متضرعاً ساخراً :

ـ السلام عليك ، ياصاحب القداسة ! صلّ لاجلي . لاجل سافيلكو وتضرّع الى الله فلعله يستجيب صلاتك . علمني ان أكون حبيباً الى الله ، قل ماينبغي لي أن أصنعه لانال حظوة في عينه ! أ أسرق فوق ماسرقت واقترف من المعاصي أضعاف ما اقترفت ثم أحرق شمعة للقديسين ؟

كان سافيلكو ماضياً في حديثه والشعب حولنا يضحك ويقهقه ، أما أنا فقد أصابني انفعال نفساني عميق مؤلم لم أعرف له نظيراً .

وتابع سافيلكو خطابه هازئاً متهكماً : ـ ايها النصارى المؤمنون ، طأطئوا رؤوسكم أمام هـــذا القديس الشاب الحامل نور الحق ! هو يسرق الفلاحين الفقراء ويبتز اموالهم في مكتب تيتوف ، ولكنه يكفر عن خطاياه في الكنيسة اذ يقرأ الأناجيل ويتلو الصلوات ويجثو أمام الايقونات المقدسة ، وهكذا تتبخر دموع الفلاحين الأشقياء وتضيع صرخاتهم واناتهم سدى في الفضاء فلا تصل الى مسامع الله ويظل التعس ملازماً لهم !

كان عمري آنئذ ست عشرة سنة ، فباستطاعتي اذن أن الطم سافيلكو وأشج رأسه ، ولكني كظمت غيظي ابتعاداً عن الشر . فما كان من سافيلكو الا ان طغى وتجاوز الحدود فنظم انشودة غناها في الشوارع على الكمنجة . وهذه الأغنية ترمي في الدرجة الاولى الى تحقير تيتوف وتحقيري أنا .

وبديهي ان يثور ثائري ويساورني عامل انتقام من هذا الرجل الشرير ، بيد اني كبحت جماح غضبي ، وكنت اذا تبعني سافيلكو منشداً اغنيته الهجائية أتظاهر بالتصام لكي لايشعر أحد بغيظي . ماذا اصنع لأتلافى الشر ؟

عكفت على الصلاة بحرارة وخشوع ، لاستمد بها حماية وقوة غير ان صلاتي في هذه المرة كانت مملؤة شكوى وتذمراً .

كنت اصلي قائلًا : « ربي والهي ، ماهو الذنب الذي اقترفته حتى نبذني

والداي وتركاني تحت رحمة الاقدار هاربين مني كأني حيوان أجرب ؟ »

الناس يولدون في مستوى واحد لافرق بين هـذا او ذاك وكل منهم ينصرف الى عمل . والعادة او الاصطلاح هو الذي يهيء الشريعة ويسنها ،ومن الصعب ان يفهم البشر الهدف الذي يسددون اليه نصالهم ، من الصعب ان يميزوا الاسباب التي تحرك هذا على ذاك ، وتؤيد الواحد لتسحق الثاني .

هذا اللغز العويص كان يقلق فكري لذلك عزمت على درسه .

كان قسطنطين نيقولايفتش صاحب المقاطعة التي يديرها تيتوف رجلاً غنياً وملاّكاً كبيراً ، وكان في نظر اسرته ابناً مشؤوماً ، فأمـه شنقت في مقاطعتنا ، وجده سقط عن فرسه فمات ، وامرأته هربت وتركته على احر من الجمر ، وأنا لم اشاهده الا مرتين ، فرأيته بديناً طويل القامة ذا نظارتين مذهبتين ، شرساً قاسي القلب .

وهو الى هذا عالم متبحر له مؤلفات شتى ، غيور على القيصر محب له . وقد اساء معاملة خوله تيتوف مراراً عديدة وطالما تهدده بالضرب ، ولكن اذا كان تيتوف كنعامة امـام قسطنطين فهو امام الفلاحين اسد وسيد مطلق يأمر وينهى .

اما المقاطعة التي كان يديرها فمنها ما كان يزرع فيـه القمح وآخر مؤجر للفلاحين ، ولكن صـاحب الاراضي رأى بعدئذ ان يعدل عن تأجير حقوله طمعاً بزراعة الكتان وذلك لانه انشىء بالقرب من المقاطعة مصنع للحياكة .

وكان رفيقي في المكتب يدعى ايفان ماكاريتش ينحصر عمله في المراسلات وعقد وثائق الايجار مع الفلاحين وتقييد الحسابات ، وكان كتوماً لايبوح لاحد بما يأتيه من الاعمال المتعلقة بالمكتب .

غير انه كان سكيراً خمّيراً مدمناً ، وفي ذات مرة احتفل الفلاحون بعيد

سيدة قازان واسكروه فمـــات شهيد الخمرة . وعلى الاثر اسند اليّ تيتوف شؤون المكتب كلها وعين لي مرتباً سنوياً قدره اربعون روبلاً واوصى ابنته اولغا بمساعدتي في الكتابة وضبط الحسابات .

وكنت قبل ان اتسلم أعمال المكتب عالماً بما ينطوي عليه ، فهو لم يكن في نظر الفلاحين الا الاحبولة او الفخ الذي ينصبه الصياد للذئب .

يدور الذئب حول الفخ ، ويراه ويدرك انه شرك منصوب له ، ولكن الجوع يغلب عليه وشهوته تشتد عندما يشاهد الفريسة التي يستهويه بها الصياد ، فلا يلبث ان يهجم عليها مؤثراً الوقوع في الفخ على أن يبيت على الطوى .

وهذه حالة الفلاحين أمام مكتب تيتوف .

مامضت أيام على تسلمي الدفاتر حتى كشفت القناع عن أمر كنت اجهله كل الجهل ، وهو ان المكتب قصر همـــه على سرقة الفلاحين وابتزاز اموالهم بأساليب شيطانية ، اذ ان الفلاحين المستأجرين كانوا يدفعون الفوائد الفاحشة فتتراكم عليهم الديون ويضطرون ان يشتغلوا لا لأنفسهم بل لتيتوف وحده .

مساكين هؤلاء الفلاحون ، لقد كانت عيونهم ملأى بالدموع ، يكدون ويجتهدون ويعـــانون شظف العيش لدفع الديون التي كانت تطوقهم بسلسلة حديدية .

وعندما اطلعت على حقيقة أمرهم تندى وجهي خجلا وحيـــاء وفهمت الاسباب التي حملت سافيلكو على اشراكي في تحقير تيتوف ، ومع هذا لم اغتفر له اساءته لاني لست بالمذنب .

ورأيت ايضاً تيتوف يحتال على صاحب الاراضي ويبتز امواله بأساليب مختلفة ، وقد انتبهت الى أنه بحاجة الى مساعدتي فأخذت اعامله معاملة الند للند قائلا في نفسي : ـ انه يحتاج اليّ ليخفي سرقاته عن عين الله .

وكان في هذا الوقت يدعوني « ابنه العزيز » وكذلك امرأته ، ولم يبخلا علي بالملبوسات الطريفة الانيقة مما لم اعرفه قبلًا . ولهـذا يقضي عليّ الواجب بعرفان الجميل .

غير ان هذا العطف لم يملأ نظري ويشبع قلبي ، ولم يكن ليحببهما اليّ ، في حين اني كنت أشعر بميل شديد الى ابنتهما اولغا ، فتستهويني ابتسامتها النقية وصوتها الحنون وحديثها اللطيف وشعورها الرقيق .

وكان تيتوف وامرأته منكسي الرأس كفرسين يحملان نيراً ثقيلًا ، فلا يشك من يراهما في انهما يحاولان ان يخفيا في مطاوي سكينتهما خطيئة أشر من السرقة .

وكانت يدا تيتوف تخيفانني وتقلقان راحتي . يا الله ، لماذا يخبيء هـــذا الرجل يديه ؟ ألعلهما اقترفتا جريمة فظيعة ؟ وربما كانتا مصبوغتين بالدماء ..

وكان الرجل وزوجه يرددان على مسامعي العبارة التالية :

ـ ماتفي ، صلّ الى الله ليغفر لنا نحن الخطاة المساكين !

وفي ذات مرة غلب عليّ الفضول فسألتهما :

ـ عجباً ، أيجوز ان تكونا اكثر خطيئة من سائر الناس ؟

فتنهدت نسطاسيا وخرجت وادار زوجها ظهره دون ان ينبس بحرف .

وكان تيتوف شديد الوطأة على الفلاحين قاسي الفؤاد لا يلين لشكواهم ولا تأخذه عليهم شفقة وقد نصحت له مرة أن يتساهل فردّ عليّ غاضباً :

ـ إياك ان تلين أو تتساهل والا هلكت .

واراد مرة أن يرغمني على تقييد حساب مزور فقلت له :

ـ ان ما تطلبه مستحيل لأنه ذنب لا يغتفر .

فرد علي بقوله : ومـاذا يعنيك ما دمت أنا الذي ارغمك على ارتكاب الذنب ، ما هي خطيئتك ما دمت أنت مسيراً لا مخيراً . قيد ما طلبته منك

ولا تقلق . فلن تؤخذ بذنب سواك . لا تخف فأنت لست مسؤولاً ، واعلم بأنني لا استطيع ان أعيش بمرتب عشرة روبلات في الشهر ، لا أنا ولا سواي ، أفهمت ؟

فقاطعته مغتاظاً : كفى كفى ، يجب ان تضع حداً لأعمالك الشائنة ، واذا كنت لا تكف عن سرقة الفلاحين الفقراء ، فأنا أعلن أمرك للقرية !

فنظر الي تيتوف نظرة ملؤها التهكم والازدراء وسألني : أجاد أنت أم مازح ؟

– اني جاد كل الجد

فقهقه ساخراً وأجاب : – حسن أيها القديس الصغير ، سأتقاضى الديون ريالاً ريالاً ، عندما لا يبقى لي ما أسرقه ، أشتغل بشرف . ثم خرج غاضباً ودفع الباب بشدة .

ويلوح لي ان تيتوف كف منذ هذا اليوم عن تقييد الحسابات المزورة ، وهذا أمر لا اؤكده ، بيد أني لا أذكر أنه طلب مني بعدئذ أن أساعده في سرقة الفلاحين .

وكان تيتوف لا ينكر على نفسه طلباً ، ولا يكبح لشهواته جماحاً ، كان يدرك قيمة المال ، ويستهنيء اللحم الغريض ، ويستمرىء النساء فلا ينفك عن العبث بهن والاعتداء على عفافهن بوقاحة غريبة ، اما العذارى فكان لا يمسهن بسوء خوفاً من النتائج الوخيمة . وأذكر أنه حرضني مراراً على الحذو حذوه قائلاً :

– لماذا تتجافى ؟ ألا تعلم انك تحسن الى المرأة اذا مددت اليها يدك ؟ ليس في القرية امرأة واحدة لا تتحسر وجداً على من يداعبها وتتنهد جوى على من يلاعبها ، وأنت شاب جميل قوي البنية فلماذا لا تنعم باللذات ؟

هذا المخلوق السافل كان يحسن الاغواء فيصور افكاره الشريرة وميوله الحيوانية صورة جميلة تستهوي رائيها . وفي ذات مرة سألني قائلا :

– قل لي، يا ماتفي ، ما هي قيمة الرجل المستقيم في عين الله ؟ أتظنها عظيمة ؟

فغضبت وأجبته محتداً : – لا أدري .

وبعد أن سكت قليلاً تابع قائلًا :

– ان الله أخرج لوطاً من سادوم وأنقذ نوحاً من الطوفان وأهلك عشرات الآلاف بالنار والماء . لقد جاء في الوصايا الالهية « لا تقتل » .

وبعض الاحيان أقول في نفسي إن هذه الألوف انما ماتت لأن ليس بينها رجال صالحون . وقد أراد الله ، على ما في وصاياه من الشدة والقسوة ، أن يعيش البعض عيشة ملؤها الطهر والنقاء . واذا كانت سادوم خلواً من رجل صالح ، فكان على الله أن يدرك ما في وصاياه من الشدة ، ولو أنه يدرك هذا الأمر لخفف شيئاً من قسوة شرائعه بدلاً من أن يهلك ألوفاً من البشر استحال عليهم العمل بأوامره ونواهيه .

يقولون ان الله رحيم شفوق ولكن أين رحمته وشفقته ..؟

أما الهدف الذي رمى اليه تيتوف من وراء كلماته فهو أن يحلل لنفسه ارتكاب الخطيئة ويزين لها ارتكاب المعاصي .

فرددت عليه والغضب آخذ مني مأخذه :

– دعك من الكفر والتجديف ، أراك تخاف الله ولكني لا أراك تحبه.

– ربما كنت مصيباً ، وعلى كل فاحسبكم أنتم الاتقياء المتعبدين مقياساً لله في محاكمة الخطاة والاشرار ، ولولاكم لتعذر على الديان أن يميز بين الصالح والخاطىء ، وان يحدد الخطيئة ويقدرها ...

وبعد هذه المناقشة اقتصر تيتوف في أحاديثه على الشؤون المتعلقة بأعمال المكتب دون أن يتعداها الى سواها ، أما أنا فحقدت عليه حقداً شديداً ملأ روحي .

وازداد سافيلكو قحة وفضولاً حتى مجّته نفسي وكرهته كل الكره ، فلم استطع احتماله .

وكان اذا خطر تيتوف في ذاكرتي عندما أصلي مساء ، ينتابني ما يشبه الحمى وتثور كوامن غيظي ، فلا ألبث أن اتمرّد وأصلي الى الله قائلا :

« ربي والهي ، اني لا أحب أن تشمل بعطفك ورعايتك لصاً دنيئاً ، أتضرع اليك أن تعاقبه وتؤدبه فلا يبتز الفقراء التاعسين ولا يمد يده اليهم بسوء »

وقد تضرعت الى الله بحرارة وخشوع وجثوت على قدميّ وأغمضت عينيّ وتصورت في مخيلتي العقاب الشديد المعدّ لهذا الرجل .

ومثل سافيلكو ذات يوم في المكتب واخذ يتهكم علي ويسخر بتقواي وورعي ، فلم يسعني الا أن أقبض على عنقه وأضغطه ، فصاح متألماً ومد يده وأزاح أصابعي قائلًا :

ـ ارفع يدك فلا طاقة لي باحتمال الألم . وعلاوة على هذا ألا تدري انك بعملك هذا تخالف تعاليم الانجيل ؟

فأجبته محتدماً غيظا : ويل لك أيها الخبيث ، بماذا أسأت اليك حتى تزدريني ؟ ألأن أبويّ عقاني وتبرآ مني ؟

فقال : دعنا من الرياء والمراوغة ، نحن نعرف الحقيقة . انت تأكل الخبز المسروق ، وتعلم أنه مسروق ..

ـ كذبت يا منافق يا خبيث ، انما آكل الخبز الذي أربحه بعرق جبيني .

ـ هذا ما أعتقده ، السارق يحتاج الى العمل عندما يسرق ، ولو كانت

سرقته دجاجة ..

ثم أخذ يحدجني بنظرات ملؤها التهكم والازدراء ، وبعد قليل غير لهجته ورمقني بعطف قائلاً :

– اني أذكر يوم كنت صغيراً يا ماتفي ، واذكر نقاء قلبك وصلاحك ، واليوم وقد أصبحت عالما وتقيا زائفاً وتخلقت بأخلاق اللصوص ، عمدت الى الاستتار بنقاب الدين ودللت بعملك على انك كسائر النـــاس لا تعفّ اذا سنحت لك الفرصة ..

وما طرقت عباراته مسامعي حتى طردته من المكتب . لقد أهانني وعدني تقياً كاذباً وأنا أحسب نفسي عبداً صالحاً وخادماً اميناً لله .

وما أن غاب ظله الثقيل حتى ارتميت على مقعدي وقد شعرت بوهن شديد ولهفة قوية .

كنت في ذلك العهد ابن ثماني عشرة سنة ، شاباً في فجر الحيـــاة أشعر بما يحسه مَن كان في سني . أردت أن اتقرب الى اولغا ابنة تيتوف ولكنني لم أجسر ، ولم يكن لي من الجرأة ما يشجعني . وكانت النساء في القرية يتهكمن عليّ ويزدرين حيائي حتى اولغا نفسها كانت تضحك مني !

وفي ذات يوم خالجتني فكرة غريبة فأخذت أقول في نفسي :

– ما أسعدني رجلاً اذا استطعت ان اقترن بأولغا !

كنت أمني النفس بالسعادة وأحلم الاحلام الذهبية ، ولكن مع هذا لم اتجرأ أن أكاشف اولغا بمكنونات قلبي .

كنا نقضي الايام معاً في المكتب دون ثالث أو رقيب ، ومع هذا لم أجرؤ على الاسترسال معها في الحديث .

كانت اولغـــا نحيلة الجسم بيضاء البشرة كالزنبقة ، عيناها الزرقاوان

تفيضان ذكاء وكآبة فتبدو لي أجمل المخلوقات وافتنهن .

وفي أحد الايام سألتني : علام كآبتك ، ياماتقفي ؟

وقد كان هذا السؤال فاتحة عهد جديد اذ تمكنت أن أبسط لأولغا شيئاً من أسباب حزني ومرارة روحي ، وقد كنت قبل الان أكتم كل الكتمان ما يغشاني من الكآبة العميقة .

قصصت على اولغا حقيقة أمري ، ولم أكتم عنها سر ولادتي وما نالني من العار والخزي ، وسردت لها كل ما أشعر به من التعس والشقاء ثم اوردت لها اشمئزازي من سلوك ابيها الشائن ، فلم اشكُ سوءحظي ولا رثيت لما انتابني بل بثثت لها ما في صدري وعبرت عما اشعر به في داخلي وختمت كلامي قائلاً :

ــ اني سأصبر على امري ، فآوي الى احدالاديار حيث انال السلام الداخلي .

وكان لقصتي وقعها المؤثر في قلب اولغا الحنون ، فما ان اتيت عليها حتى خفضت رأسها واطرقت مغتمة صامتة .

وبعد ثلاثة أيام اسرّت اليّ قائلة : لا تحزن ولا تكتئب ، انت اليوم وحيد ولكن هذه الوحدة لا تلبث ان تزول اذا تزوجت فتعيش كسائر الناس هنيئاً في مراتع العائلة وبين جدران بيتك .

أما أبي فلا تغضب عليه ، الكل يمقتونه وانا أعلم هذا ، ولكني لا أراه أسوأ من سواه . هل رأيت بين الناس من لا يحب نفسه ؟ الغيرية وعدم المبالاة ومحبة القريب وسواها من الفضائل ليست الا أساطير خرافية في هذا العصر .

وقد جاءت كلماتها بلسماً لجراحي وتعزية لروحي فاغتنمت الفرصة وبحت لها فوراً بسري المكنون وقلت لها : أتريدين أن تكوني زوجاً لي ، يا اولغا ؟

فاصطبغ وجهها بقرمز الحياء ثم اطرقت واجابتني بصوت منخفض : نعم ، أريد .

الفَصلُ الخَامِسُ

الفأس التي صرعت الخير لتشيد منزلا واسرة ...

في صباح اليوم التالي قابلت تيتوف وقلت له اني راغب في الاقتران بأولغا وان كلينا (مرتبط) بعهود الحب . فابتسم واخذ يلاعب شاربيه واجابني :

– يلوح لي ياماتفي ان إرادة الله توفر الاسباب لتكون ابناً لي ، علامَ الانكار ؟ انت شاب قويم المبدأ متواضع تتمتع بصحبة حسنة فضلاً عما تزدان به من الفضائل النفسية ، فلا أغالي اذا قلت انك كنز ثمين .

ولكن مصاعب الحياة كثيرة ومن شاء ان يذللها فعليه ان يكون خبيراً في ادوارها عالماً باسرارها ، وانت على مايبدو لي لاتدرك شيئاً من أمر الحياة العملية وهذه اول عقبة تحول دون مرامك .

اما العقبة الثانية فهي انك بعد سنتين مضطر الى الانتظـــام في السلك العسكري . فلو كنت وفرت خمسمائة روبل مثلاً ، لاستطعت التملص من الجندية وانا نفسي ادبر الأمر ، بيد انك لاتملك شيئاً من المال ولذلك يتحتم عليك ان تلبي دعوة الحكومة وتسافر الى حيث تمارس الخدمة العسكرية ، وتغادر اولغا وتتركها لاهي متزوجة ولا ارملة ولا ايّم ...

وقد وقع جوابه في قلبي وقوع السهم وخصوصاً عندما اتى على ذكر الخدمة العسكرية التي كنت اكرهها كرهاً اعمى . فأنا لم اشعر قط بميل الى حمل السلاح ولم افكر يوماً ان انخرط في السلك العسكري .

كانت ثكنات الجنود في نظري بؤرة فساد وشر ورذيلة ، وأنا لا اطيق المعيشة في هذا الاتون واحاول بكل قوتي ان ابتعد عنه ، فلما رأيت تيتوف يلوح به متوعداً أجبته :

– مادام الامر كما ذكرت فأنا أنتظم في سلك الرهبانية .

فرد عليّ ضاحكاً : لقد فاتك الوقت وأضعت الفرصة المناسبة . فالاندماج في الرهبانية لايتم من يوم الى آخر ، أما الاخوة المتبتلون فهم يساقون الى الجندية كسائر الشبان دون ان تكون لهم ميزة . نعم ياماتفي ، لامنقذ لك من الجندية الا المال ، المال وحده هو الذي يقيك ...

فأجبته دون تفكير : أما والحالة على ماذكرت ، فاعطني شيئاً من المال . انك غني كبير ولا يصعب عليك أن تقدم لي مايعوزني ...

فرد عليّ ضاحكاً : ما اشد سذاجتك ، ياولدي ! انك ترى الامر سهلاً وما هو بالسهل . انت تستسهل الطلب ولكنك لاتعلم كم عانيت في سبيل حشد المال ... تأمل ملياً ... ربما كنت قد جمعت ثروتي بارتكاب الجرائم واقتراف الذنوب والمعاصي ... نعم ، من يدري ، ربما كنت اضطر بعض الاحيان الى أن ابيع روحي للأبالسة طمعاً بنيل الثروة . . فهل ترى من العدل بعد ما ارتكبت ما ارتكبته أن اتلطخ أنا بسفعة العار والخطيئة ، وتعيش أنت بجانبي شريفاً نقياً بعيداً عن الشبهات والظنون بريئاً من الجرائم ؟ ليس هـــذا من الانصاف في شيء ، ياعزيزي ماتفي !

ان الصالح يستحل الدخول الى الجنة على اكتاف الخاطىء ، بل ليس بين

الناس من يرفض الجنة اذا وجد خاطئاً يحمله اليها . . . أما أنا فلست بالرجل الذي يصلح ليكون مطيتك ولا أرضي أن اكون سلما تصعدها انت للوصول الى السماء .

أتريد المال ؟ ارتكب الخطايا والمعاصي ، اقترف الذنوب والله يغفر لك أنت الذي نلت غفرانه سلفا ...

فصعّدت نظراتي في تيتوف وخيل الي آنئذ انه تسامى الى الذروة العليا وتركني في اسفل الهاوية . بدا لي حينذاك انه أرفع مني واني منطرح على قدميه ذلاً وخنوعا بل تمثل لي انني دونه ذكاء وصلاحا ... فأمكست عن الكلام بعد ما أعجزني وهدم آمالي .

وعند الاصيل أطلعت اولغا على ما قاله أبوها فانهمرت الدموع من عينيها واجابتني كئيبة : ان الرياح تسوق شراع آمالنا الى غير مانشتهي ...

فكان لهذه العاطفة التي أبدتها اولغا وقعها القوي في فؤادي وأجبتها فوراً :

ــ لاتحزني ، فستجري الرياح على ماتتمنى .

وقد كانت هذه العبارة التي لفظتها عفو الخاطر دون تفكير بمثابة عهـــد قطعته على نفسي أمام اولغا ، فمن البديهي أن ابذل مافوق طاقتي للقيام به .

ومنذ هذه الدقيقة شرعت في العمل وتذرعت بالخطايا والذنوب الوصول الى الغاية التي تنيلني الفوز بأولغا .

كنت في ذلك العهد مضطربا حائراً لايقر لي قرار ، كنت كالاعمى الخابط في دياجير الظلام ، بل كنت أتسكع في داخلي كما تتسكع الحمامة في دخان كثيف اندلعت فيه ألسنة النيران .

اني أحب اولغا واريدها قرينة لي ، بيد أن والدها يأبى الا أن يحملني ما فوق طاقتي ، وقد هالني أن أعترف له بقوة مراسه ومضاء عزيمته وصلابة ارادته .

كنت احتقره وارذل أعماله المنكرة وخصوصاً سرقاته وابتزازه أموال الفلاحين الفقراء ، ولكن مع احتقاري له لم يسعني الا أن اعجب بقوة ارادته ومقدرته على تسخير الناس طبقا لمشيئته ، فما عسى أن اصنع أمام هذا الخصم العنيد ؟

وزاد في آلامي النفسانية ان القرويات أخذن يزدرينني ويتهكمن عليّ ، وذلك بعد ماشاع في القرية اني خطبت اولغا وردني أبوها خائباً .

وكنت وقت الصلاة أتمثل تيتوف واقفا ورائي يبث في أفكاره ، فيشتد قلقي واتضرع الى الله قائلا :

– أغثني يارب وساعدني ! سدد خطواتي في طريقك القويم واحفظ نفسي نقية من ادران الخطيئة . أنت يارب عظيم رحيم فابعد الشر عن عبدك أيها الكلي القدرة ، وامنحه القوة ليكافح التجربة ويسلم من الوقوع في حبائل الاشرار .

يا ألله ! رأفتك وحلمك ، فلا يتطرق الشك في محبتك الى قلبي .

وعلى هذه الصورة كنت أدعو الله الى الهبوط من أعالي مجده ليدافع عن مصالحي الشخصية الحقيرة . كنت أدعوه ليسقط الى الدرك المادي الاسفل ، ليحقق رغباتي الارضية ! تباً لي ...

وكانت اولغا تذوب كآبة يوما فيوماً كالشمعة التي يذيبها اللهيب . ولم تكن امها أقل حزناً منها ، اني اذكر نظراتها وتنهداتها واقابل بينها وبين زوجها الذي كان يحوم حولي كما يحوم الغراب حول كلب يحتضر ، حتى اذا دنت الساعة فقأ عينيه بمنقاره والتهمها .

ومضى شهر على هذه الحالة خلتني فيه واقفاً على شفا جرف هار لا أدري كيف أنجو من السقوط في الهاوية العميقة الماثلة أمامي .

وفي ذات يوم دخل تيتوف المكتب وخاطبني بصوت يشبه الهمس قائلاً:

- اصغ الي، ياماتفي . لقد جائتك فرصة سانحة فانتهزها اذا شئت ان تكون سعيداً ، وبالتالي رجلاً !

ثم أخذ يشرح لي المقصود بالفرصة السانحة وانما هي كناية عن سرقة يجني تيتوف من ورائها مائتي روبل ويخسر الفلاحون مقداراً كبيراً ، وبعد أن أطلعني على الامر سألني : والآن ماذاتقول ؟ ألكجرأةعلى هذه الصفقة الرابحة؟

وقد غرني بالغرار الذي طبع عليه هذه « الفرصة السانحة » فأجبته :

- أجرأة على السرقة ؟ ان ما تطلبه مني لايسمى جرأة وانما يدعى سفالة وحطة ، فلنسرق وليكن الامر كما تشاء .

فأغرق في الضحك وسألني : والخطيئة ؟ أنسيت الخطيئة ؟

فأجبته محتدماً غيظاً : أنا نفسي أحل نفسي من خطاياي .

فارتاح الى جوابي وقال : اعلم إذن ان يوم خطيئتك على اولغا قريب .

آه ما أشد بلاهتي وغباوتي ، لقد نصب لي الفخاخ فسقطت فيها على أهون سبيل . ثم باشرنا أعمالنا اللصوصية وشرعنا نبتز القرويين ، وكنت انا وتيتوف كلاعبي شطرنج اذا هجم هجمت واذا استدرجني الى خدعة كشفتها واستدرجته الى سواها .

لم يكن أحدنا يكلم الآخر غير ان النظرات التي نتبادلها كانت كافية للتفاهم. تيتوف انتصر علي فخسرت كل شيء ، بيدَ اني لم ارض لنفسي أن اكون خلفه حتى في الاعمال السيئة !

كنت أتسلم نتاج الكتان من الفلاحين فأتلاعب في تقييد الوزن وأسرق ما أشاء . واقيد على الفلاحين غرامات مالية متذرعاً بما ألحقته مواشيهم من الاضرار في حقول صاحب الارض . ولا أغفل باباً من ابواب السرقة فاستل

من القرويين المساكين أموالهم فلساً فلساً، وامتص دماءهم نقطة نقطة، بيد أني لم اقبل ان اقبض هذا المال الحرام السحت بل تركت امره لتيتوف .

كنت في تلك الاثناء كالوحش الضاري الذي لا يعبأ بفريسته .

وكنت اذا فكرت في الله شعرت كأن في عنقي حبلاً مشدوداً لخنقي فأذوب حسرة ولهفة واوجه لومي الى الله قائلا : لماذا لا تمدني يا رب بقوتك وتحول دون سقوطي ؟ لماذا تعرضني للتجارب التي تفوق قوتي ؟ ألا ترى يارب ان نفسي بدأت تضل وتتلطخ بأدران الخطيئة .

وكان يعتريني في بعض الاحيان انفعال نفساني شديد فأمقت نفسي واولغا معاً ، وانظر اليها في داخلي نظرة الاشمئزاز والغضب قائلا :

– يا شقية ، لولاك لما تلطخت روحي بسعفة الاوزار وتعرضت للهلاك ! ولكني لا البث حتى أندم ويستولي عليّ الخجل ، فأدنو من اولغا متحبباً مكفراً عن اساءتي الفكرية . والحقيقة انه كانت تغلي في صدري مراجل الحنق وتتذوق روحي مرارة الحياة ، لا شفقة عليّ او على ضحاياي القرويين ، بل كمداً وهماً وقهراً لأني لم استطع ان انتصر على تيتوف ، هذا الرجل الذي قادني بقوة ارادته الى حيث شاء وسخرني لتنفيذ مشيئته ، وكنت اذا ذكرت كلماته في صدد الصالحين الابرار تعتريني قشعريرة واهتز حنقاً وسخطاً . وفي ذات يوم جاءني تيتوف وقال :

– لقد حان ان نفكر في مستقبلك ايها الرجل القديس ، انت مقدم على الزواج فمن الواجب ان نهتم بتدبير منزلك .

يا سبحان الله لماذا دعاني « الرجل القديس » لا ادري .

وبعد ايام استطاع تيتوف ان يستوهب من صاحب الاراضي لوسيف بقعة من املاكه، وذلك بعد ان توسل اليه وتضرع واستعان بكل الذرائع

التي تسترق القلوب . كانت البقعة جميلة تقع بالقرب من القرية . وعلى الاثر امر تيتوف بتشييد منزل صغير فيها يصلح لسكنانا .

كان النجاح حليفنا في اعمالنا الصيرفية فامتلأت الخزانة بالاموال المبتزة من القرويين المساكين .

وبعد مدة قصيرة انتهى البناؤون من تشييد المنزل الجديد ، ولم يبق الا القليل حتى ينجز العمل .

واتفق في اصيل ذات يوم انني بينما كنت عائداً من جاكيموفكي حيث ضبطت مواشي الفلاحين المديونين ، اذ رأيت ألسنة النار تندلع على مقربة من القرية .

فأسرعت واجتزت الغابة المحيطة بالقرية وارسلت نظراتي فرأيت النيران تلتهم المنزل الذي بناه لي تيتوف .

فانفطر قلبي حزناً وألماً وشعرت ان الله شاء معاكستي فاحتدمت غيظاً وتمنيت لو اني قادر على قذف السماء بحجارة غضبي وحنقي اذن لرميتها وثارت لنفسي . وكيف لا اتميز غيظا وتثور مراجل الحقد في صدري وقد رأيت امام عيني ثمرة سرقاتي ونتاج خطاياي يتحولان بين لحظة واخرى الى رماد ؟

رفعت بصري الى السماء وخاطبت الله قائلا : اتريد ان تبرهن لي على انني آثرت الرماد والدخان على نقاء النفس والصلاح ؟ اتريد ان تقول لي اني بعت دنياي بديني ؟ كلاّ ، فأنا لا اؤمن بك ، ولا ارضى هذه الوضاعة والذل . ان البيت لم يلتهب بارادتك ، الفلاحون هم الذين احرقوه مدفوعين بعامل الموجدة على تيتوف وعليّ .

اذا كنت انكر حنقك يا الله فما هـذا لأني لا استحق غضبك بل لأنه يشينك ولا يستوي مع عظمتك !

انت ، انت المذنب وانت وحدك المسؤول عما اقترفته لا انا ، وإلا فلماذا لم تمد إلي يد المعونة والغوث في ساعة التجربة ؟ لماذا سددت في وجهي سبيل الخلاص وابيت ان تمدني بالسلاح لمحاربة الخطيئة ؟ لقد استسلمت للمعـــاصي والذنوب كذاك الذي اوغل في غابة كثيفة فتاه ولم يهتد الى الطريق الامين! »

ولكن هذا التجديف لم يسكن تأثري ولا اخمد نيران حنقي بل زادها تأريثاً . والتهمت النيران البيت قبل ان تسكن عاصفة ثورتي النفسانية .

كنت مستنداً الى شجرة اشاهد خيبة آمالي وتبعثر اماني ، فأغمضت عيني وتمثلت اولغا امامي وقد شحب وجهها المشرق حزناً ولهفة واغرورقت عيناها بالدموع وتفجرت من صدرها التنهدات والتأوهات ، فثارت روحي وتمردت على القدر الاعمى الذي بطش بي وانا لا ازال بضيض اللحاء ، فرفعت رأسي وارسلت بصري الى السماء وقلت لله : — اذا كنت انت قوياً فينبغي لي ان اكون قوياً ايضاً ، بهذا يقضي الحق والعدل .

وبعد قليل خمدت النيران وغمرت الظلمة والسكينة تلك البقعة ولم يبق هنا وهناك الا بعض الالسنة النارية فوق اكوام الرماد كأنها نشجات طفل نهكه البكاء .

كانت الغيوم الكثيفة تحجب وجه السماء فيبدو الجدول التائه في الحقول كنصل سيف صقيل ، فوددت لو تناولته بيدي وأطلقته في الهواء ليشق جوف السماء !

وعند منتصف الليل عدت إلى القرية فرأيت اولغا وأباها ينتظرانني على باب البيت وما ان دنوت حتى ابتدرني تيتوف قائلا :

— اين كنت بعد هذه الغيبة الطويلة ؟

فأجبته : كنت على الجبل اشاهد النار .

– ولماذا لم تسرع لاخماد اللهيب ؟

– وهل تحسبني قديساً يصنع العجائب . ان النيران لا تنطفىء ببصقة القيها فوقها .

وبعد ان اطرق تيتوف مفكراً قال : والآن لا أدري ماذا اصنع .

فأجبته : يجب ان تهتم بترميم المنزل اولاً .

كنت واضعاً نصب عيني تذليل كل العقبات لاعادة بناء منزلي المحروق . وكنت اشعر بقوة غريبة في داخلي تدفعني الى العمل ، ولو استطعت لشيدته بيدي . لقد عصيت الله واغضبته ولكني مع هذا كنت اريد ان اعرف اهو معي ام عليّ ؟

وحالا عدنا الى الاحتيال على الفلاحين وابتزاز دراهمهم ، ما اكثر ابواب اللصوصية التي ولجتها ! كنت سابقا اصلي ليلا واستمد معونة الله واتوسل بقديسيه، اما الآن فأقضي الليل ساهراً مفكراً باحثاً عن الوسائل التي تمكنني من الحصول على المال الذي كان شغلي الشاغل ، وهدفي الذي ارمي اليه . يجب ان اجمع المال ولا فرق عندي بين ان يكون حلالاً ام حراما .

كنت اعلم علـم اليقين اني ضحيت بهناءة الكثيرين وأنزلت دموعهم وابكيتهم. كنت ادري اني اختطفت الخبز من افواه تاعسين كثيرين ، كنت اعرف اني قسوت على الاطفال وتركتهم تحت رحمة الاقدار لأنال مأربي وافوز بغرضي . ولكني مع هذا كله ، مع كل ما جررته من الويلات على اولئك القرويين المساكين ، لم انفك عن السرقة والاحتيال .

اما اليوم فأخجل من نفسي عندما افكر في هذه الاعمال الشائنة التي ارتكبتها ولطخت بها نفساً نقية .

كنت في تلك الايام استحي ان امثل امام صور القديسين ، فاذا وقع

نظري على احداها خفضت الطرف حياء وخجلا بل خوفا من السهام الحادة التي كانت تسددها الى صدري عيون القديسين في الايقونات .

واتصل الامر بي الى اني حللت لنفسي حتى السرقة المباشرة. ففي ذات مرة رأيت على مكتب المدير العام نصف ريال فمددت يدي اليه ووضعته في جيبي كأحد اللصوص .

اذا كان الذين أثروا ممتصين دماء الشعب مبتزين أمواله بشتيت الاساليب قد نزهوا النفس عن السرقة فأنا لم أنزه نفسي عنها .

وفي أحد الايام جرت لي حادثة مؤثرة تركت في نفسي وقعاً قوياً .

جاءتني اولغا فطوقتني بذراعيها وقالت لي بلهجة عذبة رقيقة :

— ماتفي ، اسأل الله أن يكون معك ، اني أحبك حباً جماً ولا أوثر عليك شيئاً في الدنيا !

لفظت اولغا كلماتها بسذاجة تشبه سذاجة الاطفال عندما ينادون (ماما) ، فشعرت آنئذ بسعادة لا توصف وأحسست بقوة جديدة فعانقتها عناقا طويلًا وضممتها الى صدري بحرارة تشبه حرارتي في صلواتي السابقة !

وبعدما انتهى البناؤون من ترميم البيت المحروق اقترنت بأولغا في حفلة حافلة ضمت اكابر رجال المقاطعة كالكاهن ومحرر العقود وضباط الشرطة وسواهم ممن هم دونهم شأنا . واندفع تيتوف بعامل الجذل فشرع يحتسي الكأس تلو الكأس الى أن أخذت منه الخمر فأخذ يقهقه ويعربد ، أما قرينته فكانت تارة ترسل الينا نظراتها وتبكي دون أن تنبس ببنت شفة ، وطوراً تبتسم لنا والدموع تنهمر من عينيها ، فلا يلبث زوجها أن ينتهرها قائلًا : دعي البكاء يا امرأة واغتبطي بالصهر الذي ساقه الينا الحظ . انه رجل مستقيم قديس .. ثم يقهقه مبتهجاً أو ساخراً .

وكان الفلاحون قد تجمهروا تحت النوافذ لمشاهدة الحفلة ، وبعدان انتهت صلاة الاكايل أخذ سافيلكو يغني وهو يعزف على قيثارته فاستعذبت غناءه وأصغيت اليه وسررت بنكاته ودعابته اللطيفة . وصفق له القرويون واستعادوا الغناء .

وكانت اولغا تتمنى أن تنتهي الحفلة وينصرف المدعوون فنستريح من قيود التشريفات وثقالة الضيوف ، الى أن منّ الله علينا بالفرج فخلوت بأولغا وأخذنا نبكي كلانا .

تعانقنا على السرير وسكرنا بخمرة الحب المقدس وتعاطينا كؤوس السعادة مترعة على سمر أرق من النسيم وأعذب من الراح ، ورحنا نبني العلالي والقصور حتى أدركنا الصباح .

قالت لي اولغا وقد ضمتني الى صدرها : ـ ما اعذب الحياة بين ذراعيك أيها الحبيب ، اني أرجو ان نكون أصدقاء احباء لجميع الناس فتتم هناءتنا .

فاغتبطت نفسي السكرى بخمره السعادة غير الموصوفة وأجبتها :

ـ قسا عليّ ربي اذا قسوت عليك يااولغا ، يا حبيبة قلبي .

فقالت بلهجة ملؤها الحنو والرقة : سأكون لك امرأة وأماً يازوجي المسكين ، فأعزيك وأسليك وأشاطرك الهناء والشقاء !

ooooooooooooo

الفَصْلُ السَّادِسُ

القلب الذي يخلو من الخير يسكنه الشقاء

مرت الايام هنيئة كأنها احلام ذهبية تملأ النفس ابتهاجا ، فلا يكاد ينتهي العمل حتى أهرع الى البيت واعانق امرأتي بحرارة واتحدّث اليهـــا والقي في اذنها انشودة الحب .

كنت اذكر طفولتي ، فأجوب الحقول والغابات برفقة اولغا لاصطياد العصافير. فما مضى الا القليل حتى غطّـت الاقفاص جدران الرواق ، وأولعت اولغا بالطيور ولوعاً شديداً فكانت تعتني بها كل العناية وتصغي الى تغـاريد البلابل والعنادل جذلة .

وكنت اقضي ساعات الليل بالحديث عن طفولتي فأقص على اولغا اخبار لاريون وسافيلكو والمجادلات التي تدور بينهما حول الله .

يستحيل عليّ ان اصف السعادة التي ظللتني في حياتي الزوجية بعدما ذقت مرارة الحياة وشربت كأس اتراحها ، وكثيراً ما كنت اسائل نفسي : افي يقظة انا ام في منام ؟ من يصدق ان في الحياة الدنيـا جمـــالاً وغبطة لا يُحدان ؟

آه ، ما احبّ الحياة اليّ بين ذراعي اولغا .

كنا نذهب معا الى الكنيسة فننزوي في احد جوانبها ونشرع في الصلاة بحرارة،فأوجه الى الله آيات الحمد والاعتراف بالجميل مختالاً زاهياو كأني انتصرت على القدرة الالهية التي ارغمتها على أن تفتح لي سبيل الهنـاء والسعادة وتسبل علي وشاح النعمة والغبطة ، فلما أذعنت لي شكرتها وحمدتها قائلا : « لقد أحسنت يا رب واصبت وانصفت وقمت بما يجب ان يكون »

آه، ما أسوأ افكاري !

ومرّ الشتاء دون أن أشعر به ، مرّ كأنه يوم مشرق تلألأت شمسه وصفا أديم سمائه واعتل نسيمه واعتدلت حرارته .

كنت ثملًا بخمرة الحب ، لا أرى حولي الا الازاهير والرياحين .

ما اعظم قوة الحب وما اشد تأثيره في القلب !

وفي ذات يوم اعلنت لي اولغا انها حبلى ، هذه البشرى ضاعفت اسباب مسراتنا وافراحنا ، رباه ! ما اكرمك واغزر آلائك .

وخطر لي آنئذ ان اهتم بالمستقبل فعزمت على انشاء خلايا لتربية النحل باسم لاريون تيمنا وتبركاً ، وقررت ايضا ان اعتني بالزراعـة ، وهذان الامران لا يجلبان ضرراً لأحد .

بيد ان تيتوف عذلني وقال لي بلهجة المتهكم : ما اسرع مـا تحولت الى خمرة عذبة ! فانتبه لنفسك لئلا تتحول الى خلّ . انسيت انك ستصبح ابا في خلال الصيف ؟

كنت قبل ان اسمع هذا التقريع من تيتوف اشعر بميل شديد لأصارحه بما احسه ، فأميط له اللثام عن الحقيقة التي ادركها ، ولذلك اغتنمت هذه الفرصة ورددت عليه قائلا : لقد اقترفت من الذنوب والمعاصي ما يفوق طـــاقتي ،

وهبطت الى المستوى الادنى وتمرغت معك في حمأة الرذيلة ، اما ان اهبط الى دون مستواك فهذا ما لا اقبله ابداً !

فأجابني : — لا ادري ما ترمي اليه، فكل ما اريد ان الفت نظرك اليه هو أن مرتبك الاثنين والسبعين روبلًا لا يكفي لنفقاتك السنوية ، وانا لا ارضى ان تنفق من بائنة (دوطه) ابنتي لتعيش ، هل ادركت ما اعنيه ؟ وهل علمت اني اذكى منك ؟

ان كل معارفك مقصورة على كرهي وبغضي ، بيد ان حقدك هـــذا لا يفيدك ولا يفيدني . ولا تنس اننا كلنا قديسون اطهار متى نام عنا ابليس .

وقد كتمت غيظي وملكت عواطفي رأفة بأولغا فلم اناقشه واجادله .

وبعد قليل انتشر في القرية خبر التنافر الواقع بيني وبين حمي ، فأخـــذ القرويون ينظرون اليّ بعين العطف .

وكانت السعادة التي تجلببتها بعد الزواج قد هذّبت نفسي وصقلت خلقي ، واولغا بدورها كانت رضية الاخلاق نقية القلب . ولذلك اخذت اعوض على الفلاحين واجاملهم واعاملهم بالحسنى فاساعدهم بما اقوى عليه واغض الطرف عن اساءاتهم ، غير ان القرية كانت كالبيت الزجاجي ، كلّ يرى مايصنع جاره ، وهذا ما اثار ثائرة تيتوف فقال لي غاضباً : أتريد ان تجدد عهودك لله ؟

فعزمت على مغادرة المكتب وقلت لأولغا :

— اني استطيع ان اكسب شهرياً ستة ريالات فما فوق في صيدالعصافير.

فحزنت واجابت : اصنع مايحلو لك ، ولكن حـــذار من الوقوع في براثن الفاقة . اني ارثي لابي فهو يرجو لك الخير ، وقد اقترف خطايا كثيرة في سبيلنا .

وفي اليوم التالي اطلعت تيتوف على ميلي الى الاستقـــالة من خدمته في

المكتب فسألني مازحاً : ألعلك تنوي الانخراط في السلك العسكري ؟

فأدركت حالاً ما يعنيه وتصورت الخطر المحدق بي ، لقد كان ذا صلات حسنة برجال الجيش ، فاذا شاء لم يصعب عليه ان يقيدني بالخدمة العسكرية وهذا ما كنت اجتنبه واخشاه .

وبديهي بعد هذا ان يشدد عليّ الضغط فأشعر كأن في رقبتي حبلًا مشدوداً لخنقي . اما امرأتي فكانت تبكي سراً وتذرف الدموع الحرى حزناً وكمداً فاذا سألتها ما بك ، اجابت لاشيء .

وفي حزيران وضعت اولغا طفلًا، آه كم قاست من آلام المخاض والولادة! كانت تصرخ ألماً فيتفتت قلبي . ويلاه ، أنىّ لي ان انجدها و كيف يتيسر لي تخفيف اوجاعها .

وكان تيتوف ساعتئذ مستنداً السلم وقد غارت عيناه واكمدّ لونه ، فاذا بلغت مسامعه صرخات اولغا وانينها هاجت عواطفه وقال : اذا ماتت ذهبت مجهوداتي كلها سدى ، اشفق عليها ياربّ وانقذهـا ! وانت يا ماتفي لاتدرك لواعجي ولا تفقه حياتي الا اذا اصبحت اباً .

وقد رثيت لحاله ودبت في قلبي الشفقة على هذا الاب ، وكنت انا بدوري اروح واجيء قائلًا في نفسي : ما هذا يارب ؟ أتهددني بسيف نقمتك ، أترفع يدك لتحطمني يا الله ؟ خير لك ان تصبر عليّ وتمهلني لاعود الى صراطك القويم ، خير لك ان تساعدني وتؤازرني وتهديني سواء السبيل .

حقاً اني كنت آنئذ احمق بليد القلب .

وبعد ان وضعت اولغا الطفل ونهضت من فراش المخاض اعتراها تغيير عظيم فتضخم جسدها وصوتها واصبحت تنظر اليّ نظرات الريب وقبضت يدها عن الحسنات وكانت لاتنفك عن احصاء مالنا من الديون واسماء المديونين ولاتترك

امراً مهما يكن سخيفاً. فقلت في نفسي ، ان هذا التغيير لا يلبث ان يزول .

كانت تجارتي بالعصافير ناجحة ، ففي الشهر اغادر القرية الى المدينة مرتين حاملاً اقفاصي لابيعها فأعود بخمسة روبلات فصاعداً ، أي ان أرباحي الشهرية أنافت على العشرة روبلات . وهكذا ابتعت بقرة واقتنيت الدجاج وهل أطمع بأكثر من هذا ؟

غير ان اولغا كانت تنظر اليّ شزراً. لقد تبدلت طباعها واخلاقها وعادت غير اولغا السابقة . فكنت اذا جلبت لها هدية ما ، غضبت وانتهرتني قائلة :

— وما هي الفائدة من هذا ؟ خير لك أن تخبىء الدراهم من أن تنفق فلساً منها على الهدايا .

وقد وقع في نفسي أسوأ وقع هذا التغيير العنيف ، فغدوت كاسف البال وعكفت على الصيد أتسلى به وألهو وأتناسى همومي .

كنت امضي الى الحقول والغابات فأنصب الفخاخ للطيور واستلقي على الارض مرخياً لتأملاتي وافكاري العنان ، وهكذا اقضي ساعاتي طوالاً في احضان الطبيعة امتع الطرف بمشاهدها الفتانة واجلو لقلبي غوامض الحياة .

لم يكن عندي الله في تلك الساعة الا السماء الصافية والافق المزرورق والغابة الخريفية المطرزة بالخيوط الذهبية ، او هيكل الشتاء المفضض والسهول والاودية والجبال ، الازاهير والنجوم هذه كانت الله ، هذه كانت القوة العليا الالهية ، فكل جميل الهيّ هو ، وكل الهي منشأة الروح نفسها .

كنت اذا فكرت في البشر يهتز قلبي اهتزاز عصفور تائه مذعور ، احاول ان اجلو غوامض الحياة فلا اهتدي ، واقول في نفسي : ان جمال الله لا يمتزج ولا ينسجم مع الحياة البشرية المظلمة الباردة . ان الله الكلي الاشراق يعيش بجبروته وقدرته بعيداً عن الناس . والنـــاس مثله يعيشون بعيدين عنه لاهين بالمنفى

الارضي والاعمال .

لماذا استسلم ابناء الله لاصفاد الكآبة والجوع ؟ لماذا يعيشون وضعاء اذلاء وقد عفّرهم التراب فتمرغوا فيه كالديدان ؟ و كيف يسمح الله ان يشقى ابناؤه ويسقطوا في حمأة الذل والالم. وما هو السرور الذي يخامر الله اذ يرى مخلوقاته تتسفل ؟ ماهي اللذة التي يشعر بها اذ يشاهد من بثقهم من روحه يتلطخون بالخزي والمهانة ويتذوقون ضروب الألم ؟

واين هم اولئك الذين اشرقت عليهم الانوار الالهيــــة وتمتعوا برحمتــه وشفقته ؟

ان ظلمة الفاقة اعمت الروح البشرية فسدلت على البصائر حجاباً كثيفا .

يعدون القداسة ضربا من ضروب الفرح ، والغنى حسنة من الحسنات .

يبحث البشر عن حرية ارتكاب الخطيئة ، على حين انهم لا يملكون حرية الابتعاد عن الخطيئة .

وأين تشاهد بينهم قوة محبة الله الآب؟واين هو كمال الله ؟ وهل الله حيّ ؟

هذه افكار كانت تساورني وخواطر تزدحم في لبي فأتساءل وأتساءل محاولاً جلاء الغامض. وبعد ان أجهد فكري وقلبي أعود بالخيبة .

وما ان احترفت صيد العصافير حتى شرع الفلاحون يهزأون بي ويزدرون قدري . لا شأن للصيادين في نظرهم . وكانت اولغا ترسل التنهدات العميقة لانها لا تذهب مذهبي في الحياة ، وحميّ بدوره كان يلقي عليّ المواعظ فكنت اسمعها دون ان اجادل او أردّ . كان فصل الخريف قريباً وكنت آمل ان انجو من الخدمة العسكرية .

وبعد مدة شعرت ان القلق مستول على اولغا فأخذت اسائل نفسي عن السبب دون أن اهتدي. ولما قلت لها ما بكِ يا اولغا ، رفضت ان تطلعني

على امرها . لقد كانت حبلى ، وحبلها الجديد اقلق فكرها . وفي أحـــد الايام عانقتني باكية وأسرت :

– ان آلام المخاض ستقضي عليّ هذه المرة . خلدي يحدثني .

فساءني تشاؤمها واخذت اعزيها واسليها ولكن تعزيتي لم تجدِها نفعاً .

قالت لي حزينة كئيبة : – ستعود كما كنت سابقاً وحيداً في هذا العالم دون نسيب او صديق يؤانسك ويسليك ، دون ان يكون لك من يحبك ، انت رجل متجبر عنيد ، فأسألك باسم اولادنا ان تتساهل وتلين . ألا تدري ان كل البشر خطاة امام الله ، وهل انت الا واحد منهم ؟

وقد أعادت علي مراراً هذه العبارات التي كانت تقع في قلبي وقعاً مؤثراً ، لقد كنت أشفق على اولغا وأتألم لألمها . كانت توسلاتها تدمي فؤادي ، فكيف لا اجيبها الى طلبها ، وكيف لا أعمل باشاراتها ؟

وعلى الأثر عقـدت شبه اتفاق جديد مع حمي وعدنا الى الاحتيال على الفلاحين . وما عسى ان اصنع ... ؟ لقد كانت ايام الضيق على الابواب وعما قريب اصبح اباً للمرة الثانية ثم تأتي القرعة العسكرية ، فهل ينقذني غير المال؟

ها قد بدأت الحفلات التقليدية المأثورة التي اعتادت القرية ان تقيمها للشبان البالغين السن العسكرية. جاءني هؤلاءالشبان وطلبوا ان انضم اليهم فرفضت، فما كان منهم الا انهم انتقموا مني بكسر الالواح الزجاجية في نوافذ منزلي .

ثم جاء يوم السفر الى المدينة لسحب القرعة العسكرية فلم تستطع امرأتي ان ترافقني لان يوم الولادة قريب ، فرافقني حمي . وكان يعدد علي في الطريق ما كابده من العناء في سبيلي وما عاناه من المصاعب وما انفقه من الاموال لأجلي ، وما صنعه لخيري ، وبعد ان انتهى اجبته : ومن يعلم النتيجة ؟ ربما ذهبت مجهوداتك كلها عبثاً .

وبعد ماوصلنا الى المدينة سحبت قرعتي فرافقني الحظ ونجوت من الخدمة العسكرية . وكاد حمي لايصدق فغلب عليه الجذل وقال :

ـ حقاً ان الله معك ! حقاً ان الله نصرك !

وكان جذلي بنجاتي من الخدمة العسكرية يفوق التصور ، لأني لا أطيق الانتظام القهري في سلك الجيش بل امقته كل المقت .

وبعد ما عدت الى القرية ازداد سروري بغبطة اولغا التي كانت تضحك وتبكي معاً وتهنئني وتعانقني كأني قتلت دباً أورجعت ظافراً من احدى المعارك.

كانت تقول : مبارك هو الله ، اذا مت فأموت مطمئنة البال .

ويلاه ! لماذا غلب التشاؤم على اولغا ؟ ان ترديدها الموت ينغص عيشي ويحرمني لذة فرحي . كان يدور في خلد اولغا ان ساعتهـــا قريبة ، وهذا الاعتقاد الذي رسخ في ذهنها يلاشي فيها القوة الحيوية وهكذا يصح حدسها ، فأخذت انتزع من قلبها هذه الفكرة فاشجعها واسليها ولكن على غير طائل .

وبعد ثلاثة ايام بدأت آلام المخاطر . آه كم قاست اولغا وكم تعذبت ؟ مرت عليها ثماني وأربعون ساعة عانت في خلالها من الآلام المبرحة مالا يحتمل. وفي اليوم الثالث وضعت طفلاً ميتاً وعلى الأثر لفظت أنفاسها الطاهرة بعد ان كابدت من الاوجاع مايفتت القلوب .

هصرت المنون غصن اولغا الرطب فأفضت الى ربها نقية طاهرة مستشهدة.

ويلاه ! ما أتعس أيامي !

* * *

لا أذكر مأتم اولغا ، لأني لم أعِ بعد وفاتهـا شيئاً ، كنت آنئذ كالأعمى الاصم ، لا اسمع ولا أرى الى أن ايقظني من ذهولي العميق تيتوف .

كنت جالساً على ضريح اولغـــا مطرقاً أندب سوء حظي فاذا تيتوف

أمامي يقول لي :

– هذه ثاني مرة نلتقي فيها حول الاموات، ياماتفي. لقد نشأت صداقتنا بين القبور، فلنجددها .

فالتفت حولي مذعوراً كأني سقطت من السماء، ولما رأيت تيتوف صرخت غاضباً :

– ماذا تريد، أغرب عني ...

فأجابني: – اريد أن تدرك مقدار ألمي وحزني، اعتقد ان الله فجعني بابنتي قصاصاً لي على اطلاق حريتك .

فشعرت آنئذ كأن الارض هوت بي الى الدرك الاسفل، وثار ثائري وانقضضت على تيتوف فرميته على الارض وصرخت وانا كالبعير الهائج :

– لحاك الله، لعنك الله، ايها القاسي .

وعلى الأثر اعتراني ما يشبه الاغماء . حاولت ان ارفع رأسي فلم أقو كأن يداً قوية الصقت جسدي بالارض وشلت اعصابي .

آه كم قاسيت آنئذ من الآلام النفسية، وكم تذوقت من المرارة الروحية!

ثرت على الله وتمردت على القدر الاعمى، أين هو الله لأناقشه الحساب ؟ أين هو لأجادله وأعارض حكمه ؟

كان عليّ كمؤمن تقي أن استغفر واستندم فأقول : « حسن ما صنعت يارب، يدك قاسية ولكنها عادلة، سخطك عظيم ولكنه مبارك ». كان عليّ كمتدين ورع ان أبارك الرب، ولكن ضميري لم يطاوعني وابى علي ان اظهر غير ما ابطنه وابطن غير ما اظهره، وانى لي ان اكذب شعوري واقف امام الله كالمرائي أمام الحاكم الظالم ؟ كنت أقول في نفسي مخاطباً الله :

– ألعلك أغمدت سيف نقمتك في صدري لأني كنت أشك سراً في وجودك ؟

بيد ان هذا التعبير لم يرتح اليه خاطري ، فأخذت انتحل العذر كأني استرضي الله وقلت : اني ما ارتبت في وجودك ، وانما شككت في شفقتك ورحمتك لأنك على مايبدو لي ترضى أن تنكل بعبيدك دون ان تمد اليهم يد المساعدة ، دون ان تهديهم الصراط المستقيم أو تنشلهم من هوة الشقاء .

ولكن هذه القوارص لم تشف لي غليلاً ، وهذه التأملات ليست بالزفرات التي كانت تملأ صدري وتعذب روحي . ان ما اكنه في قلبي كان يقلق خاطري فلا استطيع النوم ولا اقوى على الاتيان بعمل ، وفي الليل كانت تتراءى لي الاشباح والخيالات التي تزيد في تعذيبي ومرارة روحي ، فأتخيل اولغا أمامي باسطة ذراعيها فيشتد لهفي ويتجدد حزني ويأسي .

ولما رأيت أن لاطاقة لي باحتمال هذه الالآم الفادحة عزمت على الانتحار .

كان الوقت ليلاً . وكنت مستلقياً على السرير بثيابي . ساورني الارق فلم يغمض لي جفن .

أخذت التحدث الى نفسي فاذا بذاكرتي ترسم أمامي صورة اولغا طاهرة نقية . تمثلت لي اولغا بعينيها الزرقاوين اللامعتين اللتين تفيضان حنواً وحباً ، وتخيلت اني اسمع صوتها العذب يناديني .

كانت اشعة القمر تخترق النافذة فتنتشر فوق الغرفة وشاحها الفضي ، فينسل الظلام الى روحي ويملأ قلبي .

أغمضت عيني لكي لا أرى صورة اولغا ، ولكن كيف يتسنى لي أن أطرد خيالها وقد طبعت صورتها في ذهني ؟

نهضت عن السرير وتناولت حبلاً ثخيناً وبعد ان عقدته ربطته بحلقة في سقف الغرفة ، ثم حركته بشدة وتناولت كرسياً وقفت عليه ، ثم خلعت معطفي وانتزعت طوقي استعداداً لشنق نفسي ، وفيما كنت اهيء الحبل

لأدخله في عنقي اذ بدا لي فجأة على الجدار وجه غريب فظيع أجمد الدم في عروقي، فكدت اصرخ خوفاً ورعباً لولا اني لحظت ان الوجه الذي بدا أمامي لم يكن الا وجهي المنعكس على مرآة أولغا المستديرة !

رأيني آنئذ ذا سحنة قبيحة مخيفة ، وجه متجعد شاحب وشعر متبعثر وأنف مهشم وفم كأنه مدخل مغارة مظلمة وعينان تفيضان مرارة وألماً .

اشفقت على هذه الصورة البشرية ورأفت بجمالها السالف . ويلاه ! كيف تنقلب الوجوه البشرية بين ساعة واخرى وكيف يتحول جمالها الى قبح .

ثم جلست على المقعد واخذت أندب سوء حظي وابكي عليّ أنا نفسي كأحد الاطفال. فانهمرت دموعي بغزارة ، وبللت وجهي فأنعشت فيه الحياة كما يرطب الندى الازاهير الملفوحة .

وبعد ان مسحت دموعي شعرت كأني القيت عبئاً ثقيلا عن ظهري فتجددت قواي ، وتمثل لي الانتحار عملاً شائنا ملؤه الخزي ، وعددت نفسي مازحا لاجاداً ، وحالا مددت يدي وتناولت الحبل وشددته بعنف ثم رميته في احدى الزوايا.. والموت سر مجهول ايضا ، وانا ابحث عن حل اسرار الحياة .

والآن ما عسى ان افعل ؟ مرت الايام دون ان اقوم بعمل . وبعد ان اعملت فكرتي لاح لي ان اخلد الى التوبة ، فهرولت الى منزل الكاهن قارعا سن الندامة .

كان الوقت مساء واليوم احد ، وعندما دخلت رأيت الكاهن وقرينته حول المائدة يتناولان الشاي وقـد احاط بهما اولادهما ، فهش لي الكاهن واستقبلني مرحبا ثم دعاني الى الجلوس وشرب الشاي .

وكان البهو يتلألأ بالانوار الساطعة التي تنعكس على المرايا فتزيده اشراقا . وراقني ما شاهدته من النظافة والنظام في ترتيب الاثاث والامتعة ، فتذكرت

اهمال الكاهن لشؤون العبادة وقلت في نفسي :

ــ هنا هيكل الكاهن في عرفه ، وسواه لاشأن له .

ثم التفت الى وقال : لامراء في انك حزين على فقد امرأتك .

ــ نعم يا أبت ، اني حزين حتى الموت .

ــ ينبغي ان تقيم عن نفسها الصلوات والقداديس مدة اربعين يوما . قل لي ، هل تظهر لك في الحلم ؟

ــ نعم ، يا أبت .

ــ اذن اصنع ماقلته لك فلا مندوحة عنه .

فلم انبس ببنت شفة ولذت بالسكوت ، لم يكن باستطاعتي الكلام أمام امرأته التي اكرهها واحتقرها . وقد كانت بدينة مستديرة الوجه غليظة الرقبة صغيرة الاسنان لاتخجل ان تقرض الاموال بربا فاحش .

ولما رآني الكاهن ساكتاً عطف على كلماته السابقة قائلا :

ــ صل ، صل الى الله بحرارة ، ولا يأخذك الحزن وتعبث بك اللهفة ، سلم امرك لله وعليه اتكل فهو يعرف ماذا صنع .

فلم أتمالك نفسي عن سؤاله : أهو يعرف ماذا صنع ؟

فاجاب مغتاظاً : ماهذا السؤال ؟ انا اعلم انك متغطرس تتكبر على البشر . ولكن حذار ان تدفعك غطرستك الى مس الشرائع الالهية خشية ان ينالك القصاص الشديد . لقد غرس لاريون فيك هذه البذور فنمت على مايلوح لي . جنى لاريون على نفسه واستسلم للخمرة الى ان قادت خطاه الى هاوية الموت !

وشاءت امرأة الكاهن ان تشترك في الحديث فقالت :

ــ كان ينبغي ان يزج لاريون في احد الاديار ، ولكن زوجي أبى عليه طيب عنصره وصلاحه معاقبته فلم يرفع عليه شكوى .

فما طرقت عباراتها مسامعي حتى رددت عليها قائلاً :

ـ كلا ايتها السيدة ، ان كلامك عين الخطأ ، لم تصدقي في قولك ان زوجك لم يشك لاربون . لقد شكاه واتهمه بالاهمال مع ان زوجك ايتهـا السيدة هو المشهور باهماله وقلة عنايته لالاربون !

كان ردي عليها فاتحة للجدال والمناقشة ، فعنفني الكاهن واستشهد بآيات اعرفها كل المعرفة غير اني استغربت سبكها في قالب جديد ، وانتهى الامر بالكاهن وقرينته الى شتمي واهانتي .

قال لي الكاهن : حموك وانت لصان خبيثان. لقد سرقتما الكنيسة وانتزعتما منها « حقل الاغادو » مع ان هذه الارض تخص الابريشة على مايعلم الجميع . وقد عاقبكما الله عقاباً شديداً وانزل بكما البلايا جزاء هذه السرقة ..

فرددت كيده الى نحره وقلت : هو ماتقول ، ولكن اذا كنا قد انتزعنا الحقل ظلماً وعدواناً ، فأنت قد سبقتنا الى السرقة . كانت الارض ملكاً للشعب ولكنك انت ضممتها الى الابريشية وغصبت حقوق الفلاحين ..

ثم نهضت لأخرج ، فاذا بالكاهن يصرخ بي قائلاً :

ـ انتظر ، أين النقود لأقامة الصلوات عن نفس امرأتك .

فنظرت اليه بازدراء وقلت : وهل تعتقد بأني احفل بعدالآن بصلواتك ؟

وفيما أنا خارج قلت في نفسي : لقد ضللت السبيل ، ياماتفي !

وبعد ثلاثة أيام اصابتني كارثة جديدة وذلك ان ابني حسب الزرنيخ سكراً فتناوله وتسمم وعلى الاثر قضى نحبه. فما جزعت ولا حزنت بل ماتأثرت ولا حفلت بهذه الفاجعة لأن مصابي السابق مـلأ نفسي مرارة ويأساً فلم يبق فيها فراغاً لألم جديد . هذه كانت حالتي عندما مات ابني البكر .

الفصل السابع

القلب التائه الذي لم يهتد الى الطريق ...

عزمت على مغادرة القرية والرحيل الى المدينة حيث كان يقطن رئيس الكهنة وهو رجل مشهور بصلاحه وتقواه وتضلعه من العلوم الالهية ، فأعلنت عزمي لحمي وطلبت منه أن ينقدني مائة روبل مقابل تخلي عن منزلي وسواه مما يخصني فرفض وأجاب : انا لا احفل بمثل هذه الصفقة ، فاذا شئت ان انقدك مائة روبل فعليك ان تمضي سنداً لستة اشهر بقيمة ثلاثمائة روبل .

فامضيت السند وتسلمت النقود وحملت جواز سفري ومضيت الى المدينة.

كنت اسير على قدمي لعلي ارمي على الطريق حمل قلقي الثقيل . كانت روحي مضطربة حائرة لا يقر لها قرار ، فشرعت اعترف امام نفسي . بيد اني لم افكر بالله

كنت أجري وقد تنازعني عاملان هما الذعر والاستياء . كان الخوف آخذاً مأخذه مني وفي الوقت نفسه كنت غير راض عن نفسي .

وكانت افكاري مرتبكة ، متراخية منقطعة متمزقة كأنها نثير تذريه الرياح .

وبعد ان وصلت الى المدينة قصدت الى منزل رئيس الكهنة فاصطدمت

بمصاعب متعددة والدليل ان ناموس الرئيس ردني خائباً اربع مرات ولم يسمح لي بمقابلة معلمه ولكنه في المرة الخامسة قال لي :

ــ انا ناموس سيادته ، اعطني ثلاث روبلات امهد لك السبيل .

فأجبته : ولا ثلاث كوبيكات .

ولما رأى الناموس اني مصر على مقابلة معلمه مهما كلف الامر فتح لي الباب وقال : ادخل ، لقد شئت ان اداعبك وامازحك ، ادخل .

ثم قادني الى بهو هادىء تصدره الكاهن الكهل الذي هجرت القرية لمقابلته والاسترشاد بقبس تقواه وورعه .

دخلت وأنا اقول في نفسي « لقد تربيت تربية دينية طاهرة ثم طرأ علي ما طرأ وعصيت الله وأغضبته ، أفلا يستطيع هذا الاكليركي ان يعيد الطمأنينة الى روحي ؟ »

ولما شاهدني الكاهن سألني : ماذا تريد ؟ ما الذي حملك على المجيء ؟

فأجبته : احمل في جوارحي روحاً قلقة حائرة مضطربة ، يا ابت .

وما اتممت عبارتي حتى همس الناموس قائلًا :

ــ لا تقل يا ابت وانما قل « يا صاحب السيادة » .

فالقيت عليه نظرة ملؤها التهكم ثم التفت الى الكاهن وقلت له : الأفضل ان تأمروا هذا الشاب بالخروج ، ان الحياء يغلب عليّ اذا اردت الاعتراف .

فصعد الكاهن نظراته فيّ وبعد ان امر خادمه بالخروج ، تابع كلماته فقال :

ــ تكلم ، مابك ؟

فأجبته : اني اشك في شفقة الله .

فنظر الكاهن اليّ شزراً ورفع يده الى رأسه وسألني غاضباً :

ــ ماذا تقول ايها الغبي ؟

فلم احفل بوصفه ولا اكترثت للاهانة بل تابعت قائلا :

ـ اني التمس من سيادتكم ان تصغوا إليّ .

ثم تناولت كرسياً وحاولت الجلوس فاذا بالكاهن يرفع يده مغتاظاً وهو يقول :

ـ وقوفاً وقوفاً ، كان عليك ان تمثل امامي راكعاً، ايها الوقح.

فسألته : علام الوقوف والركوع ؟ اذا كنت مذنباً فأمام الله لا امام سيادتكم .

فحنق ورد عليّ بقوله : وانا من انا ؟ من انا امام الله ؟ وامام الله من انا .

فخجلت ان اناقشه في هذا الموضوع ورأيت ان اركع عملا بارادته ، اما هو فرفع يده مهدداً وقال سأعلمك ان تحترم رجال الدين .

فساءني هذا التهديد ورغبت في المناقشة واخذت اعبر عن افكاري بصراحة وجلاء . كانت العبارات تتدفق من فمي تدفقاً كأن في صدري بركاناً ثائراً ، فاحتدم الكاهن غيظاً وقال : اسكت اسكت ايها الشقي .

ثم وقف امامي وهو يهتز ويرتجف وتابع قائلا :

ـ أتدرك ما تقول ايها الجلف الوقح ، اسكت ايها الملعون . انت لم تأت للاعتراف وانما ارسلك الشيطان لتجربني ايها الخبيث .

وقد شعرت ان الخوف اخذ منه مأخذه لا الغضب، فأردت أن ازيل ما علق بذهنه وقلت له :

ـ اخطأتم يا صاحب السيادة ، اني اؤمن بالله ولم اكن يوماً من المجدفين .

ـ كذبت ، ايها الكلب الاجرب .

ثم شرع يتوعدني بالغضب الالهي والانتقام السماوي . كان الاله الذي يستصرخه قاسياً جافياً شديد البطش لا يرحم ولا يشفق ، بل ينكل بالناس

تنكيلا كالاله القديم الذى صورته التوراة ، فلذلك اعترضت عليه قائلا :

– يلوح لي يا صاحب السيادة انكم ضللتم السبيل وسلكتم طريق الجهلة ، أهذا هو الاله المسيحي ؟ أهذا هو الله الحقيقي ؟ ويسوع ماذا تصنعون به ؟ لماذا تسلبون البشر صديقهم وظهيرهم المدافع عنهم ؟ لماذا تولون عليهم قاضياً قاسياً بدلاً من يسوع شفيق رحيم ؟

فأنشب الـكاهن اظافره في شعري وصرخ بصوت ملؤه الغضب والحنق قائلا :

– من انت، ايها الملعون ؟ من انت؟ سأسلمك الى الشرطة لتقتص منك ، سأبعثك الى احد الأديار ، سأنفيك الى سيبيريا ..

وما طرقت عباراته مسامعي حتى ثاب الي رشدي فقلت في نفسي ان هذا الـكاهن يستعين بالشرطة ليؤيد إلهه القاسي الشرير عنوة ، فالأثنان إذن ضعيفان لا يملكان ذرة من الصلاح، أفأطمع منهما بعد هذا بالطمأنينة الروحية.

ثم وقفت وقلت للكاهن :

– اتركني ، دعني اذهب ، ليس لي عندك ما اتلقنه ، ليس في تعاليمك ما يجلو ظلمات الشك ، بل اني لم اسمع منك الا الهرطقة والتجديف على الله .

فأعاد تهديده ووعيده بالشرطة ليدب الخوف في قلبي ، فلم اكترث له ولا حفلت بالشرطة وقلت له : – ان الملائكة هم الذين يسهرون على مجد الله لا رجال الشرطة .

فاشتد غضبه وصرخ :

– الي يا الكسي (اسم خادمه) اطرد هذا الملعون من امامي .

وعلى الاثر جاء الكسي فتناولني بيدي وأخرجني الى الشارع ثم اغلق الباب .

كان الليل مرخياً سدوله ، والشعب يجري في الشوارع مبتهجاً مغتبطاً ، فأخذت أسير متثاقلا متأملا تلك الوجوه الضاحكة المشرقة ، ثم هممت ان اصرخ قائلا : ايها الشعب ، لماذا تضحك مغتبطاً ؟ الا تعلم ان الاكليروس شوه محاسن إلهك ؟

وشرعت اسير على غير هدى ، هائماً على وجهي في شوارع المدينة ، الى ان رأيتني في الضواحي حيث قامت المساكن الحقيرة امام الحقول الواسعة.

كان الهواء ينثر الثلوج ويذريها في الفضاء فلا تستقر حتى يعيدالكرة كأنه يلاعبها ويداعبها في تلك الليلة الليلاء القارصة . وكان العطش قد اخذمني مأخذه فوددت لو انتهلت من الخمرة ما يسكرني وينقع ظمأي . وفيما كنت اتأمل الطريق اذ برزت أمامي امرأة حاسرة الرأس متدثرة بجرام صوفي وبعد ان تأملتني سألتني : ما اسمك ؟

فحسبت انها تداعبني على ماجرت العادة في ليلة عيد الميلاد ، اذ تكشف الفتاة اسم زوجها القابل من اسم الرجل الذي تفاجئه فأجبتها :

– لا اقول لك لأني رجل تاعس ؟

فضحكت وقالت : غداً عيد الميلاد فعلام تفكر في الشقاء ؟

ولم اشأ ان اطيل الحديث معها فسألتها :

– اني اشعر ببرد قارص ، فهل بالقرب حانة الجأ اليها ؟

فحددت المرأة ناظريها واجابتني بصوت ملؤه الرقة والعذوبة :

– هناك في المنحدر حانة ، ولكنك اذا شئت دعوتك الى منزلي وقدمت لك الشاي فتدفأ ...

فلم اتردد وتبعتها . وبعد قليل رأيتني في بهو صغير ينيره قنديل ذو نور وهاج. وفي احدى الزوايا امرأة طاعنة في السن جلست بين رسوم القديسين .

وقد اتاح لي النور أن أتأمل المرأة التي قادتني الى منزلها بكلمة واحـدة فرأيتها في عنفوان الشباب ذات وجه مشرق .

كانت ممشوقة القوام رشيقة الحركات ذات نهدين بارزين وعينين نجلاوين صافيتين وابتسامة عذبة هادئة تقع في النفس وقعاً جميلًا .

وبعد ان دعتني المرأة الى الجلوس اخذت افكر قائلًا في نفسي : من هما هاتان المرأتان ؟ وما الذي اتى بي الى هذا المكان ، لقد تبعت المرأة دون تفكير .

كانت العجوز تلقي علي نظرات الفضول والاستطلاع فخفضت بصري والتفت الى المرأة التي قادتني وسألتها : ماذا تصنعين وكيف تعيشين ؟

فضحكت واجابتني : اصنع اعمالاً يدوية وبعض الاحيان اطوف سعياً وراء الحياة ...

فانتهرتها العجوز وقالت : الا تستحين ، ياتاتيانا ؟

وقد نبهتني عبارة العجوز الى مالم اكن ادركه فوقعت في حيرة . هذه اول مرة ارى فيها امامي امرأة ضالة . وهؤلاء النسوة كنت اتصورهن بأقبح الصور واعدهن اسفل المخلوقات البشرية .

ثم التفت تاتيانا الى العجوز واخذت تضحك وبعد ما اشارت اليّ قالت :

– ارأيت العجوز يابتروفنا كيف اصطبغ وجهه بحمرة الخجل !

فاستولى علي الاستياء وقلت في نفسي : ما هذه الهاوية التي سقطت فيها ، اخرجت من الاعتراف لأقع في الدنس ؟

والآن ماعسى ان اصنع ؟ وكيف يتسنى لي الخروج من هذا المأزق؟

وفيما كنت افكر في امري اذ بدأت تاتيانا تبدي دلائل الضجر فخلعت معطفها وفكت عرى قميصها متأففة من شدة الحر . ثم نهضت العجوز فأحضرت

زجاجة من الخمر وضعتها على المائدة فقلت في نفسي - اشرب كأساً من النبيذ وادفع الثمن ثم انصرف حراً طليقاً .

ورأت تاتيانا مايساورني من القلق والحيرة فقالت لي :

- علام انت حزين صامت ؟

فما استطعت ان اكتم السبب واجبتها : ماتت امرأتي .

فسألتني همساً : أمن زمن طويل ؟

مضت على وفاتها خمسة اسابيع .

وما لفظت عبارتي حتى رأيت يديها ترتفعان الى عرى القميص لتحكما شدها ستراً لصدرها العاجي . فوقع عملها في نفسي اجمل وقع اذ دلني على حشمتها وادبها امامي ، مع اني كنت رجلًا متزوجاً .

وشاءت العجوز ان تخفف عني وتسليني فقالت : وعلام حزنك وانت شاب في مقتبل العمر وحولك من النساء مالا يحصى ؟

فانتهرتها تاتيانا وقالت :

- اسكتي يابتروفنا ، اسكتي ، اذهبي ونامي وانا اقفل الباب .

وبعدما خرجت العجوز سألتني تاتيانا بلهجة ملؤها الرقة والحنان :

- ألك اسرة ؟ اب وام ...

- ليس لي احد .

- أليس لك اصدقاء ؟

- كلاّ .

- اذن ، ماذا تريد ؟

- لا ادري .

وبعد ان تأملتني قليلا نهضت وقالت : اراك وحيداً في هذا العالم بـــلا

نسيب ولا صديق ولا من يحنو عليك. فأنا انصح لك ان لاتتابع السير منفرداً. فكما انك تبعتني بمجرد دعوة بسيطة ، فيجوز ان تدعوك اخرى الى حيث يصعب خروجك . نحن في المدينة ، ياصديقي . ورسل الغواية والفساد هنـــا كثيرون . . . فحذار !

والآن امكث ولا تجزع ، هوذا سرير فنم مطمئن البال قرير العين وعندما تنهض صباحاً أعط بترفنا مايحلو لك ، هذا اذا ثقلت عليك الضيافة .

واذا كنت لاترتاح الى محادثتي فقل ولا تستح لأني أنصرف حالاً .

هذه العبارات التي لفظتها تاتيانا بلهجة ملوءها الاخلاص والرقة وقعت في نفسي اجمل وقع فابتهجت واغتبطت وشعرت بسرور عظيم .

ثم دعتني الى تناول الشاي واحتساء كأس من الخمرة فلبيت الدعوة جذلاً ، وهكذا بين لحظة واخرى تحولت معرفتنا البسيطة الى صداقة روحية قوية .

غير اني مع كل ما رأيته من مظاهر الود والاخلاص خفت ان اكون قد استسلمت للظواهر فسألتها :

– اود ان القي عليك سؤالاً فاعذري صراحتي : اانت تحاولين أن تسبري غوري وتميطي اللثام عن حقيقة امري أم أنت جادة في ماتقولين ؟

فلمعت عيناها وأجابت بصوت ينم على سلامة طويتها :

– اني جادّة كل الجد . أنا امرأة مبتذلة . .

فقاطعتها قائلاً : هذه هي المرة الاولى التي احادث فيها امرأة ضالة . . واقول لك بصراحة . . اني اخجل لنفسي .

فضحكت تاتيانا وأجابت : وممّ تخجل لنفسك ، اني لست عارية . .

فقصصت عليها بجلاء ووضوح كل ما أعرفه عن النسوة الضالات دون أن أخفي عنها ماصورته لي مخيلتي من عيوبهنّ . فأصغت الى كلماتي كل الاصغاء ولما

انتهيت أجابتني :

ـ نحن معشر الضالات لسنا سواء، فبيننا الشريرة التي تعطي الابالسة ما لا يخطر لك ببال ، وبيننا النقية القلب المسكينة التي احتفظت بصلاحها الروحاني على الرغم من تدنس جسدها .

وقد صعب عليّ كثيراً أن اقنع نفسي بأن المرأة التي تخاطبني ضـــالة ، صعب عليّ ان اصدق انها زانية فسألتها :

ـ ألعلّ الحاجة أرغمتك على سلوك هذا الطريق ؟

لقد طغاني أولاً شاب تظاهر لي بالحب ووعدني بالزواج وما وفى بل فرّ وهجرني وخلف لي التحسر والندامة . ثم تعرفت بشاب آخر ، فكان نصيبي منه كحظي من الاول ، وبعدئذ سقطت في الهاوية . ولا انكر أني قـــد احتاج بعض الاحيان الى المال فأكسبه من الرجال الذين اقتنصهم . .

كانت تاتيانا ترسل كلماتها بسذاجة دون أن تشفق على نفسها أو ترثي لحالتها فسألتها : أتترددين الى الكنيسة ؟

ـ ان دخول الكنيسة مباح للجميع وبابها لا يغلق في وجه أحد .

فلحظت من جوابها انها أساءت فهم ما اعنيه فتداركت الامر وقلت لها :

ـ يلوح لي انك لم تحسني فهم ما أعنيه . اني درست الانجيل ووقفت فيه على قصة المجدلية مريم ، والخاطئة التي حاول الفرنسيون أن يغزوا بها المسيح . وأنا رميت من وراء سؤالي الى معرفة شعورك نحو الله ، الا تحنقين على الله ؟ الا تثورين على حياتك ، الا ترتابين في صلاح الله وشفقته ؟

ففركت تاتيانا عينيها وأخذت تتأملني ثم قالت لي بلهجة ملؤها الذعر :

ـ اني لا أدري ايهتم الله بأمري أم لا لأعرف أيشعر بوجودي أم لا .

ـ وكيف هذا ، أليس الله راعينا وأبانا ؟ أليس في يده مصير كل منا ،

أليس هو المبدأ والمعاد وضابط الكل ؟

– ماذا اقول وانا لم أسيء يوماً الى احد ولا تعمدت الاذى لأحد ؟ ما هي التهمة الموجهة الي وما هو الذنب الذي أرتكبه تحت عين الشمس ؟ ومن يحمل اثقال حياتي الدنسة ؟ أنا وحدي ، أنا البريئة .

وقد شعرت باخلاص تاتيانا واصابتها الحقيقة بيد اني لم أدرك كنه تعابيرها. وتابعت كلامها قائلة :

– أنا التي احمل تبعة خطاياي ، انا وحدي ، نعم ان خطيئتي ليست قاتلة ولكنها على كل حال خطيئة تستوجب العقاب. اني احب الذهاب الى الكنيسة . وعندنا كنيسة جديدة جميلة تملأ العين جلالاً والقلب خنوعاً . ماأجمل الموسيقى التي نسمعها فيها وما أطيب وقعها في النفوس ! ان الانفعال النفساني يأخذ مني مأخذه بعض الاحيان فأبكي .

وبعدما سكتت دقيقة تابعت : وهناك امر لايجوز اغفاله وهو ان الكنيسة بطبيعة الحال تسهل التعارف بين الناس . .

ادهشتني تاتيانا بما قالته، فرفعت اليها بصري معجباً بدقة حسها وصراحتها. ولما رأتني لاانبس ببنت شفة سألتني ضاحكة لعوباً : اكنت تحت امرأتك؟

– نعم كنت اعبدها . ثم شرعت أقص عليها آلام روحي واحزان قلبي ولم أخف عنها غضبي على الله لانه بعد أن نامت عينه عني فاستسلمت للخطيئة عاقبني عقاباً قاسياً اذ سلبني امرأتي . وكانت تاتيانا تتأثر وتكتئب تارة وتهلل وتبتهج طوراً .

في هذه الليلة تمثلت لي كل صور الحياة البشرية وتجلت لعيني بمشاهدها الهائلة المضطربة الشائنة المدنسة الحافلة بصرخات الالم والحقد والانين والشكوى .

في هذه الليلة مرت أمام عيني لأول مرة صورة الحياة البشرية ، فأدركت

مالم ادركه وعرفت فوق ماارىد فقلت في نفسي : أين هي الالوهية ؟ وفي اي صورة يبدو شيء من الالوهية ؟ ينقض البشر بعضهم على بعض فيمتص كل منهم دماء الآخر ، كيفما ادار المرء وجهه يرى النزاع الوحشي البشري في سبيل قطعة من الخبز ، فأين الالوهية والصلاح والمحبة والقوة والكمال ، هذه كلها أين مقرها ؟

نعم أنا شاب في ريعان الصبا ولكني لست بأعمى ، أين يسوع ابن الله ، من هو الذي سحق بقدميه تلك الازاهير التي زرعها قلبه النقي ، من هو الذي مسخ جمال حبه ؟!

ثم أطلعت تاتيانا على قصتي مع رئيس الكهنة وكيف انه تهددني بغضب الاله القاسي الذي استصرخ لمساعدته رجال الشرطة ، فضحكت وتسلت بقصة هذا الاسقف القمطري الذي كان يصرخ ويثب كجرادة . ولكنها بعد ان ضحكت كثيراً عبست وقالت :

ــ اني لم افهم كل ماتعنيه . لقد ادخلت الخوف الى قلبي بما ذكرته عن الله . ان افكارك من هذا القبيل تدل على جرأة لاحد لها .

فأجبتها : ليس بالوسع أن نعيش دون ان نرى الله .

فوافقت على كلماتي وقالت :

ــ نعم ، ولكن يتراءى لي انك عزمت على مكافحته بالملائكة فاعلم اذن انه لايستحق هذا العناء . لا انكر ان الحياة قاسية على الصغار وانا كثيراً ماسائل نفسي لماذا تقسو الحياة عليهم ، ولكن هل تعلم ماينبغي لك ان تصنع ؟ اسمع . بالقرب من هذه المدينة دير للنساء المترهبات ترأسه راهبة عجوز شديدة الشفقة فاقصد الى الدير واسمع ما تقوله الراهبة واصغ الى حديثها عن الله .

ــ حسن سأذهب ، وكيف لا أشخص الى الدير وأنا قاصر همي على سماع الاتقياء الصالحين الذين استنارت بصائرهم بقبس الحق ؟ لقد فقدت نفسي السلام

فمن الواجب أن استرده .

ثم مدت تاتيانا لي يدها وقالت : حسن ، اني ذاهبة لأنام ، فاستلق على فراشك . فتناولت يدها وضغطتها معبراً لها عن اعترافي بجميلها وخاطبتها قائلاً :

– شكراً لك والف شكر ، لقد كنت بلسماً لجراح قلبي ، فاذا كنت لا اقدرك الآن حق قدرك فثقي بأني سأحفظ لك في صدري أجمل ذكرى . شكراً لـك .

– لامحل للشكر ، ياصديقي . وسكتت لحظة واصطبغ وجهها بلون قرمزي ثم تابعت قائلة :

– اني اسر كل السرور اذ أراك تشد عزائمك وتسترد آمالك . فعم مساء . وقد لحظت حين خروجها انها كانت مسرورة جذلة اذ استطاعت أن تعزيني وتهون علي وتؤاسيني ، ومع هذا لماذا اهتمت بأمري ، ومن كنت لها ؟

وبعدما اطفأت القنديل اضطجعت على السرير وأخذت أفكر قائلاً في نفسي :

– ها قد احتفلت بعيد الميلاد دون أن أريد .

كانت آلامي الروحية عميقة لا يسبر لها غور . ولكنني على أثر محادثة تاتيانا شعرت بعاطفة جديدة حية تنشأ في قلبي .

كانت تاتيانا تلقي علي نظرات الحنان والعطف والشفقة ، نظرات انسانية اكثر منها انثوية ، فانطبعت في ذاكرتي وهيهات أن تمحى .

وفي الصباح سمعت قرعاً على الباب وصوت تاتيانا يناديني :

– انهض من رقادك فقد أشرقت الشمس .

وبعد ان تبادلنا التحيات كصديقين حميمين جلسنا الى المائدة وشربنا الشاي ، فأوصتني مرة ثانية أن أشخص الى الدير واقابل الراهبة فوعدتها بالذهاب ثم ودعتها وخرجت فشيعتني الى الباب .

الفصل الثامن

الهرب من الحياة لاينقذ من الضلال

كان بين المدينة والدير مسافة ثلاثين فرسخاً فجددت في السير وصباح اليوم التالي كنت هناك أسمع القداس الذي حضرته جماهير لاتحصى .

كان الدير غنياً والراهبات كثيرات . وكان الكاهن يتلو الصلوات بسرعة كمن يقوم بفرض لامهرب منه .

وكانت الراهبات اللواتي يؤلفن الخورس مشرقات الوجوه ذوات قسامة ووسامة . وقد ارتحت كل الارتياح الى ترتيلهن الجميل الذي يصعد بالنفس الى الاعالي .

وكانت الشموع تذرف دموعاً بيضاء ، كأنها تبكي الشعب ، والراهبات التقيات يرتلن بأصواتهن الملائكية قائلات :

ــ ان روحي تطير الى هيكلك المقدس، يارب .

وكنت اردد بشفتي جرياً على العادة الصلوات الالهية . ولكن لم أغفل عن ارسال نظرات الفضول الى ما حولي .

وبعد أن انتهت الصلاة خرجت من الكنيسة وكانت السماء صافية والشمس

ترسل أشعتهـا فوق الارض المغطاة بالثلوج والهواء يهب عليلاً بليلاً فينعش النفوس .

كان موقع الدير على هضبة تحيط بهـا السهـول المزروعة والمروج التي لا يدرك الطرف آخرهـا ، يخترقها نهر ماؤه كاللجين وخريره كأنين المتعبين والمظلومين التائهين في بيداء الحياة . وعند الأصيل دخلت مقصورة الراهبة فيفرونيا وهي كهلة جعدت وجهها السنون وسلبتها نضارته ولكنها لم تستطع أن تسلبها ابتسامتها الرقيقة الحنون التي كانت تبدو في أسارير وجهها .

مثلت أمامها فخاطبتني بصوت منخفض يشبه الهمس وقالت لي بعد المقدمات :

ـ أيها الشاب ، لا تأكل التفاح قبل عيد الرب ، لا تأكله قبل أن ينضجه الرب وتسود بذوره .

فأخذت اسائل نفسي قائلاً : ماذا تعني بهذه الرموز وإلى مَ تشير بكلماتها؟

وتابعت خطابها فقالت : أكرم اباك وامك .

فأجبتها : ليس لي أب ولا أم .

ـ اذن صل عن نفسيهما واسأل الله ان يرقدا بسلام .

ـ ولكن ربما كان أبواي حيين !

فأرسلت الراهبة بصراً تائهاً وابتسمت ابتسامة غامضة مبهمة وهزت رأسها هامسة : لا بأس ، ان الله عادل محب للجميع ، شديد العطف على مخلوقاته.

فقاطعتها قائلاً : وهذا ما ارتاب في صحته ، هذا ما اشك فيه .

وقعت كلماتي في قلبها وقعاً سيئاً لحظته في عينيها وفي وجهها وحركاتها ، بيد أنها لم تلبث ان استعادت قوة جنانها وقالت :

ـ اذكر ان الصلاة تطير الى عرش الله بسرعة لا تعرفها الطيور ، اذكر

ان ملكوت السموات لا ينال أحد عفواً ولا يدخله من لا يتعب في سبيل الله..

فاستدللت بجوابها على أنها كانت ترسم لله صورة عظيم لا يعرف قانوناً أو شريعة.

كانت أقوالها متناقضة متباينة فلم أفهم مغزى تعابيرها ومرماها، وهذا ما أثار حنقي وحملني على الانصراف.

وبعد أن حييتها وخرجت شرعت أفكر قائلاً في نفسي: «ان البشر يجزئون الله أجزاء مختلفة طبقاً لحاجاتهم وميولهم. فالله عند البعض صالح كلي الرحمة، وعند سواهم قاس ظالم، أما الكهنة فقد جعلوا من الله خادماً لهم، وإذا شكروا له ما منحهم من سعة العيش والرفاهية فبحرق البخور، ولاربون وحده كان يرى في الله عظمة لاتحدها العقول ولا تدركها الاذهان.

خرجت من الدير أتعثر بأذيال الخيبة، شخصت اليه طمعاً بأن أفوز بأمنيتي وهي استعادة الطمأنينة الروحية الى قلبي فعدت مخفقاً، فأين أنال السلام المنشود ومن ذا الذي يهديني سواء السبيل؟

وبغتة خطر لي أن آوي الى أحد الاديار حيث أعيش منقطعاً عن العالم منفرداً في حجرتي منكباً على مطالعة الكتب منصرفاً الى التأملات الروحية، فربما اهتديت واستردت لروحي المعذبة المتألمة هناءها وقوتها.

لزمتني هذه الفكرة بضعة ايام ومـا زالت تشتد حتى ساقتني الى صومعة ساواتييف حيث قابلني رئيس الدير، وكان مهيب الطلعة جعد الشعر أصلع قوي البدن.

وبعد أن أطلعته على رغبتي في الترهب سألني:

– ولماذا تهرب من الحياة الدنيوية، يا ابني؟

فشرحت له الاضطراب الروحاني الشديد الذي اجتاحني على أثر وفاة

قريتي دون ان اتعدى الخبر الى امور اخرى . فأخذ الراهب يعبث بلحيته وبعد أن ارسل الي بصراً نافذاً سألني :

– أتستطيع أن تهب حسنه للكنيسة ؟

– عندي نحو مائة روبل .

– اعطني اياها واذهب الى قاعة الطعام . وغداً نعود الى الموضوع .

وقد استقبلني الأخ نيفونتي استقبالاً لطيفاً ، وكانت مهمته مقصورة على الاهتمام بشؤون الزوار والحجاج .

قال لي الراهب بعد أن تبادلنا الحديث ما يأتي :

– رهبنتنا بسيطة جداً فضلا عن انها تمثل التآخي الحقيقي . الجميع يشتغلون لله خلافاً للأديار الاخرى ، ولا جدال في انك ستلقى هنا الراحة والسلام الداخلي فاندمج في سلك الرهبنة . »

نهضت في صباح اليوم التالي باكراً فطفت في انحاء الدير وقد لحظت انه بُني وسط غابة ، ثم بدأ الرهبان يقطعون الاشجار شيئاً فشيئاً.

وكان يحيط بالدير والكنيسة سور خشبي أسود اللون ، والى الامام تقع البحيرة الزرقاء ، طولها تسعة فراسخ وعرضها أربعة ، وكان القرّ قد سدل على سطحها حجابه الجليدي فبدت كأنها المرآة . وقد ابتهجت نفسي بهذا المكان الجميل وشاقتني مناجاة الله في ذلك الدير الصامت الساكن الذي يملأ النفس خشوعاً .

ولما دق جرس الصلاة دخلت الكنيسة فأعجبتني خدمة القداس الالهي ولكني لم أرتح الى أصوات المرتلين . رفعت رأسي الى السماء وأغمضت عينيّ وصليت قائلًا :

– ربّ اذا كنت ترى في أفكاري شيئاً من الجرأة فاغفر لي ، اني

لا أشك فيك مدفوعاً بعامل الكره وإنما حباً للحقيقة وحدها أنت تعلم يا رب نياتي الطيبة . »

وكان أمامي راهب يصلي فما أن انتهيت من صلاتي حتى التفت اليَّ وضحك بوجه يفيض صلاحاً . ذلك اني لفظت صلاتي بصوت مرتفع ، فما أن سمع توبتي وندامتي حتى نظر اليَّ نظرة قلما عرفت مثلها .

فتقدمت الى الامام ووقفت حذاءه وشرعت أتأمل هيأته الجميلة ، اني لم أرَ في حياتي كلها ولن أرى طلعة بهية كطلعته .

كان أبيض اللون تحيط بوجهه لحية خفيفة جعدة كأنها اطار ذهبي لمحياه المشرق .

كل ما يبحث عنه الرسام من الجمال البشري يراه في ذلك الراهب الذي يأخذ حسنه بمجامع القلوب ، وقد بلغ من شدة تأثيره فيَّ اني حلمت به ليلتئذٍ .

وفي الصباح أيقظني الاخ نيفونتي باكراً وقال لي :

ــ ان الاب الرئيس أعدَّ لك عملاً من باب الامتحان . اذهب الى الفرن وهذا الاخ يقودك الى هناك وهو رئيسك . هذا رداء الرهبنة فالبسه .

وكان الرداء منسوجاً من خيوط صوفية خشنة فجاء أقرب الى المسوح منه الى كساء اعتيادي ، وكان الحذاء واسعاً فاذا مشيت خفق في قدميَّ .

وبعد ما ارتديت ثوبي الرهباني أدرت في رئيسي نظري متوسماً متفرساً فرأيته طويلاً ضخم الجثة دميم الهيأة ، كثير الاسارير والتجعدات ، ذا نظرات خادعة حاذقة شرسة . وقبل ان نسير ودعني الاخ نيفونتي قائلا :

ــ رئيسك يدعى الاخ ميخا والى اللقاء .

ثم انصرفنا الى الفرن وكان الضباب كثيفاً فلا نكاد نرى ما أمامنا وفيما كنا سائرين اذ وطىء ميخا بقدميه شيئاً لم أتبينه فأخذ يشتم ويلفظ كلمات

قبيحة ، وبعدئذ سألني : أتحسن عجن الدقيق ؟

فأجبته : رأيت بعض الاحيان كيف تعجن النساء .

فردّ عليّ ساخطاً : النساء ! النساء دائماً ! النساء في كل مكان ، اذكر ان العالم ملعون بسبب النساء .

– ولكن العذراء كانت امرأة ... والقديسات كثيرات .

– حسن ! اذا تمسكت بهذه الافكار فما أمامك الا الجحيم .

فقلت في نفسي : « هذا الرجل ينقاد الى غريزته . »

ولما وصلنا أوقد ميخا النار استعداداً للعمل . والقيت نظرة على الفرن فرأيت جدرانه وسقفه ملأى بالغبار وخيوط العنكبوت مما يدل على كسل واهمال .

وكانت في الفرن معجنتان فأشار ميخا الى واحدة منهما وقال : تعال وتعلم . هو ذا العجين ، أترى هذه الفقاقيع ، انها تعني ان العجين اختمر وصار صالحاً للاختباز . ثم تناول كيساً من الدقيق وأفرغه في المعجنة وصرخ بملء صوته :

– ضع فوقه أربعة دلاء من الماء واجبل وابدأ بالاعتجان .

وكان منظر ميخا بعدما افرغ الدقيق يدعو الى الضحك ، فما تخيلت أمامي رجلًا بل شجرة بيضاء مغطاة بالثلج . وبعدما خلعت الرداء الرهباني شمرت عن ساعدي استعداداً للعجن فنظر الي ميخا شزراً وقال :

– ماهذا ؟ اخلع حذاءك واعجن بقدميك .

فسألته مستغرباً : أأعجن بقدميّ ؟ لقد مضى عليّ وقت طويل دون أن أستحم .

– لا بأس اعجن بقدميك !

ـ كيف هذا ؟ أأعجن بقدميّ القذرتين ؟

فتأفف ميخا وأخذته السآمة وأجاب :

ـ انا الآمر وأنت المأمور ، فاصنع حسبما اريد ودع الاعتراض جانباً . أفهمت ؟

فقلت في نفسي آنئذ : « حملته الشياطين ، فليكن كما يريد . »

ثم خلعت حذائي ومسحت قدميّ بخرقة مبللة وبعدما شمرت عن سافيّ بدأت أغمر الدقيق بقدميّ وكان رئيسي يروح ويجيء وهو يصرخ :

ـ سأعلمك الطاعة ، سأروّض طباعك الشرسة .

وبعد أن انتهيت من المعجن الاول تحولت الى الثاني فعجنت مافيه وما أتممت عملي حتى أخذ مني الوهن مأخـــذه لأني لم أعتد العمل الشاق القاسي ، وكان الطحين قد تطاير الى وجهي وعيني وانفي وفمي واذني فأصبحت كأعمى وأصم وتصبب العرق من وجهي فتساقط فوق العجين على الرغم مني، لذلـــك سألت معلمي ميخا قائلاً .

ـ اليس هنا خرقة نظيفة أمسح بها عرقي ؟

فأجابني متهكماً : علينا أن نشتري لك المناديل المخملية لتستخدمها في تنظيف جسدك . لقد تأسس الدير منذ مائتين واثنين وثلاثين عاماً كان يترقب خلالها مجيئك ليقوم بأوامرك الحرة .

فأخذت أضحك ثم رددت عليه قائلاً : اني لم اطلب الخرقة لنفسي ولكني أشفقت على الذين يأكلون الخبز ممزوجاً بالعرق ..

فاقترب مني وكان كالبعير الهائج وأجاب :

ـ ما أرق شعورك ، وما أنحف بشرتك ! الا يرضيك اذاً أن تمسح عرقك بكيس من اكياس الدقيق ...؟ لا بأس ، تدلل عليّ ماتشاء فسأشكو

امرك الى الرئيس الاعلى .

فلم أردّ عليه لأني وقفت أمامه مذعوراً لا أقوى على مناقشته . كان هذا الرجل غريباً في أطواره وأعماله وأفكاره وقد حيرتني مثابرته على الشغل دون استراحة او انقطاع . فكان يحمل اكياس الدقيق الثقيلة كأنها وسادات من الريش وكان لاينفك عن تعنيفي والتهكم عليّ فاذا رآني وقفت عن العمل لأتنفس صرخ قائلاً :

— هيا بنا ، لاتضع الوقت .

والحقيقة اني سئمت الحياة لفرط ماتولاني من الوهن وخوار العزيمة حتى كاد يغمى علي .

الفصل التاسع

بين انياب الحيرة والشك

كانت الايام الاولى التي قضيتها في الدير كناية عن سلسلة من المشقات والمصاعب.. كان الفرن يقع في قبو تحت الارض منخفض الجدران ولم يكن فيه من النوافذ الا واحدة والكنها اقفلت عمداً . وبدهي بعد هذا أن يفسد الهواء وان يتناثر الدقيق في الفضاء ويؤلف سحابات من الغبار كان ميخا في وسطها يروح ويجيء كأنه دب مسجون في قفص .

وكانت اعمال الفرن مقصورة عليّ وعلى ميخا فقط ، وقلما اهتم رئيس الدير بارسال احد ليجربه ، فما اقسى هذه المهمة التي القيت على عاتقنا .

وقد نشأ عن شدة انهماكي في شؤون الفرن اني خسرت الصلوات لضيق الوقت ، فكان ميخا يعظني ويرشدني ويلقنني التعاليم والواجبات الرهبانية فكأنه يقيدني بحبل ثخين مشدود من عنقي الى قدمي ·

كان ميخا شديد السخط على العالم يحمل في صدره حقداً قاتلاً يتدفق من فمه تدفق النيران من البركان ، فما عتمت بعدما سمعت مواعظه وتعاليمه ان شعرت بظلام حالك يغشى قلبي وروحي .

كان يقول لي : اما وقد ترهبت فوجب عليك ان تنظر الى البشر كأنهم غير موجودين . انهم لايزالون يلدون ويحبلون بالخطايا ، ولا ينفكون عن بث الذنوب في العالم ، وانت هجرت هذا العالم ، ولكن لايكفيك ان تهجره جسدياً بل ينبغي ان تصرمه فكرياً وروحياً . اذا فكرت في البشر ذكرت ولا مشاحة المرأة، وهي التي القت العالم في ظلمات الخطيئة واستعبدته الى الابد.

وكنت اذا هممت بفتح فمي مستفهماً سائلاً او مناظراً مباحثاً صرخ قائـلاً :

ـ اسكت ! اصغ الى الرجال المجربين الذين عركوا الدهر . اصغ بخشوع الى من هم اكبر منك سناً . انا ادري ماتريد ان تقول . انك لاتنفك عن ترديد اسم العذراء والاستشهاد بها . ولكن يجب ان تعلم ان يسوع ما رضي أن يموت على الصليب الا لأنه ولد من امرأة بدلاً من ان يهبط من السماء بنقائه وقداسته ، ولاجل هذه القرابة البشرية اضطر يسوع ان يكون طول حياته رحيماً شديد التسامح والصفح والغفران . كان يجب عليه ان يقـذف المرأة السامرية في البئر عوضاً عن ان يباسطها ويناسمها . انه لو ضرب الخاطئة بالحجر الاول لأنقذ العالم من المفاسد وحرره من الشرور ..

ـ ولكن هذه الاقوال ليست من التعاليم الدينية بشيء .

ـ اسكت ، اسكت ، انت لست على شيء من العلوم والمعرفة ، متى كنت تميز بين ماهو ديني وماليس بديني ؟ اسكت ، فالكنيسة من الفها الى يائها في قبضة الاكليروس الدَهري ، هي مطية الخلعاء المطارين المخابيل الذين يرفلون بالطيالس الحريرية . رجال الدين زمرة تصلح لتأليف الحلقات الراقصة لا لسنّ القوانين .

أيستطيع رجل ذو امرأة ان ينظر في الامور الدينية ويتدبرهـــا بنقاء

وطهارة؟ كلا ، ولا طاقة له على هذا لانه منغمس في الشهوات واللذات الجسدية التي حملت الله على طرد آدم وحواء من الفردوس .

لأجل هذه الخطيئة قضي علينا بالاوجاع والآلام الدائمة ، لاجلها حكم علينا باليأس والتجربات الشيطانية ، لاجلها عمهت بصائرنا عن رؤية وجه الله .

والأكليروس ، وهو نفسه الذي ينشر الخطيئة باتجاره مع النساء ، يشجع البشر على سلوك طرق الشر والظلال ، ولا يهمه أن يفسد شرائع الله ويناقض قوانينه ليسوغ نقائصه وجهله » .

وعلى هذا الاسلوب كان ميخا يشدد علي الحصار في سور مرصوص البناء. فكيفما اتجهت ضربت حجارته برأسي فأتألم ويشتد قلقي واضطرابي . ويلاه ، لقد دخلت الدير لاسترد طمأنينة نفسي وسلام روحي ، فاذا بي أمام عاصفة جديدة يثير رياحها راهب متنسك . ولما رأيته يدافع عن نظريته بحماسة وغيرة نفثت ما بصدري وقلت معترضاً :

ــ ولكن لاتنس ان الله قال (انموا واكثروا) .

فاشتد حنق ميخا وضرب الارض برجله ورد علي قائلا : نعم ، هذا ما قاله. ولكن أتعلم أيها الغبي نص العبارات التي قالها ومعانيها ؟ اسمع اذن.

قال الله « انموا واكثروا واملأوا الارض ، اني اسلمكم الى يد الشيطان فملاعين أنتم من الآن الى الابد » هذا ماعناه الله بقوله . بيد ان الخلعاء الهدامين رجال الدين قد شوهوا المعنى وحولوا لعنة الله الى شريعة إلهية .

لو ان جبلا انهار على رأسي لما اصابني ما أصابني بعد سماع تعاليمه الغريبة التي تركت في نفسي أسوأ الأثر.. اني لا أستطيع ان اومن بأقواله المتطرفة ، ولكني في الوقت نفسه لا أقوى على دحض نظرياته وقرع الحجة بالحجة . كنت مضطرباً متبلبلاً جازعاً بسبب هجماته العنيفة المتتالية التي لا تترك لي

مجالاً للتأمل والتفكير . كنت اذا استشهدت باحدى آيات الانجيل ، أجابني صاباً على رأسي آيتين او ثلاثاً تناقضها وتدحضها فيرتج علي .

التوراة كناية عن حديقة ملأى بالورود المختلفة الالوان ، فمن آثر الحمر ، فالحمر يقطف ، ومن رام البيض ، فالبيض يجمع !

هذا ما كان يردده على مسامعي فلا ألبث ان اسكت عاجزاً مفحما ، ولا يعتم ان تلمع عيناه كما تلمع عينا الذئب الهاجم على فريسته .

وكنا ، مع كل ما يدور بيننا من المناقشات والمجادلات ، نقوم بعملنا دون ابطاء. كنت أعجن الدقيق وكان يخبزه في الفرن ،فاذا نضج أخرجه فأشرع آنئذ في صفه وترتيبه وهو حار يحرق الاصابع .

آه كم قاسيت من المتاعب في الفرن ، وكم عانيت من المشاق ! ما اشد ما لقيته من العياء والكلال ! كنت جثة متحركة لا أسمع ولا أبصر ولا أعي .

وكثيراً ما كنت أقول في نفسي : « الا تكفيني هذه الاعمال الشاقة التي استنزفت قواي حتى ابتليت بعشرة ميخا » .

كان هذا الرجل يملأ قلبي خوفاً ورعباً فكرهته ومقتته نفسي .

وفي ذات مرة سألني قائلاً : أترى في نومك نساء عاريات ؟

فأجبته بلهجة جافة : كلا ، لم احلم قط بهن .

فغضب وقال : أنت كاذب ، لماذا تكذب علي ؟

ثم هاج وصب على رأسي حمم حنقه صارخاً : يالك من منافق لئيم !

فهذا السؤال اوقع الرعب في قلبي ، ما الذي دفعه الى الحديث عن النساء العاريات ، وكيف خطر له هذا الموضوع . . ؟ كنت انصب على العمل منذ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى الساعة العاشرة مساء ، وهذا العمل الشاق المتواصل لايترك لي مجالاً للتفكير في النساء او سواهن ، اذ اني لا اكاد استلقي

على السرير حتى انام نوماً عميقاً. فكيف احلم بالنساء العاريات ؟

وفي ذات مرة هبطت قبواً مظلماً محاذياً للفرن لكي اجلب الخميرة .

كان الباب مفتوحاً فدفعته ودخلت على نور القنديل فرأيت ميخا مستلقياً على بطنه وهو يصرخ بصوت أجش : رب اشفق علي ، أبعدهن عني ، ابعدهن وارحمني .

فلم ألبث أن أنصرفت دون أن أفقه معنى هذا المشهد وهذه الكلمات ..

كان ميخا يصب جامات غضبه وحقده على النساء دون تمييز فيرميهن بكل سؤاء وعوراء ويفتري عليهن افتراء مذموماً. وكثيراً ما يأخذ منه الحنق مأخذه فيخيـــل اليه انه أمام امرأة مثلت بحضرته تتهكم عليه ، فيرفع يديه في الهواء ويكشر عن مثل أنياب الذئب ثم يأتي بحركات عنيفة كأنه يمزق تلك المرأة ارباً ارباً انتقاماً منها .

وأنا لم يكن بوسعي احتمال هـــذه المشاهد وتلك الخطب . كنت اذكر امرأتي ، وأذكر دموع الفرح التي ذرفناها ليلة العرس متعانقين جسداً وروحاً. كنت اذكر تلك الايام الهنيئة التي قضيناها معاً فأرفع رأسي الى السماء واسأل ربي قائلا :

– الهي ، أليست المرأة الاغنوجة الهنيئة التي منحتها للرجل ؟

وكنت اذكر أيضاً نقاء سريرة تاتيانا وطيب قلبها وبساطتها. كنت أذكر أخلاقها الرضية وشمائلها الحلوة ثم اقابل بينها وبين مطاعن ميخا التي كانت تؤلمني أشد ايلام فتغلي في صدري مراجل الموجدة على هذا الرجل الغريب واقول في نفسي : متى دعاني الرئيس للمثول أمامه قصصت عليه كل شيء .

بيد ان الايام كانت تمر سراعاً وينطوي بعضها فوق بعض دون أن أسمع صوتاً للرئيس او ارى له ظلا فيدب اليأس الى قلبي .

وفي هـذه الايام - وكان عمري اثنين وعشرين سنة - ظهرت في رأسي الشعرات البيض الاولى .

وقد كنت شديد الشوق الى مقابلة ذلك الراهب الجميل ومحادثته. ولكني لسوء الحظ ، كنت اراه نادراً فلا اكاد ألمحه وأملأ ناظري بطلعته البهية حتى يغيب عن عيني ، فأرافقه بلهفتي التي كانت تتبعه كظل غير منظور .

وفي ذات يوم سألت ميخا عن هذا الراهب فأجابني : هو رجل فظ الطباع لا يعرف معنى الديانة والتقوى . طرد من صفوف الجيش لاحتياله في العاب الميسر ، وبعدما انتظم في مدرسة اللاهوت مدة قصيرة طرد أيضاً لاسباب نسائيـة .

لا انكر انه علامة الشيطان ايضاً . عندما يهرم يميل الى التنسك .

لقد سرق هذا الراهب كل رهبان دير تشودوفو في القمار ثم جاء الى هنا فوهب الدير نحو سبعة آلاف وخمسمائة روبل وابتاع له بعض الاراضي وهكذا نظر اليه رفقاؤه نظرة الاكرام والاحترام .

وفي هذا المنسك يقامرون ايضاً ، اذ يجلس حول الخوان الرئيس الاعلى والقيم والخازن وهذا الراهب رابعهم ، وهناك ماهو أسوأ اذ ان للرجل خليلة أعد لها منزلاً وراء الحاجز حيث يقضي برفقتها الساعات الطوال . يالله من لئيم !

فلم أستطع أن أصدق ما قصه علي ميخا . ولما رأيت عواطف الشك والريب تجتاحني من كل الجهات خفت أن تقضي على ما في قلبي من الايمـان ، فسألت الاب ايزيدور قيم الدير أن يهيء لي السبيل لمقابلة الرئيس الاعلى .

فسألني : وماذا تريد منه ؟

فأجبته : أحب ان أحادثه في الشؤون الدينية .

- ماذا ؟ في الشؤون الدينية ؟

ـ نعم . ان لدي أسئلة متعددة أحب أن القيها عليه اثارة لقلبي وذهني .

فأخذ الاب ايزيدور يصعد نظراته في مستغرباً مدهوشاً.

كان هذا الراهب رجلاً طويلاً ضعيف البدن ذا عينين براقتين يتطاير منهما شرر الذكاء ، وكان عظيم الانف يعيد الى الذاكرة مناقير الببغاوات .

قصصت على قيم الدير ما يخامرني من الشك وشرحت له على الرغم مني ما يختلج به قلبي من الارتياب في شفقة الله فلم يلبث ان ابتسم وأجابني :

ـ داوِ الشك يا ولدي بالصلاة ، قوِّ ايمانك بالصلاة ، أوصي الك بالصلاة فهي التي تشفي اضطراباتك الروحية ، وهي التي تكفل لك السلام. ولكنني مع هذا سأطلع الرئيس على أمرك لا لانك شديد النشاط والاجتهاد فقط بل لان طلبك غير مألوف يستحق الاهتمام والعناية ، فتشجع .

وفي اليوم التالي دعيت الى المثول بحضرة الرئيس فجسني بعينيه واطال النظر الي ثم قال : اطلعني الاب ايزيدور على رغبتك في مناقشتي في شؤون دينية .

فقاطعته قائلاً : عفواً يا أبتاه ، انا لم اطلب مناقشتك وانما . .

فأجاب محتدماً غيظاً : لا تقاطع رئيسك ، كل بحث يدور بين اثنين يدعى مناقشة . وكل سؤال لا يتعلق بحياة الرهبنة واعمالها اليومية يسمى اغواء فكرياً .

ان رهبنتنا عاملة مجتهدة ، ونحن انما نشتغل لصيانة الجسد بغية ان يتمكن الروح الذي يقطن فيه موقتاً من الطيران الى الله والتوسل اليه ليرمق الخطاة بعين رحمته .

ليس في رهبنتنا مدرسة للفلسفة ، ولكن للعمل والاجتهاد . نحن لاتعوزنا المعرفة ولكن تنقصنا بساطة الروح وسذاجة النفس .

وقفت على المناقشات التي دارت بينك وبين الاخ ميخا ، وأقول لك اني لا أوافق عليها . فعليك أن تصد جموح افكارك فلا ترخي لها العنان والاسقطت في هوّة التجربة ، وذلك لان الفكر ـ والايمان لا يلجمه ولا يقوده ـ هو امضى سلاح في يد الشيطان .

العقل مصدره الجسد وهذا مصدره الشيطان . بيدَ ان قوة النفس تنشأ في كونها جزءاً من روح الله ، والوحي يهبط على الابرار والصديقين دون أن يحتاجوا الى التأملات والتفكرات . ان معلمك الاخ ميخا راهب قاسٍ ، ولكنه متقشف زاهد في مجد العالم وملذاته . وقف حياته على العمل الصالح ، فهو اذن يستحق الثناء كما يصح ان يكون قدوة حسنة .

والآن اراني مضطراً ان افرض عليك قصاص توبة وندامة . عندما ينتهي عملك النهاري تذهب الى الكنيسة اليسرى ثلاث مرات في خلال الليل وهناك تصلي وتطلب الغفران راكعاً أمام الصليب ، وذلك لمدة عشرة أيام . وبعد أن تنتهي كفّارتك يبدأ الراهب مارداري بارشادك ووعظك . لقد كنت فيما مضى مستخدماً في (مكتب ملاّكين) اليس كذلك ؟ هذه المكاتب تفسد الاخلاق والدين ، ولذلك وجب ان تطهر نفسك من الادران . انصرف الآن بسلام ، انت يتيم لا أب لك ولا أم ، فاذهب وسأصلي الى الله لاجلك . توكل على الله .

مضيت الى الفرن حاملاً في مسامعي ذلك الخطاب الطويل الذي جاء وقراً على الاذن ، ثقيلاً على القلب .

فقد يضل العقل في بحوثه وقد يصاب بالسهو والذهول في معالجة بعض القضايا فلا حياء في هذا ولا عار ، ولكن لا جدال في أنه لا يليق بالرجل ان يعيش كأحد الخراف . لا يجدر به ان يكون منقاداً أعمى .

في ذلك العهد كنت اعد التأملات الدينية بمثابة محشر في اعمق كياننا ، في صميم الروح حيث اودعت البذور الحيوية ، وحيث يجتهد الفكر في التفتق كما تتفتق انوار الثمار . انا لم ارَ في داخلي امراً غامضاً مستعصياً علـيّ فهمه او متنكراً لي يناصبني العداء ، كل ما في باطني مؤتلف متسالم ، بيدَ انني رأيت نفسي امام احجية الاحاجي وهي الله ، كما اني شعرت بالخصام والعداء في العالم الخارجي . فلماذا اكفر عن ذنب لم ارتكبه ؟ وما معنى الكفارة التي فرضها عليها الرئيس ؟

ألأن الله مستعصي الفهم لا يدركه العقل ؟ ألأن العداء منتشر بين البشر ؟

أما أن يشيد الرئيس بفضائل ميخا ويعده القدوة الحسنة فهذا هو الرياء بعينه . لقد كذب الرئيس في ما انتحله لميخا من التقوى والعبادة ولا اعرف كيف افسر هذا الخداع . لقد كنت انفرد عن رفقائي وامتنع عن مشاركتهم في الاحاديث ، ولكنني في الوقت نفسه كنت ارقبهم واترصدهم فرأيت ان كثيرين من احداث الرهبان وسواهم يمقتون ميخا ويحتقرونه ويخافون شرّه .

ورأيت أيضاً ان ادارة الدير لا تختلف عن ادارة احدى المزارع او الاملاك . رأيت في الدير كل انواع المتاجر ، فالحطب يباع والاراضي تؤجر ، والخراج يُجبى على الصيد في البحيرة والفواكه والبقول تُعرض للبيع الخ .

وكان في اصطبل الدير ثمانية عشر حصاناً . اما عدد الاخوة فيبلغ مائة وخمسين اغلبهم احداث ومجتهدون ، اما الكهول فقليلون وهم لذر الرماد في عيون الزوّار والحجاج .

وكان الرهبان يشربون المسكرات ويغازلون النساء ويلهون ، فالأحداث يتسللون ليلاً من الدير الى القرية ، والطاعنون يستقدمون الصبايا الى مخادعهم بحجة غسل العلالي ، ولا جدال أيضاً في أنهم كانوا يتمتعون ببعض الزائرات .

بيدَ أني لم احفل بشيء من هذا كله، أنا لا تعنيني شؤون الرهبان الخاصة، فليصنعوا ما يشاؤون فلست بمؤلب لهم، غير اني لا استطيع السكوت عن الكذب والرياء ولا اقوى على مجاراة المضلل الافاك.

كان في الدير عدد كبير من المستوهبين الذين ألقيت على عواتقهم اشغال شاقة قاسية للامتحان والتجربة. ولكن كثيرين اضطروا ان يهربوا من الدير تخلصاً من مشاق الرهبانية الثقيلة، ففي غضون السنتين اللتين قضيتها هناك فرّ منهم احد عشر بعد ان مكثوا شهرين فقط. ان الامتحان الرهباني صعبٌ وطريقه وعرة محفوفة بالشوك والعوسج، فلا عجب اذا تقهقر الضعفاء وعادوا ادراجهم.

وبديهي ان يضمّ الدير في عداد تُحفه وطُرفه اشياء كثيرة تستهوي الزوّار وتغري الحجاج بالشخوص اليه. فهناك جبة الكاهن التقي المرحوم الاب جوزافا وكانت تشفي من داء الرثية (الروماتيزم). وهناك قلنسوته، وهي اذا وضعت على الرأس شفته من الاوجاع. وكان في غابة الصومعة ينبوع ماؤه قارٌ شنان، فمن اغتسل به نال البرء من اسقامه.

وهناك ايقونة العذراء وكانت تقوم بصنع العجائب لخير المؤمنين.

ولا ينتهي الامر عند هذا الحد، فقد كان الأب مارداري يقرأ الغيب ويستشف حجاب المستقبل ويتنبأ ويعظ ويعزي الحزانى الملهوفين. والخلاصة ان الدير كان جامعاً لكل المشوقات والمغريات، فلا ينبثق شهر أيار حتى تبتدىء حجة الشعب اليه للتبرك بآثاره المقدسة والتحرر من آلام الداء.

وبعد مقابلتي للرئيس ووقوفي على تعاليمه عزمت على الانتقال الى دير آخر حيث تتجلى الوداعة والبساطة بأجمل مظاهرهما، حيث لا تفرض على الرهبان الاحداث اعمال شاقة تلهيهم عن مزاولة التأملات الدينية والرياضيات الروحية،

حيث يتسع المجال للاشراق والتقرب من الله ، بيدَ ان الحوادث افسدت عليّ عزمي وحالت دون ادراكي لبغيتي .

وكنت في هذه الاثناء قد تعرفت براهب اسمه غريشا وهو رجل رقيق القلب لطيف العشرة ينظر الى الاشياء من وراء نظارتيه القاتمتين .

اعتاد غريشا أن يسير مسرعاً برشاقة وهو مطأطىء الرأس كمن لا يريد أن يرى ما يحيط به في طريقه . فبعد مرور أيام على محادثتي للرئيس ،جاءني غريشا الى الفرن وكان ميخا غائباً ، فما ان حياني حتى سألني :

ـ أمثلت بحضرة الرئيس ؟

ـ نعم .

ـ أوعظك وأرشدك ؟

ـ كلاّ .

ـ ألم يصغِ اليك ؟

ـ كلاّ .

فمد غريشا يده الى نظارتيه كأنه يصلحها وقال بصوت مضطرب :

ـ سامحني اكراماً ليسوع !

ثم أنفض رأسه (أي حرّكـــه وهزه) وجلس مطأطئاً ، وكان السعال يأخذه مرّة بعد اخرى فيهتز من رأسه الى قدميه وتعذّر عليه التنفس فيكمدّ لون وجهه .

وما ان استراح قليلًا حتى أعدت ما القاه عليّ الرئيس دون زيادة او نقصان ، ولما انتهيت وقف امامي وسألني بصوت رنان :

ـ لماذا يقولون ان كل من يزهد في الدنيا انما يؤثر الدير لانقاذ نفسه في حين ان الصومعة ليست الا كسائر المشروعات الدنيوية التي قصرت همها على

حشد المال ؟

لقد انخرطت في سلك الرهبان هرباً من الانانية وخطاياها ، ولكني رأيتها منتشرة في الدير انتشارها في خارجه ، فالى اين اذهب الآن ، والى اين اسدّد خطواتي لأنقذ نفسي .

ثم قصّ عليّ قصته المحزنة فقال انه بعد ما درس العلوم التجارية اخـــذ يساعد اباه في أشغاله وكثيراً ماكان يحل محله .

قال لي غريشا : كنت اوثر الاتجار بالألبسة على الاتجار بالخبز . هـــذه تجارة دنيئة امقتها واكرهها . عن الخبز لاغنى لأحد . ولذلك لم أرَ من العدل ان ابتز به الفقراء والمساكين، ولهذا السبب شاء والدي ان يتلفني ولكن دارت عليه الدائرة فأتلفه نجله وقضى عليه . ذلك انه كانت لي شقيقة ذكية الفؤاد طروب تحب الدرس والمطالعة ، وفي ذات يوم جاءها ابي وقال لها : « لقد انهيتِ دروسك ياالبصابات ، ولم يبقَ لكِ حاجة في الترداد الى دور العلم اذ اني انتقيت لكِ عريساً » .

فأخذت اختي تبكي وتصرخ ولكن ابي لم يحفل بها ولا رثى لحالتها . ولما رأته مصراً على مايريده ، أذعنت لمشيئته مُرغمة .

وكان العريس الذي اختاره لها رجلًا فظاً مرائياً لاينقطع عن التبجج بغناه وأمواله ، والصحيح بثروة ابيه الذي كان من اكابر تجار الشاي .

هذا الرجل لم ينل خطوة في عيني شقيقتي فالطباع مختلفة والمنازع متنافرة والميول متباينة ، فاذا شكت امرها الى ابي اجابها معنفاً : يالكِ من حمقاء ! أنسيتِ ان له مستودعات كبيرة في كل المدن المنتشرة على نهر فولجا ؟

فتسكت وقد غلب عليها اليأس .

ثم جاء يوم الزواج ، وعندما دنت ساعة الاكليل آوت اختي الى مخدعها

ثم تناولت مسدساً وصوبته الى قلبها . وما أن دوى الرصاص حتى هببت كالمجنون فرأيتها على آخر رمق من الحياة .

فركعت امامها وقد تحادرت دموعي امام عروس الموت ففتحت عينيها وأرسلت نظراً تائهاً وقالت :

ـ الوداع ياغريشا ، كنت اود ان أعيش وأحيا ، ولكن لاطاقة لي على احتمال اعباء الحياة الثقيلة ، آه لا أستطيع ... الوداع . »

كان غريشا يمضي في قصته مسرعاً كأنه يحاول ان يفلت من ذكريات الماضي وفواجعه . وكنت اصغي اليه وقد حدّقت ببصري الى الفرن فبرزت أمامي فوهته السوداء التي اندلعت فيها السنة النار ووثبت على الحطب تلتهمه صاخبة زائرة فحكت معمعتها اهازيج النصر والفوز . ادمنت نظري في النيران المتقدة فخيل اليّ اني اشاهد في اللهيب وجه شقيقة غريشا المنتحرة ، فاهتززت حنقاً وقلت في نفسي لماذا يعذب البشر بعضهم بعضاً ويقتل احـدهم الآخر ؟ »

كان غريشا يقذف الفاظه كما تقذف الرياح الاوراق اليابسة في الخريف ، وهكذا تابع حديثه قائلاً: ولمادرى والدي بالامر ضرب الارض برجله وصرخ كالمجنون «لقد لطختنا بالعار وخسرت روحها». ولم يثب اليه رشده الا بعدما رأى كل قازان تشيع جثة ابنته الى مقرها الاخير وتنثر فوقها أكاليل الورود وتبللها بدموع التفجع والتحسر ، فأعمل آنئذ فكرته وقال : « اما وقازان كلها تبكي اليصابات وتندبها ، فأنا المخطىء وانا المسيء اليها . »

وهنا غلب البكاء على غريشا فسالت عبراته وبللت نظارتيه فمد يـــديه المرتجفتين ومسحها ومضى في قصته .

ـ وكنت قبل نزول هذه الفاجعة انزع الى الترهب واجنح الى حياة

الدير. وقد أطلعت ابي على رغبتي وسألته ان يسمح لي بالانخراط في سلك الرهبان فشتمني وضربني ، بيد اني اصررت على عزمي واعلنت له مراراً عديـــدة ما اشعر به من رذل التجارة واحتقارها .

وظـل ابي مصراً على جوابه السلبي الى ان انتحرت شقيقتي فأذعن لطلبي خوفاً من حدوث كارثة جديدة .

مضى على القصة اربع سنوات ، قضيتها في ديرين ، غير اني لم احظ حتى الآن براحة النفس ، فأيان اذهب ار المتاجرة ناصبة لواءها . الاديرة تبيـــع الاراضي والعجائب وتتجر بالعسل وكلمات الله . وانا لا استطيع ان اشاهـد هذه التجارة دون ان اتعذب وتتألم روحي .

وقد جددت قصة غريشا مرارة قلبي وبعثت ماكان يراودني من الشك والريب في حياة الاديرة وفي الايمان . فسألت غريشا :

ــ واين الله اذن ؟ اين الهناء ؟ كيف التفتنا نرانا محاطين بالقسوة البشرية باللصوصية الدنيئة منشأ الاحزان والفواجع ، فأين الله ؟

وما انهيت عبارتي حتى برز امامنا ميخا فانتقلنا الى حديث آخر .

ومنذ هذه الساعة توثقت صلات الولاء بيني وبين غريشا فكنا نتحادث كل يوم ويسلي واحدنا الآخر ويعزيه ، وفي ذات مرة شرحت لغريشا افكاري واطلعته على ما أبطنه فانتابه الخوف ونصح لي ان اتضع واتصاغر . فسألت :

ــ وما الذي يقضي على البشر باحتمال الآلام والعذاب ؟

فأجابني : خطاياهم. وهو يقول بأن الله مصدر كل شيء، الجوع والحريق والطوفان والزلزال ولذلك سألته مستنكراً :

ــ انت ترى اذن ان الله هو من يزرع على الارض بذور بلايانا ومصائبنا ؟

فهمس قائلًا : اذكر قصة ايوب ، ايها البليد !

فرددت عليه مغتاظا : وماذا يعنيني ايوب وصبره على الدواهي والقوارع ؟ لو كنت مكانه لخاطبت الله قائلا : « لاتعذبني يارب ولا تضربني بغضبك ونقمتك بـــل افتح امامي طريق النور المؤدي الى مملكتك السماوية . اذا صددتني عن المنهج السوي فانما تضع من قدرك وتتصاغر ، الست ابنك المنبثق من روحك والمخلوق من صورتك ومثالك ؟

وفي ذات يوم اطلعت غريشا على آرائي في العلوم الالهية (اللاهوتية) ولما رآني متطرفاً بكى وضمني الى صدره هامساً :

– يا اخي العزيز ، اخاف عليك كل الخوف واخشى ان تسقط في هاوية الضلال ، فالشيطان هو الذي يبث فيك هذه الافكار وهو الذي يوحي اليك بالكفر .

فأجبته : انت مخطىء ، فأنا لا اومن بالشيطان لأن الله كلي القدرة .

وقد كان لجوابي هذا تأثير عميق في قلبه حمله على القلق والاضطراب . ولا غرابة ، فقد كان نقي القلب سليم الطوية طاهر الروح وهذا ما حببه الي .

الفَصْلُ العَاشِرُ

كلما غاص القلب على در المعرفة ، ازداد شعوره بالجهل

لم يكن لي مندوحة عن القيام بالكفارة التي فرضها علي الرئيس ، فما إن ينتهي عملي النهاري حتى أتجه الى الكنيسة فيفتح لي بابها الأب التقي نيقوديموس ثم لا يلبث ان يغلقه ورائي .

كان العياء يأخذ مني مأخذه الشديد في خلال النهار ، ولذلك لم يكن لي طاقة على الوقوف أو الركوع أمام الصليب ، بل ارتمي على احد المقاعد كجثة هامدة . وبعد أن استريح قليلًا ادير لحظي الفاتر الناعس فيما حولي ثم افكر في نفسي وفي غريشا .

كان الوقت صيفاً ، والليالي حارة خانقة ، بيد أن الحرارة في الكنيسة كانت معتدلة .

أخذت أتأمل المعبد فرأيت القناديل منتشرة هنا وهناك ، وكانت انوارها المزروقة المرتجفة تبدو لعيني كأنها تتحفز للطيران الى القبة بل الى ما هو اعلى منها الى السماء ، الى النجوم .

وكان يتراءى لي ، وأنا بين اليقظة والرقاد ، ان كائناً غير منظور يقطن في

الهيكل ويهمس سراً في آذان القناديل فترجع السنتها النارية صدى همسه .

وكأن الشموع غارت منها فاشرأبت أعناقها المتقدة الى القناديل ورددت صدى الصدى في ذلك السكون المهيب .

وكانت الظلمة تغمر وجوه القديسين المرسومـــة على الايقونات فتبدو وجوههم في وسط تلك السكينة كأنها تتحرك ، متأملة مفكرة في حل مشكلة عويصة عرضت لها. وكانت أشباح شفافة تهيم فوق وجهي حاملة رائحة البخور والزيت .

وبعد ان أقضي في الكنيسة المدة اللازمة لتلاوة الصلوات أعود الى فراشي وأنام نوماً عميقاً حتى اذا دنت ساعة الصلاة جاءني الأب نيقوديموس وأيقظني قائلا :

– قم باسم الله .

فأعتذر اليه ثم أنهض وأمشي متثاقلاً مستنداً الى ذراعه .

كان هذا الاب شيخاً طاعناً في السن وديعاً هادئاً قليل الكلام الى درجة الصمت . وكان يحجب وجهه بقناع لا يفارقه .

وفي أحد الايام سألته : أنذرت الصمت ايها الاب ، نيقوديموس ؟

فتنهد وأجاب : كلا ، لو كان عندي ما أقول لتكلمت .

ثم سكت وسكتُ أنا أيضاً بعد ما ادركت اني لن استطيع ان استلّ من صدره سرّه الدفين . فقد كنت اقول في نفسي : ربما كان احد اولئك المخدوعين الخائنين الذين لجأوا الى الدير لسلوك منهج الهداية والنور .

وماذا أنتظر بعد هذا ؟ آه لو تسنى لي الهرب من الدير ..!

وفي هذه الاثناء برز في الصومعة راهب جديد جميل الطلعة كأنه دمية ، أشقر الشعر أجعده ذو لحية خفيفة وأسنان بيض كاللؤلؤ وابتسامة جذابة لا

تفارق ثغره .

كان هذا الراهب الجديد يسلي الرهبان بنكاته ويضحكهم بدعابته ويستهويهم بمسول حديثه عن النساء ، والخلاصة انه كان من اكبر معاقري الخمرة بارعاً في كل امر .

وعنّ لي في أحد الايام ان اعجم عوده واستكشف باطن أمره فسألته :

– عمّ جئت تبحث في الدير ؟

– أنا ؟ جئت ابحث عن الطعام .

– حسن ، ولكن يجب على كل رجل ان يكسب بعمله ما يسد به رمقه .

فرد عليّ قائلا : أخطأت ، فالعمل شريعة فرضها الله على الفلاحين والقرويين وأنا لست منهم ، إذ أنني أنتمي الى السراة . هذا بصرف النظر عن اشتغالي في وزارة المالية مدّة سنتين يترتب عليه ان أعد نفسي ذا سلطة .

ولما سمعت جوابه أخذت أدرس أخلاقه ، فقد كنت أتوق الى معرفة النوابض المختلفة التي تحرك البشر .

فبعد أن حذقت عملي في الفرن وتدربت على احتمال مشاقه ، بدأ ميخا يتكاسل فكان يتركني وحدي في اغلب الاحيان ويذهب الى حيث لا أدري . وأنا لم احفل بغيابه فقد كنت اوثر ان اكون وحدي بلا مساعد ولو تضاعف عملي .

وكان انفرادي بالعمل مدعاة الى ترداد الرهبان الى الفرن فكنا نتحدث ونتناقش ونبحث في أمور كثيرة .

وكنا في الأغلب نتألف من ثلاثة ، غريشا وسيرافيم الراهب الجديد وأنا .

كنت أفضي الى رفيقيّ بما يخامرني وما احسه وما يجول في خاطري ، فلا يلبث غريشا ان يرتعب ويستحوذ عليه الخوف كأن امامه حيواناً فاغراً

فاه لافتراسه ، اما سيرافيم فكان يضحك تارة ويصفر أخرى .

وفي ذات مرّة سألت سيرافيم : وأنت ايها السري الشريد هل تؤمن بالله؟

فرد عليّ قائلا : اترك الجواب للمستقبل ، انتظر ثلاثين سنة وبعدئذ أقول لك أأومن بالله أم لا . عندما أبلغ الستين اكشف الحقيقة واميط عنها اللثام ، اما الآن فأجهل هذا الأمر كل الجهل ، فعلام الكذب والرياء ؟

وقد نرتاح كل الارتياح عندما نسمعه يصف لنا البحر .

كان يتكلم عنه كأنه يقص علينا خبر أعجوبة عظيمة فيختار الالفاظ الكبيرة الرنانة ويخفض صوته تارة ويرفعه أخرى ويتلاعب بلهجته طبقاً لما يشرحه .

وكنا نصغي الى حديثه صامتين مأخوذين بجمال البحر وجلاله .

كان يقول : البحر عين الارض الزرقاء ، يمتد نظرها الى اعالي السماوات متأملة في اللانهاية ، وعلى سطح هذا السائل الحيّ الحساس المشابه للروح تنعكس أنوار النجوم فتزيده جمالاً وفتنة .

ان من يدمن النظر الى أمواج البحر المتلاطمة ، يخيل اليه ان السماء نفسها هي اوقيانوس بعيد ، وان نجومه جزر ذهبية .

وما أنهى سيرافيم وصفه للبحر حتى أحنى رأسه وأجاب حزيناً :

– والغريب ان البشر ، أمام هذه الاسرار الهائلة والمشاهد الفتانة الجليلة ، لا يعرفون غير التجارة وحدها ، فيالله منهم !

وكان سيرافيم يحدثنا أحياناً عن القوقاس فيصفها أجمل وصف ، ويصورها بألوانها الزاهية والقاتمة قائلا :

– القوقاس وجه الارض حيث تلتحم وتتلائم في ابتسامة واحدة طهارة الروح النقية ودنس المعارف الشيطانية .

الى القوقاس ينبغي الشخوص ليمتحن الرجل قواه ، فمن كان ضعيف القلب هشيماً سقط هناك مسحوقاً أمام قوات الطبيعة ، ومن كان مفتول الساعد مريراً صلب العود ، ازدادت قوته وسلطته وارتفع وتعالى كما تتعالى قمم الجبال الخضراء وترتفع الى أعالي الصحاري السماوية ، انما هذه القمم عُرس لاشعة الشمس .

فتنهد غريشا وسأل بصول منخفض : من ذا الذي يقود الروح في الطريق الواجب سلوكها؟ وأيٌّ أفضل ، اعتزال الناس أم الاختلاط بهم والمعيشة معهم ، ومن هو الذي نصدّه ، ومن هو الذي نركن اليه ؟

فأجابه سيرافيم وقد ترقرقت في ثغره ابتسامة هادئة :

– من ينظر الى مجد الشمس لايناله بزيادة ولا يرميه بنقصان ، هذا أمر لاجدال فيه ياصديقي غريشا .

وكثيراً ما كان يستعصي عليّ فهم مايعنيه سيرافيم برموزه وتعابيره المستعارة ، وفي احدى المرات سألته غاضباً :

– مادام الأمر كما تقول ، فما الغاية من وجود البشر ، وما هم ؟

فابتسم وهز كتفيه وأجاب : البشر ...؟ البشر متباينون متعددون كالنباتات فمن كان منهم أعمى فالشمس نفسها في نظره ظلام ، ومن لم يكن مغتبطاً في داخله بنفسه فهو يعيش مستاء من الله ، هذا والبشر في حد ذاتهم حديثون ، حديثون جداً وهذه الحداثة تحول دون معاملتهم كذوات كبار ، أفهمت ياعزيزي ؟

وكان سيرافيم بعيداً في افكاره وآرائه عن غريشا ، كانا كلاهما على طرفي نقيض ، مع هذا توثقت بينهما عرى الصداقة واخلص الواحد للآخر واطلعه على مكنونات صدره .

وفي أحد الايام اخـــبرني سيرافيم ان غريشا عزم على مغادرة الدير الى اولونيتز وانه سيهرب معه وختم كلماته قائلا : ارافقه مسافة طويلة وبعدما استريح اسبوعاً أعود الى القوقاس . وانت تحسن صنعاً في مرافقتك ايانا يا ماتفي ، فانك في ترحالك تجد سريعاً ماتبحث عنه. اما اقامتك في الدير فـــلا تغنيك فتيلاً .

فرفضت اقتراح سيرافيم وأبيت السفر لأنه لم يكن بوسعي أن أترك الدروس التي كان مارداري يلقنني اياها .

وقد كانت مرارة قلبي شديدة عندما ودعت رفيقي غريشا وسيرافيم .

الفصل الحادي عشر

اوهام وضلالات ..

كان مارداري يقطن في كهف محفور حذاء الكنيسة ، وكان يُستخدم هذا الغار في الايام السالفة مخبأ لاموال الكنيسة ومجوهراتها خوفاً من اللصوص الذين كانوا يرتادون منطقة الدير .

وكان للكهف مدخل سري هو كناية عن نفق بابه واقـــع تحت المذبح تماماً . وكانت المصابيح تنير النفق فيأمن سالكه العثار ، أما الكهف فكان عميقاً ولا بدّ لداخله من الانحدار في سلم تبلغ درجاته اثنتي عشرة .

وكنت عندما انحدر الى الكهف لمقابلة مارداري اشعر بانفعال نفساني شديد وأحس برطوبة فاترة تكتنفني من كل الجهات ، وبعد ان اهتدي بنور المصباح واجتاز النفق ادخل الكهف الذي اختاره مارداري مسكناً له .

اني لاازال اذكر المرة الاولى التي قابلت فيها هذا الراهب التقي ، ركعت امامه صامتاً دون ان انطق ببنت شفة ، وصمت هو ايضاً مدة طويلة ، وكانت تحيط بنا سكينة خرساء اشبه بسكينة الموت فتزيد الموقف خشوعاً وانقباضاً .

وبعد صمت طويل قال لي بصوت لايكاد يسمع : تكلم !

فلم أستطع الى الكلام سبيلًا . ذلك أنه اخذتني الشفقة على هـــذا الكَهل المدفون حياً في اعماق الارض . ولما رآني لاأرد اعاد الكرة وقال : تكلم يابني .

ثم التفت الي فأدرت لحظي في وجهه البالي المظلم وحاولت أن أرى عينيه فلم اتبينهما لولا اني استدللت عليهما بحاجبيه . وتابع الناسك كلماته قائلًا :

– يلوح لي انك تميل الى الجدل، علام تجادل؟ أخدم الله بتخشع وتواضع. ماذا تفيد مناقشتنا لله ؟ فلنحبه ، وهذا كل ماعلينا ان نصنعه .

– غير أني أحبه .

– ينبغي ان تحبه ، واذا عاقبك أو جربك فلا تجفل وردد دائماً « المجد لك يا الله ، المجد لك » . هذا مايجب ان تردد ولا شيء سواه .

ثم سكت عن الكلام ولكنه لم يقل « لماذا » ولا شرح تعليل ما اوجبه علي ، أترى لضعفه ام لأنه نسي طريقة الكلام ؟

كانت عباراته غامضة يصعب فهمها ، ولم يكن بوسعي ان انهال عليه بالاسئلة واعكر صفاء باله واطمئنان نفسه التي كانت بانتظار الموت ، ثم مضى في كلامه فقال :

– صلّ، وانا سأصلي لاجلك.

وسكت ، فانتابتني لهفة وذعر وسرى في عروقي مايشبه البرداء .

وما مرت دقيقة حتى همس : الا تزال هنا ؟ اني لا أري مايدعوالى بقائك فاذهب واترك الجدال جانباً .

فانسللت واجتزت النفق وما كدت انشق الهواء النقي حتى اخذتني هزة الطرب ، وكانت ثيابي قد ترطبت وتبللت كأني خرجت من بئر. انياعجب بارداري كل العجب واتساءل كيف استطاع ان يمكث في هـــذا الكهف

اربع سنوات ؟

قابلت هذا الناسك الزاهد خمس مرات ، بيد اني لم اتمكن ان اصرّح له مرة بما يخالجني واشعر به ، وكنت اذا انحدرت الى الكهف ارهف اذنيه وسألني :

ــ أأنت ، انت الذي جئتني امس ؟

فاجيبه : نعم ، انا نفسي .

فيقول ناصحاً مرشداً هامسا : لاتشك في الله ، ماهي حاجتك ؟ الى قليل من الخبز لا اكثر ولا اقل . ان الشك في الله خطيئة ، الشك في الله دعابة من مداعبات الشيطان ، الا فاعلم يابني ان الابالسة يتذرعون بكل وسائل التجربة التي يسكبونها في قالب اغراء ، اني لا أجهل هذه الامور .

الشياطين مصدر الغواية فلا تلق اليهم بالاً ولا تحفل بما يزينونه من مشاهد التجربة ، والا كنت مسيئاً الى نفسك ، مهيناً لها ، فاحفظ نفسك واياك ان تستسلم للشياطين لئلا تعبث بك .

كان يلفظ هذه العبارات المتقطعة بلهجة هادئة فتقع كلماته كرماد انطفأت نيرانه وبردت ، وما عسى ان تفيدني هذه الارشادات التي لم تكن لتحرك روحي وتوقظ نفسي ؟ وبعد ان استراح قليلاً تابع مواعظه فقال :

ــ اراك صامتاً ! حسن ، ليصنع الآخرون مايحلو لهم ، اما انت فــــلا تقول شيئاً ، ان الذين يأتونني مسترشدين لا ينفكون عن الكلام ، هم يتكلمون كثيراً ولا اذكر مايقولونه ، يتحدثون عن النساء في اغلب الاحيان . ولكن ماذا يهمني تحدثوا ماتحدثوا ، اما انت فتطرق صامتاً لاتنبس ببنت شفة ، وكنت لا أقول لك شيئاً ولا أعظك لولا ان المدير اوصاني بان اعزيك ، فانا اعزيك ولكنني كنت اوثر الصمت ، حفظكم الله جميعاً ، لقد انتزعوا مني كل ما أملكه ، الا الصلاة .

عندما تتعذب روحك وتتألم تظاهر بانك لاتشعر بشيء . الشياطين هي التي تتخبطك كما عذبتني انا . ولا تستغرب فأحد اخوتي ضربني وامرأتي حاولت ان تدس لي السم وتقتلني كما تقتل الجرذان . سرقوا مني كل مالي واتهموني باني اضرمت النار في القرية وشاؤا ان يقذفوا بي في اللهب . آه كم عذبوني ، وكم اضطهدوني ، آه كم تذوقت من ألوان الشقاء وضروب الألم .

ثم ساقوني الى المحكمة فنالني قصاصها القاسي ، ألا غفر الله لهم وسامحهم وعفا عن سيئاتهم ، انا لم أكن مذنباً او مجرماً مع هذا غفرت لهم لأخفف عن نفسي عبئاً ثقيلا . لقد وقعت علي هذه المظالم وقوع الجبال واخنت علي حتى حرمتني التنفس بيد اني تنفست الصعداء عندما غفرت المسيئين الي وسامحتهم ، فشعرت آنئذ اني القيت عن عاتقي ذلك الحمل الثقيل الذي ناء به ظهري .

ولم يكن حظي من البشر بأقل من حظي من الابالسة الذين نصبوا لي النهالك ، ولكني طردتها بالصفح والغفران ، فافعل انت ماصنعته انا واحذ حذوي .

وفي زيارتي الرابعة للناسك سألني قائلا : اجلب لي شيئاً من الخبز لالوثه ، اني مريض والداء يفتك بي . اجلب لي ماآكله واصفح عني باسم يسوع .

ولما سمعت هذا الهذيان قلت في نفسي وقد تفطر شفقة على هذا الشقي ، علام هذه الآلام علام ؟ وتابع مارداري كلماته واخذ يهذي هذيان محموم فقال :

– أشعر بوجع اليم في جسمي كله ليلا ونهاراً ، فاذا اكلت الخبز تحسنت حالتي وخفت آلامي الشديدة التي كثيراً ماتمنعني عن الصلاة ، مع ان الواجب يقضي علي ان اصلي بلا انقطاع ، حتى في نومي واحلامي ، والا تجرد لي الشيطان واذكرني اسمي وحياتي الماضية وكل مااريد نسيانه .

انظر الى الشيطان ، هاهو جالس فوق الموقد . ألا تراه ؟ انه لا يعبأ بالنار المضطرمة فقد اعتادها ، ارسم الصليب لاطرده من امامي فلا يلبث ان يعود ويضايقني ، فتارة يثب على الجدران واخرى يتدلى من السقف ، وطوراً يحوم فوق رأسي ، وقد اعتدت ان احتمله ، فلا تضيرني رؤيته ، بيداني لاأنفك عن التعويذ بالله وكثيراً ما الاطفه واقول له (اذهب عني ولا تثقل علي) فيختفي ثم يظهر ويذكر اسمي ، هم يدعونني ميخائيل بتروف فياخيريف .

وبعد أن اطرق وصمت رفع رأسه وادار لحظه وهمس خائفاً مذعوراً : ها قد عاد الشيطان الى اقلاقي ، ماذا تريد مني ؟

ثم التفت الي وقال : وانت يابني اذهب ، اذهب بسلام !

وفي هذا اليوم بكيت غيظاً وحنقاً ، ماهي فائدةهذا الشيخ البالي الخرف؟ وأي جمال في تقواه وورعه ؟ اي جمال في زهده وتنسكه وتعذيب جسده؟ أي مظهر من مظاهر السمو الروحاني، من مظاهر الالوهية ، في حياة هذا البائس التاعس الذي ينام على سرير الآلام دون ماجدوى للبشر وللدين ولله ؟

وفي اليوم التالي ملأت جيبي بالخبز الطري وقد طفح قلبي مرارة وحقداً على البشر ، ولما قدمت الخبز لمـــارداري صرخ مبتهجاً : آه ما أحسنه ، انه لايزال سخيناً .

ثم تحرك فوق سريره فأنت قضبانه الخشبية من تحته وبعدما خبأ الخبز عاد الى التغزل به قائلاً : آه ما أحسنه . انه سخن طري .

ولا غرابة في ابتهـاجه بمـا جلبته له من الخبز لان الرهبان كانوا يطعمونه اربع مرات فيالاسبوع فقط ، ولذلك كان يبيت على الطوى، فهل من ينكر عليه ان يهش ويبش لما يسد به رمقه ؟

كانت هذه آخر مرة قابلته فيها ، لم يوجه الي كلمة واحدة بل عكف على

الخبز فملأ فمه واخذ يلوثه ويلوكه ويستعين على مضغه بلثته لانه كان ادرد .

وبعدما مضت بضع دقائق قلت له : سامحني ايهـــا الاب مارداري باسم يسوع . اني ذاهب ولن اعود فاقبل شكري وثنائي .

فوقف عن المضغ واجاب : انت الذي تستحق الشكر والثناء لا أنا .

ولكن قبل ان تنصرف اصغ الي ، ارجو ان لاتطلع احداً من الرهبان على امر الخبز الذي جلبته لي والا انتزعوه مني لأنهم حسدة ، ان الابالسة يعرفونهم ، كما يعرفون كل شيء ...

وبعد بضعة ايام مرض مارداري واشتدت عليه وطأة الداء فمات ، وقد اقيم له مأتم حافل جليـل اشترك فيه اكابر رجال الاكليروس . وقد جاؤا من المدينة خصوصاً للصلاة على جثمانه باعتبار انه رجل تقي بار .

وقد قصوا علي بعدئذ انه كان ينبعث من قبر مارداري الكهل الخرف والبائس الشقي ، نوروهاج غير طبيعي ، وكان النور يفيض من ضريحه كل ليلة .

فيا للعار ويا للخجل ! ما أسخف عقول البشر ، وما احط مدارك الشعب وما اقبح الاتجار بالموتى تحت ستار الدين !

* * *

الفصل الثاني عشر

صدمات وجراح في الروح

طرأ علي حادث جنح بي الى حيث لم احب فتغير مجرى حياتي .

دخلت ذات يوم الى الهري (البيت الذي يجمع فيه القمح وسواه)فرأيت ميخا مستلقياً على ظهره فوق الاكياس مستسلماً لشهوته الجسدية ولذته المنفردة، فأجفلت وصعقت وجمد الدم في عروقي .

ذكرت المطاعن التي كان يوجهها هذا (الرجل العفيف) الى النساء ، واستعدت الى خاطري ماكان يرميهن به من الفواحش والسوءات وكيف وصفهن بالفجور والخبث . فقلت في نفسي :

أهذه هي عفة الرهبان ، يرمون المرأة بكل سؤاء وعوراء ولا يخجلون ان يرتموا في احضان الخطيئة المستترة واللذة البهيمية الفردية ؟

بصقت على الارض وخرجت مسرعاً الى الفرن وقد احمر وجهي خجلاً مما رأيت وتفطر قلبي حزناً ومرارة على ما نظرت .

ولم يلبث ميخا ان تبعني ثم ارتمى على قدمي وتوسل الي ان اكتم امره قائلاً :

ـ وانت ايضاً يتخبطك شيطان الخطيئة ويثير شهوتك في خلال الليل . لاتنكر ، أنا أعلم ان سلطة ابليس عظيمة . . .

فاستغربت وقاحته ورددت عليه متهوراً مشمئزاً :

ـ كذبت يا اثيم ، إهوِ الى أعماقِ الجحيم أيها الكلب الملعون .

وانهلت عليه بالشتائم والسباب ولم يكن بوسعي ان اعف عنه ، بل كيف اسكت عنه وهو لم يعف عن النساء ولا نزّه نفسه عن الطعن فيهنّ زوراً وبهتاناً .

ولم يفتر ميخا عن التوسل الي وهو جاث على رجليه يسترحمني ويتضرع اليّ ان اسكت ، فرحمته وقلت موبخاً : ايها اللئيم ، اني سأكتم عن الناس خبر أعمالك الشائنة التي تعود عليك وعلى الدير بالخزي والعار ، فأنا اسمى من ان افضح مساويء الآخرين او انتقم منهم بل استر عليهم ، غير اني لا اريد من الآن فصاعداً ان اشتغل معك في الفرن فاطلب الى الرئيس ان يسند اليّ عملاً آخر .

وقد الححت عليه ، فلم يسعه الا اجابة طلبي .

وكنت حتى هذا الوقت اهتم بالآخرين ، ولا اكاد انظر الرهبان . لم تكن لي الاّ رغبة واحدة وهي ان اتحرر من نفسي .

ثم مرض ميخا فأرسل الى المصح للمعالجة وهكذا اصبحت مدير العمل في الفرن . وعين لي الرئيس مساعدين اثنين . وبعد ثلاثة اسابيع دعاني قيم الدير وقال لي ان ميخا برىء من مرضه بيد انه لايجب ان يعود الى الشغل معي في الفرن وذلك لأني عنيد ، فيجب عليّ اذن ان اقطع الحطب في الغابة ، وهذا الشغل الجديد الذي اسند اليّ انما هو بمثابة قصاص لي .

فاستغربت هذا العمل وسألت القيم : وبماذا اسأت ؟ ماهو الذنب

الذي اقترفته ؟

وفي هذه اللحظة برز الراهب الجميل الطلعة واسمه انتوني فانزوي تواضعاً وانصت الى الحديث .

فأجابني القيم : انك لاتزال شرس الطبـاع فضلاً عن انك تسيء الظن بالرهبنة. ان هذه العيوب لاتغتفر لمن كان في سنك فلذلك يجب اصلاحها .

وكان الرئيس الأعلى قد اندفع بنبالة خلقه الى الرأفة بك فأوصي باسناد عمل من اعمال المكتب اليك فما كان منك الا انك سلكت مسلك الضالين . . .

وقد اكثر القيم من الكلام والوعظ والارشاد ، ولكن لهجته الفاترة دلتني على انه مدفوع الى النطق بهذه الخطبة الطويلة الجافة .

كان الاب انتوني يرسل اليّ نظرات غـــامضة مبهمة وعلى ثغرة ابتسامة التهكم والازدراء ، فأردت ان اقدم اليه مثالاً على جرأتي وحرية طباعي وقلت لقيم الدير :

ــ لااحب ان ارتفع ، ولكنني لا اقبل الضعة والذل ، فاعلم هذا جيداً . انا لم اذنب فاستحق القصـــاص الذي فرضتموه عليّ . اني اطلب العدل واسألكـــم الانصاف. فانفعل قيم الدير واستاء من صراحتي وضرب المائدة بعصاه وصرخ غاضباً :

ــ اسكت ايها الوقح !

فمال عليه الأب انتوني وهمس في اذنه ، فرد عليه القيّم قائلاً :

ــ ان ماتطلبه مستحيل ، يجب عليـه قبول القصاص دون تأفف أو اعتراض. فهز انتوني كتفيه والتفت اليّ ونصح لي بصوت ندي عذب ان اطيع.

وقد ادركت انئذ انه كان الى جانبي يدافع عني ، وان نظراتـــه وابتسامته لم تكن الا لتطيب خاطري وشعوري . وبعد ان حييت انتوني

وانحنيت محيياً القيم بخشوع سألته : ومتى اتوجه الى الغابات لتقطيع الحطب ؟

فأجابني : في غضون ثلاثة أيام. ولذلك سنقضي الوقت في المحبس .

لو لم يكن انتوني حاضراً لهجمت على قيم الدير ومزقتـــه بأظافري وأسناني . ولكني صبرت وسكت وضبطت جماح نفسي الثائرة اكراماً لهذا الراهب الذي غار عليّ وأدار فيّ بصراً ملوءه الأمل والاطمئنان .

كان المحبس الذي قادوني اليه كناية عن قبو ضيق محفور تحت ارض المكتب .

كان هذا القبو كالقبر لايتسع لاكثر من رجل اذا استطاع الوقوف على رجليه فلا يستطيع الاستلقاء على ظهره ، بل الجلوس فوق الهشيم . كان السكون مخيماً فيه تخييمه في القبور . حتى الفيران لم يكن لها اثر هناك .

اما الظلام فكان حالكاً الى درجة لم اعرفها قبلاً ، كانت يداي تختفيان فيه فلو وضعتها امام انفي لما استطعت رؤيتها . جلست جامداً كأنني جثة بلا روح وشعرت اني ثقيل بارد كجلمود ثلج، وانتابتني افكار كثيرة تدفقت في خاطري تدفق السيل فصرفت بأسناني كأني احاول ان اصدها وأحسست كأن عاصفة هوجاء تثور في صدري المثقل باليأس والحنق فرفعت قلبي الى الله وناجيته قائلاً :

انت يارب مـاذا جرى بعدالتك ، اين انصافك يالله ؟ اليس القساة هم الذين يتخذون عدلك وسيلة لبلوغ مآربهم ؟ اليس الاقوياء هم الذين يتوسلون بعدلك ليؤيدوا سلطتهم ، من انا في عينيك يارب ؟ افريسة القسوة ام المدافع عن صلاحك وعدالتك ؟

ثم شرعت استعرض حياة الدير فرأيتها مرّة فظيعة ملؤها الرياء . لمـــاذا يقولون رهبان الله ؟ وما هي ميزتهم على العلمانيين ، وهل هم اقدس منهم نفساً

وجسداً ؟ لقد عرفت حياة الفلاحين الشاقة ، فرائس الجوع والفاقة ، هؤلاء كانوا لا يعرفون الله فيسكرون ويسرقون ويتخاصمون ويرتمون في احضان الخطايا على اختلافها . وهم ربما كانوا معذورين لانهم يجهلون مناهج الله السوية ، ولم يكن لهم طاقة او وقت للسير وراء الحقيقة . لقد كانوا مقيدين بحراثة أراضيهم مسجونين في بيوتهم بأصفاد قوية هي الفاقة ، فماذا يؤمل منهم بعد هذا ، وما ينتظر من هذه الطبقة البائسة ؟

بيدَ ان الحياة في الدير مختلفة كل الاختلاف عن حياة الفلاحين الاشقياء ، فالراهب له متسع من الوقت لمطالعة الكتب المرشدة والانتهال من معين المعارف ومناجاة الله ، له حريته ، ولكن من هم الرهبان الذين يخدمون الله خدمة صالحة منزهة . اني لا أعرف منهم غير الضعفاء والمظلومين مثل غريشا ، اما الآخرون فالله في عرفهم ليس الا ينبوع كذب لا ينضب ماؤه ، ليس الا حامياً لخطاياهم وترساً يردُّ عنهم سيوف الحق .

اعدت الى الذاكرة حقد الرهبان على النساء ، ومجاهرتهم بالطعن فيهنَّ ، مع ان اجسادهم اقذر من العجماوات بل ان الحيوانات انقى جسماً من هؤلاء الرهبان المرائين، ثم ذكرت كسلهم وجشعهم ونهمهم ، ومناقشتهم في اقتسام هدايا الكنيسة التي كانوا يحومون حولها كما تحوم الغربان فوق الجثث والاشلاء .

قال لي غريشا ذات مرة ان الفلاحين كلما اجتهدوا في اعمالهم للدير تضاعف ماعليهم من الديون وساءت حالتهم ، قلت في نفسي : هاقد مرَّ علي وقت طويل قضيته بالاعمال الشاقه لتكون صدقتي عند الله ، فماذا جنيت ؟ وماذا كسبت نفسي من وراء صدقاتي غير اللطمات والخدوش ؟

بل ماالذي استطعت ان اجنيه لعقلي ، وماذا تعلمت غير سلسلة طويلة من المساويء والجرائم التي تشمئز منها النفوس، ماذا اقتبست غير كره البشر ومقتهم؟

كان السكون شديداً كالظلام ، ورنين الاجراس لا يصل الى مسامعي . ولم ادرِ كيف اقيس الوقت وأنا في الظلمة الموحشة ، فلا ليل عندي ولا نهار، من ذا الذي يحق له ان ينتزع نور الشمس من رجل نظيره ؟

ها قد بدأ ايماني بعدل الله وقدرته يضعف شيئاً فشيئاً . آه ، ما احب الايمان الى القلوب البشرية ، وما انتساخه واقتلاعه منها !

وفيما كنت اتسكع في ظلمة الشك اذ برز امامي الأب انتوني فملأ وجهه المشرق بصري وفكري ضياء . وكان بحياه الجميل كالنجمة المتلألئة التي تشرق في الليالي المدلهمة فحامت حوله عواطفي وأفكاري كما تحوم الفراشة حول النور ، فحادثته وقصصت عليـــه آلامي وبسطت له مرارة نفسي وبحت بأسراري ومكنونات صدري فرأيت نور الحنان يتدفق من عينيـه الساجيتين فينير ظلمة قلبي .

قضيت في هذا المحبس ثلاثة ايام حسبتها ثلاثة اعوام وتذوقت في خلالها طعم الموت . ولمـــا خرجت كنت كليل البصر محدودب الظهر مرتخي الاعصاب. فكان منظري مدعاة الى تهكم الرهبان وسخريتهم اذ كانوا يقولون لي : نعيماً نعيماً ! هنيئاً لك بالحمّام !

وعند الاصيل دعاني الرئيس الاعلى الى المثول بحضرته فأمرني بالركوع امامـــه ثم اخذ يعظني بعنف وشدة وختم وعظه قائلاً : اني اهشم اسنان الخطاة وأقصم ظهورهم !

فلم ارد عليه بكلمة واحدة . وكان انتوني حاضراً يسمع ساكتاً غير ان نظراته التي تفيض عطفاً وحنانا ألجمت لساني وملأت قلبي املاً وبهجة .

وفيما كنت انتظر ان يأمرني الرئيس بالانصراف اذا به غيّر لهجته فجأة وانتقل الى الثناء عليّ قائلاً :

ـ ان الجميع يحبونك ايها الغبي . والجميع يعترفون لك باجتهادك وغيرتك على عملك . والجميع يقدرون ذكاءك . وقد عزمت ان أرقيك مكافأة لك فاختر واحداً من اثنين ، اما العمل في مكتب الدير او الالتحاق بالاب انتوني كأخ علماني .

فكدت لا اصدق ماسمعته اذناي وأجبته والسرور يملك مشاعري :

ـ اوثر الالتحاق بالأب انتوني .

فقطب الرئيس وعبس وأجاب : اذا اخترت العمل في ادارة الدير فأنا اعفيك من تقطيع الحطب . اما اذا شئت ان تكون اخا علمانياً فأنا اضاعف لك القصاص . فأجبته : لابأس ، اني اوثر ان اكون اخاً علمانياً .

فسألني بلهجة جافة : ولكن ماالسبب ايها الغبي ؟ ماالذي يدعوك الى ايثار الرهبنة العلمانية على العمل في المكتب ؟ ألا تدري ان ادارة الدير اشرف وأسهل ؟

فأصررت على طلبي الاول ولما رأى اني لن اتحول عن عزمي اخذ يتأملني ويدير فيّ نظراته ثم قال :

ـ حسن ، ليكن ماتشاء ، ولكن حقاً انك رجل غريب . من يعلم ماهي افكارك ؟ انصرف بسلام .

ثم ذهبت الى الغابة وكان ذلك في نيسان قبل انقضاء البرد .

كان الشغل شاقاً قاسيا لأن الغابة قديمة العهد وجذور اشجارها قوية ممتدة في جوف الارض والاغصان ضخمة صلبة .

فكنت احفر اولاً حول الشجرة ثم اقتلع جذورها المدفونة في اعماق التراب وبعدئذ اعمد الى فرس مسرج اشد اليه حبلاً قوياً اربطه بالشجرة ثم اضرب الفرس فيعدو بعنف ولا أزال كذلك الى ان تسقط الدوحة . وهكذا

لا ينتصف النهار حتى يأخذ مني العياء مأخذه ويكل الفرس ويتفصد عرقـــاً وزبداً ، ثم يرفع نظره الي كأنه يقول: اشفق علي ياصديقي ، فلا طاقـــة لي بمتابعة هذا العمل الشاق !

فأدنو منه واعانقه قائلاً : هذا ماأراه يارفيقي .

ثم اعود الى حفر الارض واقتلاع الجذور فلا ينقطع الفرس عن ارسال نظراته المعنوية الدالة على مايخالجه من الشعور بعيائي وتعبي .

انه ارحم من البشر وأذكى منهم . انه يقدر عملي الشاق قدره ويشاركني في شعوري وحسي وهذا شيء لم ار مثله حتى من رئيس الدير .

وجرت في هذه الاثناء حادثة مؤلمة اسفرت عن نتائج وخيمة . حاولت جهدي ان اتلافى الشر قبل وقوعه فلم استطع ، وذلك انني بعدما تناولت الغذاء وعدت الى الغابة اذا بميخا يجري ورائي وهو يصخب ويشتم هائجاً ثائراً عاوياً كالذئب وفي يده هراوة غليظة .

فلما رأيته بهذه الحالة وقفت انتظره فما ان اقترب مني حتى بادرني بضربة من هراوته دون ان ينطق بكلمة فملت عنها برشاقة وادركته بركلـــة قوية اصابته في بطنــــه فسقط على الارض ، ثم هجمت عليه وانتزعت الهراوة من يده وسألته :

– ما الذي حملك على مهاجمتي ? بماذا اسأت اليك ?

فأنَّ متوجعاً وأجاب: اخرج من الدير ! انطلق الى منسك آخر !

– وما السبب ? قل ما السبب ?

– اني لا استطيع ان اراك امامي ، فاخرج والا قتلتك .

كانت عيناه حمراوين فبدت الدموع التي انهمرت منهما كأنها دماء مستقطرة من قلبه . وكان الزبد يملأ فمه وشفتيه كأنه مصاب بنزيف دم .

وقد حاول ان يقبض علي ويرميني تحته فمزق ردائي وخدش جسمي وعضني بيدي وجهد نفسه ليتملص مني فلم يستطع، وظللت فوقه قابضاً على يديه منيخاً على صدره . ثم عدت فسألته :

– كيف يجوز لك وقد انخرطت في سلك الرهبنة وانكرت نفسك في سبيل الله والقريب ، وكيف يحق لك وانت المرتدي الثوب الديني ان تحقد علي وتغدر بي ، كيف يحق لمن كان مثلك ان تملأ الضغينة صدره ? فما هو السبب ?

فأن وصرخ متألماً ، فأشفقت عليه وامسكت عنه ، وبعد ان استراح قليلاً عاد الى نغمته السابقة وقال : اذهب واترك الدير ،لاترم نفسي في وادي الضلال!

فلم افهم مايعنيه ولكني بعدما اعملت فكرتي ادركت مايرمي اليه فسألته همساً :

– أتظن اني فضحت امرك واعلنت خبرك ? انك مخطىء ياميخا ، فأنا اقسم لك اني لم ابح لأحد بكلمة .

فنهض وهو يرتجف ويهتز ثم التف حول شجرة وشرع يرميني بنظرات وحشية واجاب : كنت أوثر ان تنشر قصتي على العالم كله ، فما كنت لاتألم كما اتعذب الآن. لو اعترفت بخطيئتي السرية لنلت الغفران، ولكن ماذاأرجو منك ايها الجاحد المتكبر ?

اختف من امامي قبل ان ارتكب جريمة مميتة ، توار عن بصري والا قتلتك !

فرددت عليه قائلاً : اذا شئت فتوار انت ، ألا فاعلم انني لن اغادر الدير ، لن اتركه .

فما كان من هذا الشيطان الا انه هجم عليّ فقابلته برباطة جأش وابتدأ

العراك بيننا فكان تارة يسقط تحتي وتارة اسقط تحته الى ان اعيا وكانت قواه فاستسلم صاغراً .

فنهضت عنه وتركته ملقى على التراب يبكي كالاطفال من شدة الحنق .

وقبل ان انصرف عنه قلت له : اصغ ياميخا ، اني سأترك الدير بعد مدة، أما الآن فلا ، ولا تظن اني ابقى نكاية فيك وقهراً لك ، كلا بل امكث في الدير لاني محتاج الى البقاء .

فأصابه مايشبه النوبة العصبية واجاب وهو يحرق الارم :

— امض الى الجحيم ! اذهب الى الشيطان فهو ابوك !

ثم غادرته معفراً بالتراب وعدت الى عملي ، وعلمت بعد ايام انهم نقلوه الى المدينة للاقامة في ملجأ الدير ، وهكذا تخلص واحدنا من الآخر .

oooooooooooooo

الفصل الثالث عشر

المرأة لغز الحياة

بعدما انتهت المدة المعينة لي للاحتطاب في الحرجة ، مثلت أمام انتوني معلمي الجديد ، لابساً ثوباً جديداً .

اني اذكر الايام التي قضيتها في رفقة انتوني واذكر كل ماجري فيها من الامور الدقيقة حتى السخيفة فكأن ذكرى تلك الايام انطبعت في صدري بحروف من نار .

فتح لي انتوني ابواب منزله فطفنا في غرفه ومخادعه واروقته ، وبعد ان اعطاني التعليمات اللازمة وشرح لي مهمتي عنده ، أدخلني الى احد الابهاء وكانت فيه مكتبة كبيرة تضم مؤلفات دينية وعلمانية ، فادار بصره في المكتبة وقال لي :

- هنا معبدي ، هنا المصلّى !

وكان هذا البهو جامعاً لكل اسباب الراحة ففيه النجد النفيس والرياش الوثير وسائر ضروب الرخاء والترف .

وكان الى جانب البهو مخدع مفروش بالاثاث الانيق خصصة انتوني لينام

فيه، وقد ادهشني ما رأيته فيه من جمال الرياش وادوات الزينة والمرائي وسواها.

وكانت احدى الغرف مخصصة لادخار المؤونة والاقوات من مأكولات ومشروبات مختلفة الاشكال والالوان، فضلا عن ادوات الطعام والفناجين والكؤوس وما اليها.

وبعد ان انتهى تطوافنا في المنزل دعاني انتوني الى المكتبة وقال لي:

– اجلس، انك ولا شك عرفت كيف اعيش. ليس في معيشتي شيء من التقشف والزهد، خلافا للحياة الرهبنية، أليس كذلك؟

– نعم، هو ما تقول فانني لا أرى شيئاً ينطبق على الاصول المرعية.

– وأنت الذي لاتترك أمراً دون ان تنتقده، ألعلك تسدد اليّ سهامك؟

ثم ابتسم شامخاً بانفه كمن يرى الناس دونه.

اني، والحق اقول، احب انتوني واعجب بنبالة خلقه وطيب شعوره ولكن ابتسامته المعنوية تركت في نفسي أشياء كثيرة فما عتمت ان اجبته:

– لا أدري أأنتقدك أم لا! وعلى كل الاحوال فكل ما ارجوه هو ان افهم اراءك وأفكارك وتعاليمك وأدرك مرماك في حياتك.

فامتعضت عندما رأيته يعيد ابتسامته السابقة وخصوصاً عندما سألني:

– يلوح لي انك لست ابناً شرعياً.

– اني اجهل امي ايضاً.

– ويبدو لي انه يجري في عروقك الدم الازرق؟

فأجبته مستغرباً: وماذا تعني بهذا؟ ماهو الدم الازرق؟

فرد عليّ بلهجة رصينة كأنه يزن كل كلمة من كلماته وقال:

– الدم الازرق مادة تنشأ منها الارواح المتعجرفة.

كان انتوني جالساً على مقعد وثير بالقرب من النافذة تغمره اشعة الشمس

الذهبية وتزويده اشراقاً في اشراق .

وما كادت عبارته تنتهي الى مسامعي حتى لمعت في خاطري فكرة أدمت قلبي واثقلت لبي ، فاهتززت كالقصبة المرضوضة تحركها الرياح ونهضت من مكاني بعنف وحددت بصري في الراهب متأملاً مفكراً باحثاً .

ووقف انتوني أيضاً وتناول سكيناً كان على الخوان وسألني : مابك ؟ ماذا اصابك ؟

فأجبته سائلاً : ألست أنت أبي .

فكلح وعبس وأجاب بلهجة فاترة ونظرات تائهة :

– اني اشك في الامر . قل لي أين ولدت ؟ ومتى ؟ وما هي سنك ؟ ومن هي امك ؟

وبعد ماقصصت عليـــه قصتي ورويت له حكاية مولدي ضحك ورمى السكين على الخوان قائلاً : اني في ذلك الوقت كنت بعيداً عن المكان الذي وُلدت فيه ، ولذلك أستبعد كثيراً أن تكون ابني ...

فشعرت آنئذ بحيرة وخجل وخيل اليّ كأني مستعطٍ انكرت عليه الصدقة .

– مع هذا لنفرض اني ابوك . فأي شأن لهذا الامر ؟

– لاشأن له البتة ، وسواء لديَّ أكنت أبي أم لم تكنه .

– حسن ، أرانا متفقين ، فلنعش كلانا أنا وأنت في مكان لا آباء فيه ولا أبناء بالمعنى الجسدي . بل اخوة بالمعنى الروحي . نحن في هذا العالم لسنا الا كائنات مهملة منبوذة ، وبالتالي اخوة في الشقاء وهو مايدعونه « الحياة » انما الانسان عارض على وجه الارض ، انما البشر طارئة فاعلم هذا ! .

وقد دلتني نظراته على انه مستاء مني غاضب عليَّ فأردت أن اجلو ماعلق

بذهنه الابهام عندما سألته عن كونـــه أبي دون أن أعلم مالذي حملني على الاستفهام فقلت له : لماذا تناولت السكين عندما وجهت اليك السؤال ؟

فحدّق اليّ مبتسماً واجـــاب : يالك من سائل جريء ! أمسكت السكين وانتهى الامر . انا نفسي لاادري ، اني احب هذه السكين . الا تراها جميلة ؟ ثم انتهى الامر ...

وناولني اياها فشرعت اقلبها بيدي واتأملها وكانت حدباء النصل ماضية . اما نصابها فكان من الفضة وقد رصع بحجر كريم احمر . وشرح لي امرهـــا فقال : هذا خنجر عربي استخدمه لفض الاوراق في النهار ، وفي الليل أدسه تحت وسادتي . يقـــولون اني غني ، وبما ان الذين يحيطون بي فقراء ، ومسكني منفرد فلا غنى لي عن رفيق اتسلح به .

وكان الهو قد افعم بالطيب المتضوّع من الخنجر ومن يدي انتوني العبقتين فسطعتني رائحته الحادة وملأت خياشيمي ورأسي . وتابـــع كلامه قائلاً : لنمضِ في حـــديثنا . انعلم ان احدى النساء اعتادت ان تأتي الى هذا المنزل ؟

ــ نعم، هذا ماسمعت .

ــ ولا تحسب انها شقيقة لي ، يجب ان انبهك ، انما هي خليلتي .

فسألته : وما معنى هذا الكلام ، لماذا تفاتحني بأمر كهذا ؟

ــ انما ذكرت لك أمر المرأة لئلا تدهش ، ولكي لاتسألني فيما بعد عنها . أفهمت ؟ والآن قل، اتحب مطالعة الكتب العلمانية ؟

ــ اني لم اقرأ مؤلفاً غير ديني .

فمد يده الى المكتبة وتناول كتاباً صغيراً وقدمه لي قائلاً :

ــ خذ وطالع هذا الكتاب ولا تنس تحضير الشاي .

فتحت الكتاب فوقع بصري في الصفحة الاولى على رسم امرأة عارية حتى معقد الازرار وامامها رجل يتجرد من ثيابه . فادركت آنئذ ماينطوي عليه هذا الكتيِّب ورددته قائلا : لااريد ان اقرأ مؤلفاً كهذا !

فحدق اليَّ واجابني بلهجة جافية : اذا امرك رئيسك الروحي ان تطالعه فطالعه ، انت لاتدري لماذا قدمته لك ولا تعلم غايتي ، فخذه وانصرف .

فلم يسعني الا ان اعمل برغبته فانسللت الى غرفتي وجلست على السرير حزيناً خائفاً واحسست كأن سماً زعافاً يجري مع دمي في عروقي فكنت ارتجف كأن قواي تلاشت وخانني رشدي فلم اعرف ماذا أصنع وكيف افكر . حاولت ان افسر الفكرة التي دفعتني الى سؤاله عن كونه ابي فلم استطع . ان سؤالي لم يكن صادراً عن عقلي . وذكرت قوله لي « الروح تتألف من الدم ، والانسان عارض على وجه الارض وانما البشر طارئة » فما رأيت من هذه الكلمات الا الالحاد والهرطقة . ثم اعدت الى الذاكرة موقفه العدائي عندما القيت عليه سؤالي ، فهالني ذاك المظهر الغريب .

افي اقل من ساعة تصادمني هذه المفاجئات العنيفة وتتركني مشلول الفكر . افكرة صغيرة تلوح في خاطر المرء فتقذف به الى الهوة السحيقة او ترفعه الى اوج الهناء ؟

عمدت الى الكتاب وطالعت بعض صفحاته فرأيته يدور حول رجل افرنسي وبعض سيدات ، اي قصة خلاعية سخيفة بذيئة العبارة طرآنية الكلام .

ماذا يهمني هذا الافرنسي وخليلاته ؟ ماذا يعنيني امرهم ؟

وبعد قليل ناداني انتوني فلبيت النداء ، ولما رآني هش لي وبش ثم قال :

ـ اين ابريق الشاي ؟

فأجبته سائلاً : لماذا اعطيتني هذا الكتاب ؟

ـ انما اعطيتك اياه لتدرك معنى الخطيئة وتقف على امرها .

فارتاحت نفسي الى جوابه ولاح لي انني اصبت الهدف الذي يرمي اليه ، انه يريد ان يجربني ويمتحنني . ثم خرجت ، وبعدما اعددت ابريق الشاي قدمته له ولما كنت على اهبة الانصراف اذا به يقول :

ـ لا تذهب تناول الشاي معي .

فشكرت له لطفه واغتنمت هذه الفرصة لأحادثه وأقف على آرائه وتعاليمه .

وما ان جلست امامه حتى سألني : قصّ علي ماضي حياتك . ماالذي حملك على الانخراط في سلك الرهبنة ؟

فأطلعته على تاريخ حياتي بالتفصيل دون ان اكتم عنه امراً مهما يكن شأنه .

وكان انتوني يصغي اليّ بانتباه شديد حتى انه غفل عن الشاي .

وتابعت حديثي وقد حددت نظري في يدي انتوني البيضاوين الى ان اتيت على اخره ، فملأ لي كاساً من النبيذ المعتق وقال :

ـ اشرب ، عجبتك عيني منذ رأيتك في الكنيسة تصلي الى الله بصوت مرتفع . والآن الا ترى انك خففت عن عاتقك كثيراً من اثقال الحياة في الدير !

ـ كلاّ ، ان ما احمله في قلبي وفكري ينوء به رجل مثلي . فتشت عمن يزحزح عن صدري ذلك الجاثوم الخانق فلم اهتدِ ، بيد اني ارجو ان تكون انت الرجل الذي ابحث عنه فساعدني . ساعدني ، انك ثقيف عالم لا تجهل شيئاً ، فعليك اذن قصد السبيل .

فأجابني بصوت منخفض دون ان يوجه الي نظرة :

- اني اعرف امرأ واحداً فقط . من يتوقل في الجبال يجب عليه ان يصل الى قمتها ، ومن يسقط يجب ان ينحدر الى قعر الهوة . بيـــد انني انا نفسي لااجري على هذه القاعدة لأني كسل متوانٍ .

الحياة جميلة يا ماتفي والعالم فنان غاو . انه حافل باللذات طافح بأسباب المسرات والمفاتن الممنوحة للبشر . مع هذا فالانسان لايعد شيئاً ، ولا قيمة له .

كل مافي الحياة من جمال ولذة موقوف على البشر ، ولكن البشر لاوزن لهم ولا قيمة . ولماذا لا يُعد الانسان شيئاً ؟ هذه مسألة لم استطع حلها بعد . بل اني لااريد ان افكر فيها .

ثم دق جرس صلاة الغروب فارتعش وقال :

- اذهب بسلام ، اني تعب واود الذهاب الى الكنيسة .

لو كان في رأسي ذرة من العقل لوجب علي ان اغادر انتوني في هذا اليوم نفسه اذن لحفظت له في قلبي اجمل ذكرى ، بيداني لم افقه معنى عباراته ولم ادرك مرماها فبقيت الى جانبه .

عدت الى غرفتي واستلقيت ، وكنت قد تركت الكتيب الخلاعي على السرير فأوقدت شمعة واخذت اطالعه اعترافا بجميل معلمي ومرشدي انتوني .

تدور القصة حول رجل استخف بالأزواج فكان يتسلق ليلًا نوافذ النساء ويدخل مخادعهن خلسة ويرتمي في احضانهن مرخيا لشهواته العنان . وكثيراً ماكان يقع في قبضة رجالهن فيثور ثائرهم ويهمون بتأديبه ولكنه لايلبث ان ينجو منهم بحيلة مدهشة . وبعد ان طالعت الكتيب ووقفت على مضمونه لم يخطر لي ان اسائل نفسي فأقول : ماهي فائدة هذا الكتاب الذي يدور حول موضوع سخيف تافه لا عبرة فيه ولا مغزى : ولماذ يجب علي ان اقرأ كلاماً

طرآنياً بذيئاً ؟

رميت الكتيّب وانتقلت منه الى موضوع آخر وبعدما اعملت الفكرة قلت في نفسي : ماهو السبب الذي حملني على ان اشتبه في ان انتوني ابي ؟ من اين نشأت هذه الفكرة ؟

ولما اعياني الامر واستعصى عليَّ حل اللغز ، استسلمت لسلطان الكرى فنمت نوماً عميقاً ، وعند الفجر جاء انتوني يهزني بعنف قائلًا :

– انهض ، انهض الم تسمع رنين الجرس ؟

ففتحت عيني واعتذرت قائلًا : اصفح عني باسم يسوع ، لقد اخذ مني العياء مأخذه فنمت نوماً عميقاً.

– غفر لك الله ، اني ذاهب لمقابلة الرئيس الأعلى ، فقم في غيابي بالأعمال اللازمة طبقاً لأمري واياك ان تهمل شيئاً .

ثم القى نظرة فرأى الكتيِّب وابتدرني :

– اطالعته ؟ اني آسف كل الاسف وكنت اود ان لاتطالعه ، انت على حق في شكواك ، فليس هذا بالكتاب الذي يفيدك ، انك تحتاج الى سواه .

ثم جرج وتركني مدهوشـاً . اني احار في امر هـــذا الرجل الذي لايثبت على رأي ، واستغرب كيف انه امرني بمطالعة الكتاب فلما قرأتـــه عملًا بارادته ندم وتأسف ، فما معنى هذا ؟

ذهبت الى مخدع انتوني فرتبت السرير واصلحته ، وقد تسنى لي آنئذ ان الحظ اشياء كثيرة لم اعتدها ، فالفراش كان وثيراً ناعماً غالي الثمن ، والاحرام واللحاف مثله مما يدل على سعة وترف .

وكان يتضوع من السرير طيب شذي ذكي العرف ، كأنه فضَّ فيـــه لطيمة المسك ، اهذا تقشف الرهبان وزهدهم ؟

مرت الايام سراعاً كأنها حلم جميل ينتقل بي بين السحائب . كنت لا ارى امامي الا انتوني ، كان لا يقع بصري على شيء سواه .

كان صوت انتوني حنوناً رقيقاً غير ان عينيـــه كانتا تقطران تهكماً وسخرية. وقد نذر ان يلفظ اسم الله في احاديثه ، فاذا شاء ان يقول (الله) وضع كلمة (الروح) مكانـه وبدلاً من ان يقول (الشيطان) يقول (الطبيعـة) ولكني لم اعبأ بهذا الابدال ، لان الالفاظ المستعارة لا تغير الافكار .

وكان يضحك ملأ شدقيه من الرهبان ويتهكم عليهم ، ويسخر بالطقوس الدينية ويزدريها . كان يحب الخمرة ولكنه لا يسرف في معاقرتها الى درجة السكر وكثيراً ما كان يوقظني من نومي عند عودته من مخدع الرئيس حيث يبقى حتى انتصاف الليل لأقدم له النبيذ المعتق ، فيتناول الجرعة الاولى ثم يأخذ بالكلام ، ولا يزال على هذه الحالة حتى الفجر .

وكان يستعصي عليّ فهم خطبه ومواعظه فأجهد فكري . لقد نسيت منها نقاطاً كثيرة ولكني اذكر انها كانت في أول الامر تمـــلأ قلبي ذعراً ونفسي انقباضاً فاصغي الى كلماته كالمصعوق وقد طالما تردد في خاطري ان اسأله آنئذ :

ـ ألست انت الشيطان بصورة انسان ?

ولكني لم اكن اؤمن بالشيطان كما قلت سابقاً . وفضلاً عن هـــذا فقد استدللت بما طالعته في التوراة على ان الشيطان كان قوياً في غطرسته ، لا ينفك لحظة عن تضليل البشر واغوائهم بشتى الاساليب والفنون ، بيد ان الاب انتوني لم يحاول قط أن يغويني او يدخلني في التجربة ، فكل ما كان يبثه في يقتصر على تصويره الحياة بلون اسود حالك ، ليظهر لي ما هي عليه من فساد الذوق .

لم يكن البشر في عرفه الا قطيعاً من الخنازير الكلبة الراكضة الى الهاوية ، المتدافعة الى الجحيم . فاعترضت عليه وقلت له ?

ـ ولكنك قلت لي سابقاً ان الحياة جميلة ، فكيف اوفق بين القولين ؟

فأجاب : الحياة جميلة عندما تعترف بوجودي ، وشقية عندما تنكره .

كان انتوني ذكي الفؤاد عميق التفكير ، غير اني كنت ضعيف الثقة بآرائه بالنظر الى ما أراه من وثباته الهائلة التي تلقي في نفسي الذعر .

وكان من حين الى آخر يستاء مني وهذا نادر ، فلا يلبث ان يرفع عقيرته قائلاً ألا تريدون أن تفهموا ، الا فاعلموا اني نبيل متحدر من سلالة عظيمة . ان اسلافي أسسوا روسيا وجدودي هم اعاظم التاريخ ، فكيف يتجاسر هذا التافه السخيف المقمل على معارضتي ؟

ولكن هذه المطاعن لم تكن لتلطخ عرضي او تحط من كرامتي . من يعلم ، ربما كنت انا ايضاً منتمياً الى سلالة شريفة عريقة في المجد .

وفضلاً عن هذا فالامر الجوهري هو الحقيقة ، لا الآباء والجدود . ذلك ان الماضي ميت ، والمستقبل هو الذي يحيا .

وكان بعض الاحيان يقص عليّ اخبار رفقائه الرهبان ، وبعدما يشرحهم ويأتي على اعمالهم يقول :

ـ والراهب ، ماهو الراهب؟ ان هو الا رجل يريد ان يخفي عاره عن العالم . ان هو الا مخلوق اضناه العذاب الناشىء عن شعوره بالضعف فهرب من العالم خوفاً من ان يلتهمه . مع هذا فالرهبان احسن حالاً من سواهم ، اما الآخرون فمخلوقات مشردة مطرودة بلا ملجأ ، انما هم خشارة المجتمع . هم الموتى الاحياء .

فسألته : وأنت ما أنت ؟

وقد رددت على مسامعه هذا السؤال مراراً عديدة فكان جوابه واحداً وهو :

ـ أنا رجل لا أستحق عناء السؤال . على المرء ان يعلم انه اتى الى العالم

كطارئة أو عارض و كفى !

وكان اله انتوني سراً من الاسرار التي استعصى علي حلها . حاولت مراراً ان استدرجه الى الكلام عن الله فلم افلح اذ كان يجيبني مبتسماً مستشهداً بأقوال التوراة مما اعرفه. على حين ان الله بعرفي انا كان فوق التوراة واسمى جداً مما هو موصوف به فيها . وفي ذات مرة كان ثملاً فانتهزت هذه السانحة وأعدت عليه سؤالي السابق مع هذا تملص منه وقال :

ـ انك ملحاح عنيد ياماتفي ، ولكن الحاحك لن يجديك نفعاً .

كان انتوني غزير الافكار ، بيد اني كنت آسف على أفكاره تزرع سدى في مخدعه بدلاً من ان يلتقطها الوف السامعين .

اني اود ان اقف على رأيه في الله ومقدار فهمه له ، فأعدت عليه الكرة مراراً الى ان قال لي يوماً :

ـ اني لا أذهب ابعد منك في هذا الموضوع، ياماتفي. انا لا استطيع ان افكر في ما عسى ان يكون الله !

فرددت عليه قائلاً :

ـ بيد اني لم أضع صورة فكرية لله على ماهي الحقيقة. فأنا اشعر بوجوده، وجل ما اتمناه ان تعلمني تفسير شرائعه التي تجري عليها الحياة .

ـ اذا كنت تشعر بوجوده فذلك خير لك . اما الشرائع الالهية فانك تطالعها في كتب الحقوق الكنسية ، في مؤلفات اللاهوت .

ثم ملأ كأسي نبيذاً وتناول كأسه منادما وقال : اشرب .

وما هي الا لحظة حتى أفرغ الشراب في جوفه .

وكانت هيأته متجهمة منقبضة صفراء تحكي لون الموت ، خلافا لعينيه اذ كان ينظر الي بهما شزراً مرامقا مزلقا . ولماذا ؟ لا أدري .

كان انتوني شديد الزهو والاعجاب بكرم محتده ونبالة جبلته، وكلما لاحت له فرصة للتبجح بأصله ردّد على مسامعي عباراته المألوفة . ولكن زهوه هذا كان بمثابة اهانة دامية لأرومتي الوضيعة وعنصري الغامض ، فنشأ عن دعواه العريضة أن ضعف استهواؤه لي شيئاً فشيئاً .

وكان اذا فتر من الشرب وعبقت به انفاس الحميا ، طاب له أن يتحدث عن النساء ، فيقول :

- ان الطبيعة وضعتنا في حالة عبودية لاتطاق بواسطة المرأة. لولا الشهوات الجسدية التي تمتص افضل قوى النفس البشرية وتستنفدها ، لاستطاع الرجل ان يبلغ قمة الخلود .

بيد ان الاخ ميخا كان اقسى منه على المرأة وأصلب رأياً . وقد طالما اثارت افكاره المتطرفة المتلظية شجوني واحزاني . كان ميخا يجحد نعمة المرأة ويكفر بها ساخطا هائجاً ويطعن عليها ويشوه محاسنها حانقاً حاقداً ، على حين ان انتوني كان فاتراً في كلامه عن المرأة ، مسترخياً .

قال لي يوماً : اتذكر الكتيب الذي اعطيتك اياه ؟ لاشك انك بعد مطالعته عرفت ماهي المرأة ، وادركت مقدار خبثها واحتيالها وحنثها وغدرها. فعلمت بعدئذ انها مجبولة على الفجور مطبوعة على التهتك والدعارة .

كنت اغضب اشد الغضب عندما اسمع رجلاً ولدته امرأة وأرضعته حليبها وغذته بدمها وحنت عليه طفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً ، كنت اثور عندما ارى هذا الرجل يكسو امه نفسها اطمار الذل والمهانة ، ويرميها بحجارة العار واللؤم ، وينكر عليها كل شيء الا الفسق والدعارة !

ولذلك لم أستطع ان اخفي ثورة نفسي وصرحت له بما يخالجني فهاج واجابني :

-- يالك من غبي ! أتحسبني اذن في كلامي عن المرأة اعني امي ؟

فرددت عليه قائلًا : ولكن انسيت ان كل امراة امٌ هي ؟

– ولكن بين النساء من ولدن فاسقات ومتن فاسقات .

– وبين الرجال من هم حدب الظهور ولكن حديثهم لا يعني ان احديداب الظهر شريعة طبيعية لامهرب لأحد منها !

فأفحمه جوابي ، وبدلاً من ان يعترف بصحة نظريتي غضب علي وانتهرني وأمرني بالخروج . ان الروح العسكرية كانت متأصلة في هذا الكاهن .

الفصل الرابع عشر

الصدمة تتلو الصدمة ، والخيبة تعقب الخيبة

اذا كانت مطاعن انتوني في المرأة قد اثارت مراجل حنقي واختلاطي ودفعتني الى الوقوف في وجهه ، فتهكمه على الله واستخفافه به واقاويله الباطلة اقلقت طمأنينة نفسي وملأت قلبي الهادىء ذعراً ، فتحولت لينة خلقي الى شراسة وشعرت بغم عميق يعذب نفسي .

كنت ادور حوله كما يدور الجائع المرسب حول خزانة مقفلة تنبعث منها رائحة الخبز الطري . كنت ادور حوله لعلي استطيع ان استل من صـــدره اسراره الدفينة العميقة التي تهديني سواء السبيل ، وتكشف لي اللثام عن الحقيقة التي انشدها .

وفي ذات مرة هاجت اعصابي بعدما سمعته من كفر ، فتناولت سكين المائدة وقلت مهدداً : اعترف لي بمكنونات فكرك او حززت عنقى بهذه السكين .

فمد يده وخطف السكين وقد شحب لونه واستولى الذعر عليه واجاب :

– كان علي ان اقاصك ، غير ان القصاص لا يأتي بالفائدة وخصوصاً متى كان

المذنبون متهوسين متطرفين مثلك .

وبعد ان استرد طمأنينته، تابع قائلاً :

–اسمع ما أقوله لك . لاجدال في وجود البشر ، البشر موجودون وما عداهم فليس الا فكرة أو رأياً .

أما الله ، الهك ، فان هو الا حلم روحك ، وأنت لاتستطيع سوى ادراك نفسك ، نفسك وحدها تستطيع معرفتها . وهذا ايضاً ليس امراً ثابتاً .

فشعرت عند سماعي هذه الكلمات كأن بركاناً تفجر في صدري فاهتززت اهتزازاً عنيفاً وأحسست بروحي تصدم جوانب جسدي لتتحرر من قفصها.

حاولت ان افهم مايعنيه انتوني فلم اتمكن . كان يتدفق في كلامه فتخرج الفاظه من فمه كأنها حمم يقذفها بركان ثائر فوق رأسي .

هذا الرجل لايشعر بسرور ولا عذاب ، لايحس حلاوة ولا مرارة فكأنه أحد اولئك الكهنة الكهول الذين اقتصروا على خدمة كنائس الجبانات، فتراهم حذقوا صلوات الجناز وترديد عبارات الموت ، ولكنهم مع هذا لم يستميتوا.

بدا لي هذا المذهب الارتيابي في اول الامر هائلاً فظيعاً ولكني ادركت بعدئذ ان صدوره عن رجل كأنتوني لم يكن فيه شيء من الضر او الخطيئة.

مضى انتوني في شرح نظريته الى ان ارخى الليل سدوله ، فكنت اصغي الى كلماته وانا حزين مشرد الافكار ، وما ان دق الجرس حتى قال لي: انصرف.

خرجت الى الحديقة ثم توجهت الى الكنيسة فقبعت في احدى زواياهـــا المظلمة وأخذت أتأمل وافكر قائلاً في نفسي :

– ما انتفاع رجل شبه ميت بالله ؟ وما احتياج رجل بين حي وميت الى الله! ثم مرت الايام فشعرت ان انتوني تنكر لي اذ كان يخاطبني مخاطبة السيد لعبده ويعاملني بجفاء وقسوة . ثم استرد كل الكتب التي اعطانيها للقراءة وبينها

تاريخ روسيا وهو كتاب كنت اهتم بمطالعته شديد الاهتمام ولكن انتوني انتزعه من يدي قبل ان استوعبه فأخذت اسأل نفسي :

ـ لماذا انقلب علي ؟ ماهو ذنبي أمامه ؟ وبماذا أهنته ؟

حاولت الاهتداء الى السبب فلم أفلح .

كان مطلع خطابه مطبوعاً في ذهني الى جانب افكاري الاخرى ، فكنت اردده دائماً واقول مع انتوني « اما الله فان هو الا حلم روحك » .

وبعد ايام وصلت خليلة انتوني وكان الوقت ليلاً فاذا به يناديني قائلاً :

ـ اليّ بابريق الشاي .

فهيأت الابريق ودخلت على أنتوني في مخدعه فرأيت امرأة شقراء الشعر ، عسلية الضفائر ، زرقاء العينين ، ساجية الطرف ، جميلة المحيا ، قسيمة وسيمة .

وبعد ان اعددت الفناجين ولوازم الشاي انصرفت الى غرفتي وانا افكر في هذا الراهب . هذه القصة الغرامية كانت تلذ لي اذ انها دلتني على ان أنتوني يصلح لأن يقوم بعمل ما ، بغض النظر عن ان هـــذا العمل لم يكن ليتعدى الحب الجسدي وهو أسهل شيء في العالم .

أما أنا فلم يكن لي مأرب في ذلك الوقت لأن فساد اخلاق الرهبان ملأ نفسي اشمئزازاً وسخطاً . والكاهن أنتوني لم يكن في عرفي رجلاً من رجال الدين . وفضلاً عن هذا فخليلته فتاة غضة بضة نضيرة كوردة تفتحت عنها الاكمام .

وفي صباح اليوم التالي خرج أنتوني ليقابل الرئيس فذهبت اصلح سريره فرأيت خليلته جالسة على (الديوان) تطالع كتاباً .

وما بدأت عملي حتى تركت كتابها وسألتني عن اسمي وعن معيشتي في الدير وهل انا راض عنها أم لا ، وقالت :

ـ ألا تضجر وتمل من الحياة الرهبنية ؟

ولما أجبتها بالنفي قالت : امرك اذن يدعو الى الاستغراب. ألا ترى انك في شرخ الشباب وأوج الجمال ؟

– عجباً ! أشيدت الأديار للكهول والدمام فلا تعذوذب المعيشة فيها لسواهم ؟

فأخذت تضحك من جوابي ثم رفعت قدمها العارية كأنها تقول لي ألا تراها جميلة واخذت تطيل في النظر وتدمنه كفاحصة مستعرضة مستطلعة .

كانت هذه المرأة نصف عريانة فكان هذا العري المشوق المغوي أفعل في النفس من الجردة التامة ، فلذلك ما عتمت ان قلت في نفسي وقد وددت لو انها عرفت ما يدور في خلدي :

– ألا دعي الغواية واتركي التجربة ، خبئي عريك لخليلك ولا تستهويني به .

ثم عادت تحدثني فقالت :

– ألا تتلهف على النساء في ديرك اذن ؟

– وما الذي يدعوني الى التلهف ؟ اني ما فكرت فيهن يوماً ..

– أصحيح هذا حقاً ؟ انك راهب عفيف !

ثم قهقهت متهكمة وأغربت في الضحك .

وفي هذه اللحظة برز انتوني في باب المخدع فما ان سمع قهقهة خليلته حتى سألها .

– ما هذا يازوريا ؟ ماذا قال لك ؟ ماذا صنع ؟

فاجابت : لم يأت أمراً فرياً ، ولكني أراه ماجناً مضاحكاً .

وأخذت تقص على انتوني ماتراءى لها من دعابتي وهزلي وهي تضحك فقلت في نفسي يالها من امرأة مهزاق . بيد انه لم يحفل بحديثها فقاطعها وانتهرني قائلاً :

– هيا وافتح صناديق المؤونة ، عليك ان تحمل قسماً منها الى الرئيس الاعلى .

فأدركت انه يأمرني بالانصراف فخرجت .

وفي المساء ارخى الاب انتوني وخليلته لشهواتهما العنان ، فشربا على العشاء مقداراً كبيراً من الخمرة ، وبعد ان تناولا الشاي عكفا على الشراب فاغتبقا حتى ثملا وتمشت فيهما حميا الكأس . وكان انتوني لا يفتر عن توجيه الاوامر قائلا:

– خذ هذا – اجلب ذاك – ضع النبيذ في الثلج ... الخ

فكنت أركض من ناحية الى اخرى كأني أحد ندل المطاعم أو المقاهي.

وكأن خليلة انتوني شعرت بحر شديد وأخذت تخفف ثيابها وتتعرى فخطر لأنتوني أن يسألني بعدما كشفت جمالها المصون قائلا: ماقولك، ألا تراها فتانة؟

فأجبته – انها تفتن الابصار والالباب .

– تأملها جيداً اذن ، أنعم النظر في جسمها الغض البض...

وكانت المرأة تضحك وتقهقه وقد ثملت واسترخت .

وفيما كنت على أهبة الخروج اذا بأنتوني يصرخ هائجاً :

– انتظر . الى اين تذهب ؟ انتظر ... زويا ... زويا ... اخلعي غلالتك وتعري ، اكشفي له عن جردتك وابرزي امامه عارية !

فحسبت انني أسمع اذني مالم تسمعا ، وكذبت عيني فيما رأيت ، واستعذت بالله من هذا الموقف الشرير ... وماهي الا لحظة حتى انتضت زويا غلالتها ثم قامت على رجليها واخذت تتهادى عارية ...

فخفضت بصري ونظرت الى انتوني شزراً مرامقاً مزلقاً، فما كان منه الا ان غمزني بعينه . فجمد الدم في عروقي واحسست بقلبي يهبط الى الارض .

كان هذا المشهد الخلاعي مدعاة الى حزني واسفي .

حزنت على الطهارة يعبث بها كاهن كأنتوني ولا يخجل او يستحي .

واسفت على امرأة تبتذل نفسها ولا تعلم ماهي فاعلة .

وبكيت على ايام اضعتها في الدير باحثاً عن الله ، ناشداً الحقيقة الالهية

ساعياً وراء السلام الروحي ، فما عثرت على سوى الجهل والكذب والدعارة ! يالآمالي الخائبة !

كان انتوني يأنف هذه المشاهد الخلاعية فلاتخدش ملامس الطهر والعفة فيه. اما انا فخجلت من نفسي وخجلت من هذه المرأة العارية تعرض جمالها الخفي.

وقفت جامداً مطرقاً وقد ذبت حياء وخجلًا واذا بأنتوني يصرخ قائلًا :

– انصرف ايها اللئيم...

فثار ثائري ورددت عليه : انما اللئيم انت ...

فنهض من مقعده كأنه يحاول ان يثب علي ولكن مائدة الشراب هوت على الارض عندما اراد ان يزيحها من امامه ، فسقطت القناني وتبعثرت واهرق مافيها من الخمور ، فلم يصل الي بسوء بـل عاد الى مقعده وهو يترنح من شدة السكر .

اما انا فمضيت الى الحديقة اقضي ليلتي فيها . كان قلبي يلتهب المـــاً كأنه مصاب بطعنة دامية . وفيما كنت مرخياً لأفكاري العنان اذا بي اسمع انتوني يصرخ بصوت اجش قائلًا : اخرجي ، انصرفي .

فعلمت انه خاصم خليلته وطردها . وعلى الاثر سمعت المرأة ترد عليه :

– يالك من جاهل غبي !

وبعد قليـل سمعت صريف الباب الخارجي ورأيت مركبة تخرج منه ، فاستدللت على ان المرأة عادت الى منزلها . ثم خرج انتوني الى الحديقة واخذ يجري من ناحية الى اخرى وهو ينادي بصوت منخفض :

– ما تفي ... ماتفي ... اين انت !

كان ظله الاسود الطويل الهزيل يتحرك مابين الاشجار جارياً خلفه كأنه شرطي يتعقبه دون ان يشعر به . ولما بلغ منه العياء مبلغه استند الى شجرة ثم

مد يده الى اغصانها وهزها بعنف فتساقط عنها الثلج وردد همساً عبارة خليلته له:

– يالك من جاهل غبي !

ثم عاد أدراجه الى مخدعه .

اما انا فظللت مختبئاً في الحديقة حتى الفجر، وعندئذ توجهت الى مخدع الاب ايزيدور وقلت له : جئت اطلب تذكرة سفري لأني عزمت على مغادرة الدير.

فأجابني مستغرباً : لماذا ? ماالسبب ? ماذا جرى ?

وقد حاول ان يقف على السبب الذي دعاني الى هجرة الدير فلم يفلح اذ اني اصررت على الكتمان . ولما رأى الحاحي قال انه سيطلع الرئيس الاعلى على امري .

فخرجت من مخدعه وجلست على مقعد يقع تحت شجرة صنوبر قديمة العهد.

جلست على هذا المقعد عمداً ، لااتفاقاً ، لأن الجلوس عليه يعني الخروج من الدير اختياراً او كرهاً .

هذا المقعد لايجلس عليه إلا اولئك الرهبان الذين يريدون التحرر من قيود الرهبنة او الذين حُكم عليهم بالطرد من الدير. فما كدت اجلس حتى اخذ الرهبـــان يختلسون النظر اليَّ ، فيرامقني بعضهم ويرمونني بسهام غضبهم ، ويبصق الآخرون على الارض تحقيراً لي ، واشمئزازاً من عملي !

وقد نسيت ان اشرح ماكان يدور بين الرهبان من التحامل عليَّ وعلى انتوني وما كانت تتناوله الافواه من التخرصات البذيئة التي اضرب صفحاً عنها .

كان الرهبان يمرون امامي ويقولون : مبارك اسم الله . أطردوا هـــذا ايضاً ?

وبعد قليل دعاني الرئيس الى المثول بين يديه فلبيت الطلب، وما ان رآني حتى قال لي بلهجة ولائية لطيفة :

ـ الم اقل لك يا ماتفي انه خير لك ان تشتغل في الادارة ؟ الم انصح لك يابني ان تختار العمل في المكتب ؟ لقد كنت على حق في نصحي لك . لقـــد كنت مخلصاً لك يابني ، فلماذا ابيت الا معارضتي ؟ لماذا شككت في نصحي ؟ انت قوي الشكيمة حاد الطباع ، ولهذا تصعب عليك الخدمة البيتيـة ، ولهذا ايضا قدرت لك حدوث مالا تحب ، وانا ادري انك ماشتمت الاب انتوني الا مدفوعاً بحدة مزاجك !

ـ يالله ! ومن قال لك اني شتمت الاب انتوني ؟ ومن قال اني اهنته ؟

ـ هو نفسه ولا احد سواه .

ـ يالله ! ولكن الم يقل لك انه ابرز لي امرأة عارية ؟

فاستولى على الرئيس ذعر شديد واخذه انفعال نفساني كأنه يسمع تجديفاً على الله ، وبعد ان رسم الصليب واستعاذ بالله من الشيطان اجاب :

ـ ماذا تقول ؟ ماذا قلت يارجل ؟ آه ، سامحك الله . امرأة عارية ؟ هذا المشهد لم يكن الا رؤيا صورتها لك الروح الشريرة التي تجربك وتغويك ، هـذا المشهد خيال جسّمه لك الشيطان ! فكّر في ماقلت يارجل . امرأة في دير رهبان ؟ هذا مستحيل !

فأخذت اخفف روعه وحدّة دهشته وقلت :

ـ ومن هو الذي جلب لك امس نبيذ بورتو والجبن وسواهمـــا من مأكول ومشروب ؟

فازدادت دهشته واجاب :

ـ سامحك الله وغفر لك ؟ كيف تستطيـع ان تختلق خبراً كهذا ؟

فنظرت اليه نظرة الازدراء والاحتقار وشمخت بأنفي امام هذا الرئيس الذي بدالي آنئذ كالمجرم الهارب من القصاص .

انا لم اكن كاذبا في ماقلته ، ولم اختلق ولم افتر . والمرأة العارية التي قال انها من اعمال الشيطان ، انما كانت من اعمال الدير ورؤسائه .

وانكى من هذا ان ينكر الرئيس امر قصفه ولهوه ثم يطلب لي الغفران باعتبار اني زورت واختلقت خبراً باطلاً !

فماذا ارجو بعد هذا من قوم مرائين خطاة يسترون ذنوبهم ومعاصيهم بحجب الدين والورع والزهد ؟ مسكين انت ايها الدين ومظلوم ، ماا كثر مايفترون من الجرائم باسمك ، وانت منها بريء !

الفصل الخامس عشر

ما أكثر الزوان وأقل القمح في دروب الحياة

ما انتصف النهار حتى غادرت الدير آسفاً على ايام اضعتها فيها بالعبادة والدأب على العمل . وبعد ان اجتزت البحيرة وادركت الشاطيء البعيد ، جلست اتأمل الدير الذي صرفت فيه سنتين قضيتها بالاعمال القاسية كأني احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة دون ان أرتكب وزراً يدعو الى هذه الكفارة .

اطلت النظر الى الدير وما يحيط به فبدت لي الغابة كأنها طير بسطت جناحيها الاخضرين لتكشف عن الدير القائم بينهما .

هذه اسوار الدير بحجارتها البيض وهذه قباب الكنيسة القديمة بلونها الازرق وهذا هو المعبد الجديد بلونه المشرق ، وهذه سطوح الدير الحمراء تكللها الصلبان المتألقة بنور الشمس ، وفوق هذه القبة السماوية الزرقاء تنشد اغنية الربيع العذبة وقد تلألأت في وسطها الشمس الضاحكة .

في احضان هذا الجمال الجديد الحي ، كانت تفنى ايام بطالة خلوة من الحب والسرور ، ايام عاطلة تمضي كقضم الجلمد بالعمل القاسي ، في احضان هذا الجمال

الفتان ، كان الرجال المتشحون بالثياب السود يسحقون الحياة بالتوافه ويصرمونها بالسخافات ، فيشوهون الجمال والحياة معاً !

تأملت الدير وحياته ، فأخذتني الشفقة على العالم كله ، وحزنت على نفسي ايضاً ثم نهضت من مكاني وسرت في طريقي وقد اغرورقت عيناي بالدموع .

كان الهواء بليلاً شذياً ، والارض وما عليها من النباتات تنشد اغنية الحياة، والمزروعات ترفع سواعدها ورؤوسها الى السماء تحيي الشمس،والطيور تغرد وتصدح مبتهجة جذلة بالحياة وجمالها . كان الحب يعمر الطبيعة ، فأيان سرت سمعت اهازيجه ، وايان حللت تجلى لعيني جماله .

وفيما كنت ماضياً اذ قابلت احد الفلاحين فحياني وعكف على عمله ، ثم مرت امرأة فما رأتني حتى ابتعدت عني ، آه ! ماأشد احتياجي الى صدر رحب ابثه مافي قلبي من الغموم والهموم ، ماأشد افتقاري الى ظل صاحب اشكو له وأتوجع !

وما زلت أسير حتى ادركني الظلام فاتجهت الى حرجة قريبة قضيت فيها ليلتي . ولما اخذني النعاس افترشت الارض والتحفت القبة الزرقاء ترعاني نجومها ، وعند الفجر قرسني البرد فأفقت ثم خرجت من الحرجة ومضيت في سبيلي .

قابلت في الطريق عدداً من الفلاحين الذين كانوا يرمونني بنظرات الكره والاشمئزاز . هم يحتقرون الجبة السوداء التي اتخذها الرهبان لباساً لهم ، وانا لم يكن بوسعي ان اخلع جبتي لأن تذكره المرور التي احملها انتهت مدتها . غير ان رئيس الدير اضاف اليها حاشية ذكر فيها صفتي الرهبنية في دير سافاتييف ، فحق لي ان استرد المدة الضائعة في الدير .

عزمت على زيارة الاماكن المقدسة برفقة الحجاج الذين كانوا يملأون

الاديار بالمئات والالوف في ايام الاعياد .

كانت الرهبنات تنظر الى هؤلاء الزوار نظرة الهزؤ والسخرية فتعاملهم بخشونة وشراسة غير حافلة بكونهم بشراً لهم مالسواهم من الحقوق الدينية .

كانت تستل من جيوبهم آخر درهم وترغمهم على القيام بأعمال الدير القاسية الشاقة وتبتزهم بكل الاساليب .

كان هؤلاء الزوار يسيرون زرافات ووحداناً ، نساء ورجالاً ، شباناً وكهولاً ، وقدامتلأت قلوبهم ايماناً وورعاً . فاذا مروا بأحدالنساك وقفوا يصلون وخروا ساجدين امام المنسك ثم لايلبثون ان يتابعوا مسيرهم الى الاماكن المقدسة لتخفيف اثقال الحياة . وقد شعرت بقوة غريبة تجذبني الى هذه الجماهير العطاش الى الهداية ، الجياع الى معرفة الله والتماس الغفران ، فرافقتها وقد اطمأنت نفسي اليها اطمئنان المريض الى العلاج .

سرت مع جماهير الحجاج وفي قلبي ما فيه من الآمال فتحولت الى رجل رحيم شفيق واخذت اسائل نفسي قائلا : عمّ يبحث هؤلاء الرجال وعمن يفتشون ؟ فتراءى لي انهم كلهم حائرون مترددون مثلي .

كان كثيرون مثلي يبحثون عن الله ولا يدرون الى اين يتصدون .

لقد تركوا ارواحهم منثورة في الطرقات التي قادتهم اليها استقراءاتهم ولكن ارجلهم لم تزل تجري لأن لاطاقة لها على الجمود . كانت الرياح تدفعهم الى السير على غير هدى ، كما تلعب بالريش المنثور .

رأيت بين هؤلاء الحجاج التائهين كثيرين من اللؤماء الاوغاد والمرائين الكذبة الحاملين البلداء الذين لايرجى منهم نفع فضلاً عن سواهم ممن يعدُّون عالة على البشرية . ولكن هؤلاء لم يكونوا الا بمثابة العثير الذي يتطاير وراء جمهور المفتشين عن الله الباحثين عنه .

وهذا الجمهور اجتذب قلبي اليه وحبب اليّ الاختلاط به .

ولكن ماذا رأيت بعدئذٍ ؟

شاهدت ذات مرة في بيلاوجيري رجلاً كهلاً انيق الثياب حسن المنظر رشيق الحركة لبقاً تدل هيأته على انه ليس من العامة .

جلس هذا الكهل في ظل احدى الاشجار والى جانبه جرّة مملوءة زيتاً او دهنا واناء نحاسي كالطست وخرق كثيرة .

وكان هذا الرجل ينادي من وقت الى آخر قائلاً :

ـ تعالوا اليّ ايها السادة، تعالوا، ليأت اليّ الجرحى والقرحى وانا اشفيهم. من كانت في ساقه قرحة فأنا ابرئه مجاناً لوجه الله تعالى . هذا نذري لله فتعالوا ايها المرضى .

وكان هذا اليوم عيداً دينياً في بيلاوجيري فقدمها الزوار زرافات من كل ناحية حتى غصت بهم . فاذا عبروا امام ذلك الكهل وقفوا امامه واحدقوا به من كل الجهات ، لايلبث القرحى ان يقتربوا منه طمعاً بشفاء مرضهم ويبسطوا امامه سيقانهم فيغسل ارجلهم وبعد ان يطلي الجرح بالزيت يضمده باحدى الخرق .

وفي ذات مرة تقدم رجل ينتعل حذاء واسعاً فأخذ يلقي عليه النصائح قائلاً :

ـ ماهذا الحذاء، ياأخي ! انت لست عادلاً ، الا ترى حذاءك في منتهى الاتساع ؟ كيف تستطيع ان تسير ؟

فأجابه الرجل : لقد اعطيت هذا الحذاء شفقة واحساناً.

ـ ان من اعطاك اياه عمل صالحاً اما انت فقد اسأت بانتعاله . ان عملك هذا يسخط الله عليك فلا يمد يده لشفائك !

فحزنت نفسي عندما سمعت هذا المشعوذ واخذت اتأمل معنى عباراته ساخراً :

- « هذا رجل يعرف كيف يعبر عن ارادة الله وافكاره ، بل يدرك كيف يفهم الله الاشياء ويفسرها ! الا حدّ لجهل البشر وشعوذتهم !

ثم تقدمت امرأة متثاقلة الخطى شبة عرجاء ، فما عجمتها عينه حتى صرخ قائلاً :

-- سامحك الله ياعزيزتي. ان ماتشكينه ليس كلاعاً او ذباحاً وانما داؤك الزهري ! حذارِ ايها السادة حذارِ ،ان هذا المرض شديد العدوى يفتك بمئات العيال فاضطربت المرأة وخجلت ثم انصرفت مطرقة حياء .

وتابع الطبيب المأجور المثوب نداءه قائلاً :

- تعالوا اليّ ايها السادة وانا اشفيكم ، أني ادعوكم باسم القديس كيرلوس.

فلا يسمع نداءه الزوار حتى يرتموا امامه حفاة . فيغسل ارجلهم ويلث جروحهم وقروحهم قائلاً :

- شفاكم الله وعفا عنكم !

وبعد قليل جمع امتعته وذهب الى حيث لاادري .

وفي المساء اخذني احد الرهبان الى مكان ابيت فيه فعثرت هناك بالطبيب الغسال فاضطجعت قربه وسألته :

- اني استغرب اختلاطك بعامة الشعب ومبيتك في الدير ، مع ان مظهرك على سعة ورخاء ، فكان الاجدر بك ان تبيت في النزل .

- لقد نذرت على نفسي ان أكون الآخر بين الآخرين دوام ثلاثة اشهر . نذرت على نفسي ان ازور الاماكن المقدسة زاهداً متقشفاً حارماً نفسي من كل اسباب الراحة . ونذرت ايضاً ان اغسل ارجل الزوار . اني لا ارى

قرحة او جرحاً حتى يغلب علي التقيؤ ، ولكن مهما يكن من الامر اعكف على غسل الجرحى والقرحى وفاء بنذري . ان خدمة الله شاقة قاسية بيد ان ايماني برحمته شديد .

فضجرت من هذا الجواب السخيف وتناومت وانا افكر في نفسي :

ــ ان هذه التضحية التي يقدمها لله لاقيمة لها ولا شأن ، انما هي ذبيحة سخيفة لافائدة منها لأحد .

ولما رأى اني لااحير جواباً ركع فوق الهشيم وصلى بصوت منخفض ، فسمعته يهمس قائلاً :

ــ ... وانت ايها القديس كيرلوس صل الى الله لاجلي انا الخاطىء واستعطفه . تشفع بي امامه وسله ان يأسو جروحي وقروحي ويشفيها كما آسوا الجرحى والقرحى ايها الله الكلي القدرة ! قدر عملي حق قدره وانظر اليه بعين الجميل وسامحني . ان حياتي لك فلا تقس علي . انا لاانكر ان اهوائي شديدة وخطاياي كثيرة ، ولكنك يارب اطلت عذابي وعاقبتني فوق مااستحق . لاتنبذني . لاتطردني من باب رحمتك طرد الكلاب . ولا تدع ايضاً عبيدك يطردونني . آه ، انني اضرع اليك . اني ارفع صلاتي وتوسلاتي وارجو ان تصل الى عرشك كدخان البخور المقدس !

كان لهذه الصلاة أسوأ تأثير في قلبي ، كيف لا والرجل يحسب الله طبيباً فيسأله بواسطة قديسة كيرلوس ان يأسو جراحة ويعالجها ؟

كيف لاتحزن نفسي عندما اسمع رجلاً جاهلا مشعوذاً كهذا يمن على الله بما يأتيه من الحسنات ويعتب عليه ؟ ايحسب الله رجلا حتى يذكره معروفه وجميله واياديه التي اصطنعها عند الجرحى ؟

اذا كان وقع هذه الصلاة ثقيلاً على اذني ، فما اثقلها على اذن الرب ؟

وبعد ان انتهى من الصلاة عمد الى مزوده وأخرج مافيه من الزاد وشرع يتناوله بفيه . وبعد ان يمضغه يسترطه متمطقاً مطمطعـــاً فيسمع له جرس ثقيل الوقع .

أهذا هو الزهد والتقشف ؟

رأيت بين الزوار عدداً كبيراً من نوع هؤلاء الابطال المتدينين الذين كانوا يصلون الى ربهم ويضرعون ليلاً ، ويظلمون اخوانهم ويرتكبون الاوزار نهاراً .

كانوا يبتذلون الله ويضعون من قدره اذ يستخدمون اسمه ليحجبوا وراءه نقائصهم وفضائحهم ، كانوا يمنون عليه ويتجرون بما يقدمونه من الحسنات قائلين :

ـ ياالله ! لاتنس كم اعطيناك وكم قدمنا الذبائح لأجلك !

كانوا عبداناً عمياناً لشراهتهم ومطامعهم وتكالبهم فيضعونهـــا فوق نفوسهم عينها .

كانوا يعبدون الصنم المسيخ الذي ارتسمت صورته في ارواحهم الممزوجة بالجبن والصغارة وهم يتضرعون ويتوسلون قائلين :

ـ يارب ، لاتصب علينا جامات غضبك !

هؤلاء كانوا بمثابة جواسيس لالههم وقضاة للبشر ، كانوا يتلصصون مراقبين خرق الشرائع الدينية فتأخذهم غيرة على الدين ويئنون آسفين :

ـ ويل لنا ، ويل لنا نحن الجاحدين ، هاقد تلاشى الايمان من القلوب !

وقد راقني بنوع خاص احد هؤلاء الابطـــال الكذبة ، قلت راقني والحقيقة انه اضحكني بما ابداه من شدة غيرته على الدين واهتمامه بالآخرين .

كنا نسير معاً من بيويا سلافي الى روستوف .

وكان رفيقي هـذا رجلا انيق الثياب حسن المظهر ذا لحيـة سوداء وبشرة بيضاء مشربة حمرة ، وهو على مابدا لي يعيش في رخاء وبحبوحة وينفق كثيراً من النقود وخصوصاً على النساء ، قصّ عليَّ هذا الرجل خبره وختمه قائلا :

ـ عندما رأيت الشرائع مخروقة الحرمة والبشر يعيثون فساداً فقـدت سلامي الداخلي واضطربت روحي ثم عزمت على مغادرة عملي فسلمت متاجري لأبنائي وضربت في الارض هائماً على وجهي منتقلا من مكان الى آخر ، وها قد مضى عليَّ الآن اربع سنوات اشرقت فيها وأغربت فرأيت حتى مـا رأيت وسمعت حتى ماسمعت . . . لقـــد اجتاحت جرذان الرذيلة الصرح الديني واعملت في دعائم الشريعة اسنانها قضماً وقرضاً وستظل دائبة على عملها حتى تنهار الدعائم وتسقط الجدران فوق ساكني الصرح .

وثار ثائر الشعب على الكنيسة فمقتها وتحول عن حدائقها الغناء ليسقط في مهاوي الكفر والضلال ويؤلف الشيعات الخبيثة . . .

فماذا صنعت الكنيسة لتعالج الداء وتتدارك الشر قبل استفحاله ؟

انها قصرت همها على مضاعفة ثروتها الخاصة واكثار عدد اعدائها ، لبست حلة الغطرسة والانانية وما همها ان تعبث بأصول الدين .

كان على الكنيسة ان تمد يدها الى اسعاف المحتاجين وانجاد الفقراء المعوزين مثل اليعازار المسكين، فيرى الشعب آنئذ ان الفقر الذي علَّم به المسيح هـو مقدس . ولو انها فعلت ، لما كان ثمت مجال للسرقة والاعتداء على املاك الآخرين . لوانها عملت بتعاليم يسوع لصانت الشعب من السقوط في مهاوي الضلال والخطيئة ولكنها عمدت الى الاتجـــار بالدين ، فأساءت الى الله والشعب معاً .

والآن قل لي ، أليست غاية رجال الدين في هذا العصر مقصورة على الجام

الشعب التماس لهم قيادته وليسهل عليهم امتطاؤه ؟

هذا ماقاله لي رفيقي . ان غيرته على الكنيسة والشعب أضحكتني وفكهتني وكيف اصدقه ومخبره يكذب مظهره وعمله يناقض قوله !

ماأكثر هؤلاء الابطال الكذبة !

الفصل السادس عشر

صور ومشاهد بائسة في المجتمع الجاهل الفاسد

توجهت الى لوين سعياً وراء الراهب افانازي الذي سمعت عنه الكثير فتمنيت لقاءه. وكان يسير حذائي رجل كهل يتوكأ على عصاه البيضاء التي كان يقيس بها خطواته. التفتُّ اليه فراقني ان احدثه فسألته :

ـ أمضى على تطوافك زمن طويل ، ياعمُّ ؟

فارتاح الشيخ الى سؤالي وبعدما انفض رأسه أجابني مبتسماً :

ـ تسع سنوات ياصديقي ، تسع سنوات .

ـ ألعلك ارتكبت جريمة فظيعة اذن ؟

ـ وأين هو المقياس الذي يصح ان تقدر به الخطايا ؟ هذا أمر لايعلمه الا الله .

ـ فماذا صنعت اذن ياعم حتى قضيت تسع سنوات بالتطواف ؟

فابتسم وأجاب : لم اقترف وزراً ولا ارتكبت جناية . عشت كما يعيش الآخرون . أنا من سيبيريا ، وقد جئت من ضواحي توبولسك . كنت في صباي حوذياً ثم فتحت نزلاً . . فحانوتاً أيضاً .

ـ اذن سرقت احد المسافرين !

فنظر اليّ شزراً وأجاب غاضباً :

ـ ما الذي يدعوك الى اتهامي بالسرقة، ما الذي يحملك على إساءة الظن بي؟ سامحك الله .

ـ لا تحفل بما أقوله . اني هازل وقد شئت مداعبتك . عندما رأيتك قلت في نفسي « هوذا شيخ لم يرتكب خطيئة فادحة » .

فالتفت اليّ وأجاب : النفس البشرية ذات مقياس واحد في كل الاجسام . والشيطان ينقضّ عليها كلها . ولكن لماذا نُعنى بالحياة الدنيوية ونهمل الموت؟ ماذا تقول بالموت ؟انك تتحدث عن الحياة ، الحياة وحدها ، فأين الموت اذن؟

ـ أين الموت ؟ انه في كل مكان .

ـ وما معنى سؤالك ؟

فحاذاني وقار (أي وقف على أطراف قدميه) وهمس في اذني قائلا :

ـ الموت كلي القدرة . المسيح نفسه لم يستطيع أن يتلافاه ؛ يسوع الاله ابن الاله حاول ان يهرب من الموت فلم ينجح . ألم تسمعه حين استغاث بربه وقال « أبتاه أبعد عني هذا الكأس ! »

لقد استنجد أباه السماوي ولكن أباه لم ينجده ولم يبعد عنه كأس الموت . ولم يكن ثمة مجال للحؤول دون موت يسوع فقد كان مكتوباً : « يأتي الموت وتظلم الشمس . »

ثم تحمس الكهل فأخذ يتدفق فتفيض الكلمات من فمه كأنها سلك من الماء ينحدر من الجبال وقال : اجنحة الموت غير المرئية ترفرف في كل بقعة يابني، والانسان يجتاز هاوية الحياة فوق حبل ممدود فما أن يحرك الموت جناحه حتى يسقط الانسان وتبتلعه الهوة الغامضة وتدفنه في أعماق اسرارها .

هذا الرجل عندما يشعر باهتزاز الحبل تحت قدميه ينادي ربه ضارعـاً متوسلاً : ياالله ، ان العالم يستند الى ذراعك ويعتمد على قوتك ويلتجيء اليك !

ولكن بربك قل لي : كيف ينجده الله ويأخذ بيده وسيف الموت مصلت فوق رؤوس الجميع ؟ أليست سلطة الموت فوق كل السلطات ؟

حسن أن يكون الرجل مثقفاً واسع المعارف كثير الاطلاع كبير القلب ، حسنٌ ان يزدان بأدب الدرس والنفس ، ولكن هل تظن ان هذا الرجل المثقف يستطيع ان يطيل في حياته دقيقة ؟ كلاّ يابني ، متى يلفظ الموت حكمه تذهب المعارف هباء منثوراً وترتد كل السلطات مدحورة .

سمعت كلماته فلم ارد عليها بحرف ، وما عسى ان أقول وأنا لم افكر قط في الموت ولا كان لي من الوقت مجال لدرس معضلة الموت ؟

كان الكهل يسير متباطئـــاً وهو يرسل اليَّ نظرات خامـدة . ثم لايلبث ان يلقي بصراً مذعوراً تائهاً في ماحوله كأنه يخشى ان ينتصب أمامه بغتة شبح الموت ويرميه في الجحيم . فأخذتني شفقة عليه .

كانت مظاهر الحياة تحدق بنا من كل الجهات ، فالأرض مدت بساطها الاخضر السندسي والعنادل صدحت عـلى الاشجار المنورة والورود تفتحت عنها الاكمام واستقبلت الشمس المتلألئة ، وبعدما كحلت عيني بالمشاهد الفتانة ملت الى رفيقي وسألته :

ــ وكيف تفتقت هذه الافكار ياعم ، ألعلك كنت مريضاً ؟

ــ كلاّ كلاّ ، بلغت السابعة والاربعين وأنا رافل في حلل الغبطة والهناء. ولكن توفيت بعدئذ امرأتي ثم انتحرت كنَّتي شنقاً ففقدت الاثنين في سنة واحدة .

ــ ألعلك أنت شددت الحبل الى عنق الفتاة !

ـ أنا ؟ ماهذه التهمة ياصاح ؟ اني لم امدّ الى المسكينة يداً . لقد اندفعت الى الانتحار بعامل الطيش والنزق فما ذنبي أنا ؟ وعلى فرض اني عشت معها فليست خطيئتي فادحة كما تتصور . أنا أرمل ، وكنت بحكم الارمل قبل وفاة قرينتي . ذلك انها قضت أربع سنوات على سرير المرض والالم الى أن توفاها الله . وبعدما انتقلت من هذه الدنيا باركت نفسي وحمدت الله اذ أصبحت حراً طليقاً .

وقد رغبت بعدئذ في الزواج ولكني لم ألبث أن رغبت عنه وقلت في نفسي علام الزواج ، اني أعيش مرتاحاً كل الارتياح ولا شيء يعكر عليّ صفو حياتي . وبعدئذ تحضرني الوفاة ، فلم الزواج ؟

ان فكرة الموت كانت تلهب لبي فيقشعر لها بدني . هذه الفكرة كانت تنغص عيشي وتؤلم نفسي . فلذلك سلمت الى ابني كل مالي ورحلت باحثاً عن الطمأنينة والسلام الداخلي ، هارباً من الموت . كنت أظن أني بتطوافي من مكان الى آخر اخفف شيئاً من همومي الباطنية ، فاذا بي أتدانى من الرمس بسيري المتواصل .

كنت أحسب أن ما أراه من المشاهد الجديدة والاشياء الغريبة ينسيني القبر ولكنني أدركت الآن اني مخدوع جد مخدوع .

فسألته : اذن تتألم ؟

ـ احمل مالا يطاق من الالم باصاحبي . ففي النهار أحاول أن أتناسى عذابي فأبحث عن رفيق يسليني ولا أجتنب معاشرة أحد كان شأنه ما كان . ذلك لاني أحسبه بمثابة ترس يردّ عني سيف الموت ، الموت اعمى وربما انخدع واخطــأ الاختيار فأنجو ويقع سواي في الشرك . ولكن بعدما يجن الليل وانفرد بنفسي ، عندما تغمرني الوحشة ويسقيني السبات خمرة الاحلام فويل لي اذا أفقت وفتحت

عيني في ظلمة الليل البهيم . أشعر كأن يداً سوداء تمتد اليّ لتدغدغ صدري وتقبض عليّ هذه اليد السوداء الخفية تتلاعب بالقلب وتداعبه مداعبة الهر للفار فينكمش قلبي ويهتزّ مضطرباً من هول مايتراءى لي. ثم لا ألبث أن أخفف عن نفسي وأمد بصري الى ما حولي فأرى النيام وأسمع شخيرهم وغطيطهم فأغمض عينيّ وأقول في نفسي :

- أتراهم يستيقظون أم تغشاهم سكرة الموت ؟

لا أحد يدري ! فالموت كثيراً مايحصد السنابل البشرية جرزاً جرزاً . اسمع ياصاح ، ماتت في مدينتي اسرة كاملة غرقاً في المـــاء ، الأب والام وبنتاهما الاثنتان .

كانت شفتا الكهل ترتعشان والدموع تنحدر من مآقيه ، فكنت ارثي لحاله وأقف مذعوراً أمام مايلقيه في مسامعي .

وتابع حديثه فقال :

- حبذا لو غشينا الموت على حين غرة . حبذا لو جاءنا بغتة . ما أحيلى غمرات المنية تأتينا نياماً فـلا نفيق . وما أسوأ الحياة عندمـا ينخر سوس الامراض أجسادنا شيئاً فشيئاً .

ثم تجهم وجهه وتجعد ، وتقبض جسمه وتكمش ورفع بصره الى السماء وهمس قائلًا :

- ربِ ! اجعلني ذبابة ولكن ذرني احيَ . فلأن أكون بعوضة خير من ان تحرمني الحياة . لاتقتلني يا الله ! هبني الحياة وسواء لديّ أبشراً كنت أم حشرة !

فانقبضت نفسي ورحمته وقلت :

- ما أمرّ الموت وما أقصى الحياة تمزجها رعشات المنون !

وما زلنا نسير حتى وصلنا الى أحد الفنادق وكان فيه جمهور كبير من الزوار فما أن اختلط الكهل بالجماعة حتى انبسطت أسارير وجهه واستعادت أنينته فهش وبش ثم عاد الى الحديث عن صديقه الموت فوقف في الجمهور خطيباً والقى عليهم موعظة في الموت، ولكنه كان جريئاً شجاعاً غير وجل أو جبان فقال :

« انكم ستموتون أيها الاخوان . ستأتيكم ساعة لاتعلمونها فينقض على رؤوسكم الموت وتذوقون حتفكم . من يعلم ؟ ربما كانت المنية تترصدكم فما أن تبعدوا عن هذا الفندق ثلاثة فراسخ حتى تفاجئكم . من منكم يعلم متى يأتي السارق » .

ففئة سمعته خاشعة واخرى مذعورة خائفة ، وسواها متشائمة حزينة ، وهناك من ضحك ملء شدقيه وانهال عليه بالشتائم . ولكن احدى النساء وكانت أجرأ من سواها رمت الكهل بنظرات الحقد وردت على خطبته قائلة :

-- وعلام تخشى الموت أيها الصعلوك الرعيد وترتعد فرائصك وأنت شريد طريد ؟

قالت هذه العبارة بلهجة معنوية غريبة حملتني على أن استرق النظر اليها والى الكهل الذي ارتج عليه وجمد كالصنم .

رافقت هذا الكهل حتى لوين بغية أن أتسلى ولكن الآية انعكست فضجرت وسئمت رفقته . وليس هذا الرجل منقطع النظير فقد رأيت بين زوار الاماكن المقدسة كثيرين مثله ممن كانوا يهربون من الموت ، وكان بعضهم يغالون ويبالغون فتقتلهم شدة خوفهم من الموت . نعم ان قلقهم كان عظيماً إلى درجة أن رهبة الموت نفسها كانت تتذمر عليهم .

ورأيت ايضاً زواراً كثيرين لايفترون لحظة عن ذكر الله والتسبيح باسمه

ودعوة الناس الى محبته ، على حين انهم لا يعرفون ماهو الله ولا يدركون معنى العطف على القريب ولا يفهمون شيئاً من روح العبادة الحقيقية .

هذا الفريق قصر همه على التهويل والقاء الذعر في قلوب الآخرين حتى إذا هالهم ماسيلاقونه من القصاصات الابدية فزعوا إلى اولئك المبشرين بالملكوت السماوي وارتموا بين ارجلهم يطلبون الغفران والخلاص .

كان هذا الفريق يجوب البلاد شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً حاملاً في حقائبه بذور القلق والارعاب يلقيها في النفوس باكياً متوجعاً فيبكي السامعون ويئنون اذ تأخذهم رهبة يوم عصيب .

هؤلاء الناس او هذه الجبلة الغريبة من الناس تبشر بالله زوراً وبهتاناً دون ان تدرك ماينطوي تحت اسم الله من معاني المحبة والحنان والشفقة والغيرية والصلاح ، تبشر بالله لابتزاز المساكين السذج الذين لايميزون بين الظلمة والنور ، وتتخذ اسم الله وسيلة لاستدرار المال وما أقبح الاتجار بالسماويات !

هذه الجبلة البشرية الممقوتة تتوسل باسم الله فتمص به دماء المؤمنين المسترشدين دون دراية ولا ضمير ، خدمة لمصالحها الحقيرة واشباعاً لمطامعها الدنيئة .

والظاهر ان تلك المرأة الجريئة التي ردت على الكهل وكانت له كانت من المنضويات تحت لواء تلك الجبلة المارقة . بيد انها تختلف عن الآخرين بما في عينيها من نيران الحقد على البشرية وما في وجهها من تجهمات الغضب وما في لهجتها ونبرات صوتها من الشراسة ، فاذا لامسها أحد بكلمة صبت على رأسه ناراً وحمماً .

وفي ذات مرة لاطفتها واسترسلت معها في الحديث فأنست بي بعض الانس ثم قلت لها بعد تدميث المقدمات والتوطئة لها :

- خير لك ان تقدي علي احزانك وأشجانك وتبثيني همومك وغمومك بدلاً من ان تغضبي وتحنقي، فربما فرجت كربتك وتآسيت .

- وماذا تريد مني ؟

- لاشيء ، لاتغضبي ، لاتخافي .

- أأخاف، وممَّ أخاف؟ اني لا أفزع ولا أخشى شيئاً، بيد أن صدري مثقل بالهموم والاحزان .

- ولماذا ؟ ما السبب ؟

- وماذا يعنيك امري ؟ ماذا يهمك شأني ؟ اليك عني والا استنجدت .

فعدت احاسنها وقلت لها :

- كل ما ابتغيه هو أن أقف على آلام قلبك وان أسمع مآسي البشر .

فصعدت نظراتها فيّ وأجابت متهكمة : اذا كان يروقك ان تسمع مآسي البشر ، فيلذ لك ان تقف على آلامي .. ألا فاعلم ان الكل يذوقون العذاب ألواناً واشكالا، مع هذا لا ابخل عليهم باللعنة اجمعين .

- ولماذا تلعنين المتألمين المعذبين؟ ما الذي حداكِ على صب لعنتك؟

- لأني اريد لا اكثر ولا أقل .

ثم شرعت تتباطأ في سيرها وتابعت حديثها فقالت :

- اليك مأساتي فاسمع : في الربيع الماضي ذهب زوجي كعادته الى نهر دنيبر ليسير رمثاً (خشب يضم بعضه الى بعض ليركب في المـــاء) ثم مضت الايام والاسابيع والأشهر ولم يعد . لا ادري ما أصابه أغرق في النهر ام علق باحدى النساء وعاش معها . وكان حمي وحماتي من الفقراء الاردياء . وقد مكثت في منزلهما مع ابني وبنتي الصغيرين اللذين كان عليَّ ان اعولهما .

بحثت عن عمل يدر عليّ ما اطعم به ولدي فكنت أشتغل يوماً وأقضي

بالبطالة أربعة بالنظر إلى قلة العمل ، أما الجعالة فزهيدة جداً وخصوصاً اجور النساء . ولما رأى حمي اني لا اكسب مايفي بنفقاتي ونفقات ولدي بدأ يتذمر ويتأفف لاننا كنا نقاسمه قوته الضروري .

وكانت حماتي شراً لا بدّ منه ، ففي ذات مرة دعتني وأسرت الي بنصيحة غريبة اذ قالت : « انت في ميعة الشباب فجولي في الاديار حيث تنالين من الحظوة في عيون الرهبان مايكفيك مؤونة العوز والفاقة » . فلم يسعني الا ان اعمل بنصيحتها السيئة مدفوعة بعامل الغيرة على ولدي اللذين كانا يدميان قلبي عندما اراهما يشكوان الجوع ، ولا استطيع ان اسد سغبهما بلقمة من الخبز .

كانت الكلمات تنسل من فمها وهي تصرف بأسنانها كأنها تحاول ان تستبقي سر بؤسها دفيناً في صدرها . وكانت تنعكس على عينيها روح الامومة بأجلى معانيها . وبعد ان تأوهت وتنهدت تابعت حديثها :

بلغ ابني او سبب الرابعة من العمر وكانت غانكا شقيقته أصغر منه سناً . كان الجوع يأخذ منهما فيبكيان ويسألانني خبزاً فأقسو عليهما واضربهما ويبيتان على الطوى . نعم اضربهما وعلام الانكار ؟

فتأمل بعد هذا حالة ام بائسة لاتستطيع ان تطعم ولديها وتربيهما الا اذا ابتذلت جسدها وتمرغت في بؤرة الخطيئة !

وقد مضى علي شهر وانا انتقل بين الديارات حاملة جسدي للرهبان يتمتعون به مقابل اربعة روبلات ، اربعة روبلات فقط لأن الرهبان بخلاء حتى على النساء !

كنت اوثر الف مرة ان أئد ولدي وأنتحر على أن اتلطخ بالعار . ولكن سبق السيف العذل فسقطت في حمأة الرذيلة ، فبأي ماء اغسل عاري .

فأخذت اعزيها واسلي عنها ثم قلت لها مؤاسياً :

ـ ان الله يصفح عن خطيئتك مادمت قد ارتكبتها مدفوعة بعامل حبك

لولديك !

وما كادت هذه العبارة ترن في مسامعها حتى ثارت كاللبؤة وأجابت بلهجة قاسية عنيفة :

– وماهي الخطيئة التي اقترفتها نحو الله حتى يغفرها لي؟ بما أذنبت نحوه حتى يصفح عني ؟

الله يصفح عن خطيئتي ! ما اجمل هذا الغفران ! ولكن بماذا اسأت الى الله حتى أسأله ان يشملني بصفحه ، ماذا صنعت ؟ أيطرحني في اتون الشقاء ثم يمنّ علي بالغفران ، أهذا هو العدل السماوي ؟

ولكن سواء لدي أغفر لي أم اقتص مني فجهنم ليست أسوأ من الحياة .

فتأثرت وأخذ مني الانفعال النفساني مأخذه وقلت : لقد اسأت اليها من حيث حاولت تعزيتها . وتابعت كلامها فقالت :

– وهل تعتقد ان الله يهتم بالفقراء ويرثي لهم ؟ عندما كنا في زيلينيكاين على ضفاف نهر عامور أقمنا لله القداديس والذبائح والصلوات مراراً كثيرة، وسألناه بقلوب متخشعة متواضعة ان يمد الينا يده وينجدنا، فهل تظن انه تحرك لمساعدتنا ؟ قضينا هناك ثلاث سنوات بالاشغال الشاقة، فالذين نجوا من الحمى عادوا بأطمار الفاقة . مات ابي هناك ، وانهزعت ساق امي وانحطمت عندما كنا على أهبة السفر وتاه أخواي في سيبيريا واختفت اثارهما فأين كان الله ، لم يهب لمساعدتنا ولا حرك ساكناً .

كانت تتكلم فترتعش وتهتز، ثم تقلصت عضلات وجهها فتجهم ولكنها مع هذا كانت فتانة خلابة . عينان نجلاوان سوداوان يفيضان حياة ونوراً وشعر حالك غزير فوق بشرة بيضاء نقية غضة .

وعندما جن الظلام وأدركنا الليل ملنا الى حرجـة فانتحينا جانباً أميناً

وأخذنا نتسامر فرأيت ان قلب المرأة نضب وجف، فلو شاءت ان تذرف دمعة لما استطاعت بيد انها عندما ذكرت ايام طفولتها ضحكت وافتر ثغرها وبرقت عيناها شرراً. كنت اصغي الى ماتحدثني به وتقصه فبعد ان أتأمله ملياً لا ألبث ان اقول في نفسي ماهذه امرأة، ان هي الا سعلاة لاتتوانى عن الفتك اذا افترضت نهزة. هيهات ان يقوّم أودها ويصلح فاسدها!

وتابعت حديثها فقالت: اني لا أرى الله ولا اشعر به ولا أحب قريبي. وهل تظن ان رجلاً يندفع الى مساعدة رجل ويهتم بنصرته؟

وماهم الرجال؟ ماهم؟ هم خراف ونعاج، والصواب هم خراف أمام الأقوياء وذئاب مفترسة امام الضعفاء. ان الذئاب نفسها تعيش جماعات متماسكة، اما البشر فكل منهم على حدة لا يأنس الواحد بالآخر ولا يأمن شره. يعيش البشر متفرقين متباغضين كالأعداء، لقد رأيت حتى مارأيت وسمعت حتى ماسمعت وسأرى وسأسمع اشياء كثيرة. لان يهلك العالم كله خير من ان يبقى، ان في هلاكه راحة له!

أمن العدل ان نلد البنين ونقذفهم الى الوجود دون ان نستطيع اعالتهم والانفاق عليهم فضلاً عن ضمان هنائهم وسعادتهم؟ لقـــد ضربت ولدي عندما عضهما الجوع بنابه فطلبا مني خبزاً. نعم ضربتهما فباتا على الطوى. اليس في هذا مايدمي النفس ويسحق؟ مساكين هؤلاء الصغار، ولكن ما العمل، واليأس يدفعنا الى ما لانهوى ونريد؟

ثم غلب عليّ النعاس فنمت ونامت هي ايضاً، وعند الصباح تركتني سعياً وراء القوت، تركتني لتقرش لولديها في الديارات طارحة على الرهبان جسدها ليتمتعوا به مقابل مانسد به رمقها ورمق ولديها. ولما دعتني قالت بلهجـــة تمازجها المرارة:

– لقد قضينا الليل معاً جنباً الى جنب في حرجة بعيدة منفردة ، واني لأعجب كيف ان نفسك لم تحدثك باغتنام الفرصة وانت اقوى مني ؟

وكان هذا السؤال بمثابة لطمة لي فرددت عليها مستاء :

– انك غير مصيبة في شتمي وتحقيري !

فغضت عينيها واجابت : يلذ لي ان اشتم الرجال واهينهم ، سواء كانوا صالحين ام اشراراً. انت لاتزال شاباً مع هذا تمشي محدودباً ويمشي الشيب في فوديك . يلوح لي ان هموم الحياة اثقلت كاهلك والدهر أخنى عليك ، معهذا لا أرثي لك ولا أرثي لأحد .

الوداع ! ثم غادرتني ماضية في سيرها .

الفصل السابع عشر

لارجال ، بل انقاض حياة متقوضة وغبار بشري سخيف ...

قضيت ست سنوات طائفاً جائباً متنقلاً من مكان الى آخر فما رأيت الا دموع الشقاء ، وما سمعت غير تنهدات البؤس .

شاهدت جبلة من الناس لايروقها الا الشر ، كانت تخفي في صدرها حقداً قاتلاً تنفثه سماً زعافاً بين البشر . هذه الجبلة كانت تشرب حنظل الشر هنيئاً مريئاً كما يجرع السكير الخمر . سمعتها تنشد أغنيـــة الفوز وتضحك من الحياة قائلة :

.. نحن المصيبون اصحاب الحق ، ان الشر عالمي والبشر لايستطيعون ان يتلافوه ، فعلام الرياء !

كان هؤلاء الناس مستسلمين لليأس الساحق فتمرغوا في حمأة السفالة والنذالة وتهالكوا على القبائح والرذائل وعاثوا في الارض فساداً أشكالاً وضروباً كأنهم يثأرون منها لانها كونتهم وأرتهم شمس الحياة .

كان مقضياً على هؤلاء الناس أن يزحفوا في الطرقات حتى ساعاتهم الاخيرة مندفعين بعامل ضعفهم الذي استعبدهم .

كانوا يرفعون عرابهم الى درجة الالوهة ، ثم يركعون خاشعين متذللين امام هذه الألوهة وقد اغمضوا عيونهم الا عن رؤية جراحهم نفسها وسدوا آذانهم الا عن سماع اناتهم وتأوهاتهم نفسها

انهم يثيرون في القلب الشفقة والرحمة فهام الا حمقى فسدت عقولهم وأخلاقهم وأذواقهم لذلك لا يحجمون عن ان ينفثوا حنظلهم في كل الوجوه ، ولو استطاعوا لنفثوه في وجه الشمس .

وشاهدت جبلة اخرى سحقتها الآلام واستعصت عليها النكبات فحملت صليبها صابرة ساكتة متظاهرة بالوضاعة والحياء ، ولكن هذه المظاهر لم تخفف على الاقوياء الذين استخدموا هذه الجبلة كما يستخدم البناء الجص فجبروا بها فجوات قصورهم المتداعية .

لقد انطبعت في ذاكرتي كلمات كثيرة ومشاهد متعددة وهيئات مختلفة .

نظرت الدموع المرّة الحرّى تجري أمامي فيلتهب قلبي ،

وسمعت قهقهات اليأس يرسلها البائسون فصمّت اذناي .

وذقت كل ضروب السموم وشربت الماء من مئات الأنهار وكثيراً ما كنت أنا نفسي أيضا أسكب دموع الضعف .

كانت الحياة تمثل لعيني جاثوما ثقيلاً وعاصفة من العبارات المقلقة المذعرة .

كانت تبدو لعيني كأنها غصّة لانهاية لها ، وصرخة يأس مستمر فكيفما التفت لا أجد الا الشقاء والألم وكيفما أدرت لحظي لا أرى الا بشرية بائسة ملتهفة متحسرة ألا تلد الأرض غير العذاب ؟ غير الاشواك ؟ ألا تسقي الحياء أبناءها غير الحنظل ؟

كنت افكر في ما حولي فتئن روحي وأقول في نفسي كأني أنكر سمع اذني ومرأى عيني .

كلا ، هذا لايستطاع أن يكون !

كانت شآبيب الشكاوي والتذمر تفيض في كل طرفات الارض ، فلاألبث أن يستولي عليّ الذعر عندما أرى ان الله لامحل له في هذا الغمر ، في هذا الخراب اليباب الذي انحصرت البشرية وراء اسواره . لم تكن قدرة الله لتستطيع أن تظهر في مكان ، ولم تكن قدماه لتتمكنا من الوطء في مكان.

هذا بنيان الحياة تدك اسسه متفجرات الألم والخوف واليأس والحقـــد وقذائف الجشع والخطل والتكالب ، وهؤلاء أبناء الحياة يمزق بعضهم بعضاً تباغضاً وتحاسداً وتجافياً .

فرفعت بصري الى السماء وسألت الله :

هل انت عند الحقيقة الا حلم الروح البشرية ، هل انت الا الامل الذي يلده اليأس في ساعات الضعف العصيبة ؟

رأيت ان لكن من البشر الهـاً خاصا يعبده ، وهذا الاله لم يكن أنبل وأجمل من عبدتـه ، كان يشق عليّ كثيراً أن أعترف بهذه الحقيقة ويؤلمني عندما أرى البشر لايبحثون عن الله ولكنهم يفتشون عن وسيلة يلهون بهـــا لتناسي آلامهم .

الشقاء يتعقب الانسان ويطرده اين حل فيدب الوهن الى نفسه ويحاول ان يتلافى المعركة مذعوراً خائفاً من دخول ميدان الحياة ثم لايلبث ان يبحث عن ناحية منفردة هادئة يختبيء فيها وهكذا ماكنت لألقى في البشر الانفعال المقدس الذي يدفع الى البحث عن الله ، ولا النزعات الساميـة الى الهناء الالهي ، وانما رأيت البشر يهربون من الحياة جبناً وخوفاً ويرغبون في خداع أنفسهم تضليلاً لحواسهم ، تأملت حالة الانسانية ، فما لبثت ان سمعت في داخلي صوتاً خفيفاً قائلاً :

- كلا ، كلا ، هذا لا يستطاع ان يكون !

كثيراً ماكان يتفق لي أن أمرّ برجل عميق التفكير ، تشرق في نظراته شعلة نقية ثم لا ألبث ان ألتقيه مرّة ثانية وثالثة وهو على هذه الحالة ، غير انني في المرة الرابعة او الخامسة أراه مختلفاً عما كان بالأمس اذ ينقلب الى يأس ، الى سكير ، ويحل محل رصانته وتواضعه طيش وشراسة فيجدف ويشتم .

كنت اقف حائراً لا ادري كيف اعلل سقوط هذا الرجل ، ولا أعلم الى مَ أعزو الضعف الذي ذهب بقوته السابقة . أترى الناس كالعميان يسيرون معتّشين على غير هدى فما ان يصطدموا بعثار حتى يعثر جدّهم ويسقطوا ؟

ندر أن رنت في مسامعي عبارة بليغة ذات معنى وبيان ، ففي أغلب الاحيان كان المتكلمون يستعملون ألفاظاً وتعابير ولكنهم يجهلون ماتنطوي عليه من المعاني والافكار الحسنة والسيئة .

وكان هناك من يسمعون مواعظ الرهبان الاتقيـــاء ونبوآت النساك والزاهدين فيلتوي عليهم القصد ، ويستعصي الادراك فيمزجون هذا بذاك ، ويخبطون ويخلطون دون تمييز كما يخلط الصبية في تركيب اناء خزفي مكسور .

لم ألقَ في أسفاري كلها رجالاً وانما رأيت انقاض حياة منقوضة وغباراً بشرياً سخيفاً تتناوله الارض هرساً وطحناً ثم تنثره الرياح فوق المعابـــد فيتراكم فيها . لقد انتزعت الايام مافي قلبي من الايمان بالايقونات ، انتزعته شيئاً فشيئاً حتى اذا ترهبت وخرجت من الدير قضت على غيرانه القليلة .

وكان التطواف الديني (الزياح) يحبس عليَّ أنفاسي ويخنقني ، كانت المواكب في هذه المشاهد الاحتفالية يشبه زحافة هائلة شهباء ، الرجال يزحفون فوق غبار الطرقات ، يحمّس بعضهم بعضاً مدفوعين بقوة أجهلها ، وكانت الايقونة المقدسة تخفق فوق هؤلاء الرجال الذين جثوا حتى لامست جباههم

الارض ، فكأن هذه النصبة المعبودة طائر عجيب حتى يخيل الى من رآها ان عوانق الرجال تنوء بحملها لشدة ثقلها .

وكان الموسوسون الممومون وقد مستهم شياطينهم وخبطتهم ينطرحون على اقدام الجماهير وهم يفرفرون كالدجاج المذبوح ويصرخون صراخاً يصم الآذان .

وكان الشعب يطأ اجسادهم بأقدامه او يزيحهم عن الطريق فيشبعهم ركلاً ثم يرفع ابصاره الى صنمة العذراء المحمولة على الاكتاف ويحييها صارخاً :

– تهللي ، ياوالدة الاله !

كان مشهد الموكب مدعاة الى السخط ، تفصدت وجوه الجماهير عرقاً ثم نثرت الرياح الغبار فوقها فكاحت واسودت وتبدت كأنها وجوه وحشية .

هذا التطواف الديني وما تخلله من التراتيل الخامدة المتصاعدة من حناجر موهونة يرافقها وطء اقدام ثقيلة ، هذا التطواف على شكله الممقوت كان بمثابة اهانة للارض والسماء .

وكان المتسولون وقد اصطفوا تحت الاشجار يميناً ويساراً في طول الطريق يؤلفون جناحين غريبين ، فهناك المرضى والمقعدون والعرج والعميان والبائسون القرحى وذوو العاهات ، يمدون ايديهم مستعطين مستعطفين تارة بالبكاء والنحيب والأنين وطوراً بالكلام الرقيق او الالحاح والالحاف .

كانت الامراض تنهش اجسام هؤلاء البائسين الاشقياء ، والآفات تقرض لحومهم وعظامهم بلا شفقة ، فلا يلبث من يراهم ان يردد قائلاً :

– هكذا يزدهر البؤس والشقاء !

ما أفظع القوة التي كانت تتعقبهم وترميهم في الحمأة وتمرغهم بأوحالها !
ما أقسى القوة التي كانت تضطهدهم وتمثل بهم !

في مدينة كييف الجميلة التقيت على شاطىء دنيبر رجلاً قوزاقياً لفت نظري.
كان هذا الرجل يناهز الخمسين، أصلع الرأس كث اللحية متجعد الوجه، كبير الهامة، تدل هيأته على انه مفكر رصين.

جلست قربه على الشاطيء وارخيت لافكاري العنان فقلت في نفسي:
- ان أحداً لايذكر ارومته وأصله، لقد انصرفت الى البحث عن الايمان الحقيقي وها انا الآن اسائل نفسي: اين هو الرجل؟ اين هو؟ اني لااراه. رأيت فلاحين وعسكريين وموظفين وكهنة وتجاراً، ولكني لا القى الا ناساً غرباء عن الشؤون الجارية والاعتيادية. كل من الناس يخدم رجلاً آخر، وكل واحد يأتمر بأمر رئيسه وفوق الرؤساء رؤساء وفوق هؤلاء من هم أسمى فأسمى الى ان تصل الى علو شاهق لايدركه الطرف، فهل الله مختبيء هناك؟

وبعد ماجهدت فكري عبثاً ملت الى القوزاقي واخذت احدثه فأعجبتني دقة تصوراته وشاقتني صراحته. وما زلنا نتجاذب اطراف الحديث الى أن قص عليّ شيئاً من اخبار بلاده القوقاس فقال:

- تسعرت منذ سنوات نيران الفتنة في مايكوب، وهل تعلم السبب؟
سطت الأوبئة على البقر والتهمته فسخط الاهالي واندفعوا بعامل اليأس الى الانقضاض على الحكومة فسيرت اليهم كتيبة من الفرسان لاعادة الامن الى نصابه، ففتك النصارى بالنصارى وقتل بعضهم بعضـــاً بسبب الابقار فمات عدد كبير.

فأنا الآن اسألك: مادام واحدنا يقتل الآخر بسبب بقرة، فمـــا هو معتقدنا؟ ما هي ديانتنا في روسيا؟ ألم يقل الله لاتقتل؟

ان شريعة الله هي بمثابة مصل روحي تكفينا منـه نقطة واحدة نتلقح بها فتطهرنا.

لقد جاء في الكتاب : ان أتقياءالقلوب يرون الله ، ولكن كيف يستطيع أحدنا ان يكون نقي القلب على حين انه لايستطيع ان يعيش كما يشاء ويرضى؟

ان البشر وقد امتنعت عليهم الحرية وانسدت في وجوههم ابوابها ، لايتمكنون ان يملأوا قلوبهم بالايمان الحقيقي ، ولكن بمسحة منه .

ثم وقف القوزاقي واعتمر قبعته وودعني بهذه العبارة :

– نحن لانملك شيئاً من الحرية لخدمة الله ، هذا ما يلوح لي .

وقد حاولت ان ادرك معنى كلماته واجلو غوامضها جلاء تاماً فلم استطع . مع هذا لم يسعني الا ان اعترف بانها تتضمن شيئاً من الصحة والحقيقة .

جلست وحدي على الشاطيء وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فأرخت خيوطها الصفراء النحيلة فوق الارض ، وتكسرت اشعتها على زجاج القباب الكنسية القائمة على الهضبة ، فتبدى لعيني مشهد جميل خيل الي ان الارض تنافس السماء بجمالها . ثم اخذت افكر قائلا في نفسي :

– ألا يتجلى جمال النفس البشرية الا في ساعات الشدة والأسى ياترى ؟

أين هو المحور الذي تدور عليه الجماعات البشرية ؟ وما هو معنى هذا الاضطراب ؟

ما أكثر ما يتردد على النفس من الأفكار والخواطر !

* * *

كنت في خلال السنوات الست التي قضيتها جوّاباً ، كنت اذا اقترب الشتاء توجهت الى الجنوب حيث تعتدل الحرارة ، ولكن اذا فاجأني البرد والثلج في الشمال أويت الى احد الديارات هرباً من القر . وكان الرهبان في باديء الأمر يسيئون استقبالي، ولكنهم لايلبثون بعد قليل ان يهشوا الي ويبشوا عندما يرونني عاكفاً على العمل . ولا غرابة فهم يحبون الرجال المجتهدين الذين

يخدمونهم مجاناً دون أن يتقاضوا اجوراً . وقد كنت أحد هؤلاء الرجال .

كانت قدماي تستريحان في الدير ، أما يداي فتشتغلان ودماغي لا ينفك عن التفكير . كنت استعيد الى خاطري ما شاهدته في فصل الصيف ، فأغذي بتذكاراتي الماضية روحي .

كنت أستحث ذاكرتي واستخرج منها ماخبأته الأيام السالفة من حلو وحامض وأجهد نفسي لكي لاأضيع كلمة سمعتها أو مشهداً رأيته .

كنت أشعر اني متخم بأنات العذاب والألم على الارض ، وان عزيمتي خائرة فينتابني سبات روحي واحس مدى أيام كأني نائم فلا أرى شيئاً ولا أشتهي شيئاً ولا أعي على شيء .

وكنت عندما تخمد حماسة الحياة في صدري ، أسأل نفسي أليس الأفضل أن أرجع عن هذه الحياة التائهة وأعيش كما يعيش سائر الناس دون أن أهتم بحل أحاجي الحياة وألغازها ، خاضعاً للشرائع التي لم أسنها ؟

كان النهار في نظري مظلماً كالليل ، وكنت أراني على الأرض كالسماك الاعزل في السماء ، أغريب أنا عن العالم ؟ وما هذه العزلة ؟

وكان يخيل الي في بعض الأحيان اني فتى ضائع في بيداء الحياة فينتابني اليأس وأقول : وعلام الحياة وقد انفصلت عن العالم ؟

• • •

الفصل الثامن عشر

صوت الامومة . . . اني اطلب ولداً لا لذة !

ألقيت عصا الترحال بعد تطواف شاق في أحد ديّارات النساء الواقع على ضفاف فولجا فحللت فيه وانصرفت الى الاحتطاب . واتفق بعد وصولي بأسبوعين أن هوت الفأس على قدمي بينما كنت أحتطب فجرحتها ولزمت الفراش ، فأشفقت عليّ راهبة عجوز واعتنت بأمري الى أن نلت البرء .

لم يكن هذا الدير النسائي كبيراً ولكنه كان غنياً يكفل لراهباته بشيء من الرخاء وصفاء البال .

وكانت مظاهر الراهبات وزينتهن وأحاديثهن وتكلفهن تثير سخطي واشمئزازي .

وفي مساء أحد الايام سمعت صوتاً ملائكياً طربت له نفسي . فدنوت لأرى صاحبة الصوت فاذا هي راهبة طويلة القامة ممشوقة القدّ ، سوداء العينين ، معسولة الشفتين ، وردية الوجنتين . كانت هذه الصبية ترسل ترنيمتها بصوت قوي ولهجة شديدة عليها مسحة من اليأس .

وفي أصيل اليوم التالي بينما كنت أجرف الثلج عن الطريق اذ مرت هذه الراهبة بقربي دون أن تنتبه لي فأخذت أتأملها وأنعم فيها النظر فرأيتها شاحبة اللون متجهمة الوجه . ولما دنت مني حييتها فرفعت رأسها وشمخت بأنفها ورشقتني بنظرات الغضب كأني اسأت اليها . فتأثرت وحزنت ولم ادرِ كيف افسر هذه الغطرسة مع انها مسترهبة لا راهبة فليس لها عليّ سلطان .

ولكني مع هذا لم اتمالك ان خاطبتها قائلًا :

ـ الحياة شاقة ، أليس كذلك ايتها الفتاة ؟

فاشمأزت وردت سائلة : ماذا ؟ ماذا تقول ؟

ـ أقول ان الحياة شاقة وان مقاومة نواميسها صعبة .

فأجابت بصوت منخفض : اسكت ياشيطان !

ومضت في طريقها لا تلوي على شيء فتراءت لي وقد اتشحت بالسواد انها سحابة تسوقها الرياح .

أخذت اسائل نفسي قائلًا : لماذا خاطبتها بهذه الجرأة ؟ أأسأت اليها ؟

لقد كنت في ذلك العهد غريب الأطوار ، وكثيراً ماكانت تزدحم الافكار في خاطري ثم تنطلق كالشرارة الكهربائية فتصيب من احدثه وتدميه .

ولا بدع فقد كنت أرى الناس كلهم مرائين كذبة .

وبعد أيام قابلت الراهبة الحسناء مرّة ثانية ، فما كاد يقع نظري عليها حتى ثار سخطي وقلت في نفسي : ماالذي حداها على ارتداء السواد ؟ ماالذي أرغمها على دخول الدير . لماذا تنكرت للعالم واختبأت في هذا المنسك ؟

وما كادت تمرّ أمامي حتى ابتدرتها قائلًا : أتحبين أن نهرب معاً ايتها الصبية ؟

فوقفت كالمصعوقة . ترى ما كان وقع اقتراحي في فؤادها ؟ لاشك انها

منتصب جام غضبها على رأسي وتنادي رفيقاتها للايقاع بي .

ولكن ما مضت دقيقة حتى التفتت الي وأجابت : مساء أرد على سؤالك .

وما رن جوابها في اذني حتى وقفت كالمشدوه اسأل نفسي : أتراني اسمعت اذني ما لم تسمع ؟ ان المغامرة الغرامية تروقني وتسليني ولكنها تقلقني ايضاً .

غير ان اضطرابي لم يلبث ان زال وحلت محله الطمأنينة اذ حسبت الراهبة الحسناء تمزحني وتضحك علي والافكيف اصدق انها جادة لامازحة أو متهكمة .

كانت قيمة الدير قد امرت بنقلي بعدما جرحت قدمي الى غرفة صغيرة تقع تحت الدرج في المضافة ثم بقيت فيها ولم أزل .

وفي هذه الليلة نفسها استلقيت على سريري وأرخيت لافكاري العنان . وبعدما استعرضت الماضي عزمت على أن أضع حداً لحياتي التائهة وقررت ان امضي الى احدى المدن واشتغل في فرن ما ، فهذا خير لي من ان اعيش شريداً طريداً تسوقني الرياح من دير الى آخر وتتقاذفني يد الدهر في البراري والمهامه .

اما الراهبة الحسناء فلم اشأ أن افكر فيها ، وكلما خطرت ببالي تشاغلت عنها بموضوع آخر . وفيما كنت منصرفاً الى التأملات اذ سمعت قرعاً خفيفاً فوثبت عن السرير وفتحت الباب واذا براهبة عجوز تهمس قائلة : سر ورائي .

فلم اسألها شيئاً بل تبعتها مطيعاً لأني ادركت غرضها وعرفت المكان الذي تقودني اليه ، فمشيت رابط الجأش غير حافل بالعواقب .

ستری الراهبة انني لست جباناً !

وبعد ان اجتزنا اروقة شتى وقفت العجوز امام أحد الابواب وفتحته ودفعتني الى الداخل وهي تهمس : سأرجع وأعود بك الى غرفتك !

وما كدت اطأ العتبة حتى أضاء الثقاب في تلك الحجرة المظلمة فرأيت وجهاً اعرفه ، لقد صح ماقدرته وهذه هي الراهبة الحسناء .

وبعدما انصرفت العجوز قالت لي الراهبة اقفل الباب .

فأطعتها ثم اخذت اعيث في الظلام فما ان اهتديت الى الموقد حتى سألتها :

ـ لماذا لاتشعلين النور ؟

فضحكت وأجابت : اي نور تعني .

فسكت وقلت في نفسي هذه وقاحة .

كانت الراهبة تبدو لعيني في تلك الظلمة كانها غيمة سوداء في سماء دكناء .

ولما رأتني ساكتاً عادت فسألتني : ولماذا لاتجيب عن سؤالي ؟

فرددت عليها قائلا : هات ما عندك اولاً .

ـ اكنت مخلصاً في اقتراحك على الهرب من الدير ؟

فخطر لي آنئذ ان اسلقها بلسان سليط ولكني ترددت وغلب علي الجبن فأجبتها بهدوء :

ـ كلا ، وانما شئت ان امتحن شعورك الديني

وعلى الاثر اشعلت ثقاباً آخر فسنح لي آنئذٍ ان اتأمل هذه المتدينة الحسناء المنتصبة في وسط الحجرة واكحل عيني بجمال وجهها الفتان .

لم يكن جوابي معبراً عن الحقيقة ولم تتوقع الراهبة ان افاجئها بهذه الصدمة فما عتمت ان قالت :

ـ ما دعوتك لتمتحن شعوري الديني فاذا كنت لم تدرك قصدي فانصرف !

كان صوتها قاسياً ولهجتها خشنة . انها جادة لا مازحة ، تباً لي. لماذا أوقعتها في التجربة .

وتابعت كلماتها فقالت :

ـ اذا شئت ان اهرب فلا ادري الى اين امضي . لقد حبسني عمي في هذا الدير على الرغم مني . وانا لا طاقة لي على الحياة بين هذه الجدران السوداء المظلمة ،

لذلك اوثر الانتحار . ثم سكتت فجأة كأنها سقطت في هاوية . . .

كانت فرائصي ترتعد وجسمي يهتز ويرتعش وقلبي يخفق خفقاناً شديدا . لقد اختلط عليّ الأمر وحرت وانتابتني انفعالات نفسانية قوية : اين انا ؟ افي حلم ام يقظة ، اني اغمض عيني ثم افتحهما فلا تقعان على غير الظلام !

وكانت الراهبة تدنو مني شيئاً فشيئاً الى ان حاذتني وكادت تلتصق بي فسمعت دقات قلبها والتفح وجهي بأنفاسها المضطرمة .

وبعد ان فكرت قليلاً سألتها :

ـ فماذا تبتغين مني اذاً ؟ افصحي .

فاهوت عليّ وضمتني الى صدرها .

فقلت في نفسي ان بها شيطاناً ! ثم انتحبت وزفرت وارسلت من صدرها انيناً عميقاً ومن عينيها دراً مصهوراً وقالت :

ـ كان لي ولد فسلبونيه وسجنوني في هذا الدير حيث اقضي الحياة كئيبة حزينة يائسة . ثم قيل لي ان ولدي مات وجاء عمي وامرأته يؤكدان لي الخبر فاسودت الدنيا في عيني وازددت كآبة ، كيف مات ؟ لاادري ، احسبهم تعمدوا قتله او انتفوا منه ورموه في احدى زوايا الشوارع !

فتأمل حالتي ياصديقي ، اني لاازال قاصرة ولاابلغ سن الرشد الا بعد سنتين . آه مااطول هاتين السنتين ، وبعدئذ اخرج من الدير فيحتضنني عمي .

لقد قضي عليّ ان اظل سجينة سنتين طويلتين هما كناية عن سلسلة من العذاب والالم وأنا لاطاقة لي ولا أقوى على المعيشة في هذا المحبس .

ثم استسلمت للعبرة واستخرطت في البكاء وأرسلت من صدرها زفرات نارية وقد شعرت آنئذ اني مسؤول عن هـــذا المشهد المؤثر الذي يستدر الشؤون ، أحسست اني اذنبت نحو هذه المرأة وحملت في عنقي خطيئتها .

كانت هذه الفتاة المسترهبة تبث في قلبي الشفقة والخوف معاً ، رثيت لحالها وخشيتها . خيل الي ان بها مساً من الجنون فوقفت حائراً لا ادري أأصدق كلماتها ام لا ، وبعدما كفكفت دموعها وخفت نشيجها تابعت حديثها فقالت :

– ليت لي من يعطيني ابناً . . . اني اريد ولداً فمن ينكر عليّ حق الامومة . اني احتاج الى ولد اقتطعه فلذة من كبدي واشطره نسمة من روحي . اذا كان ابني الاول ، اذا كان بكري قد مات ، فهذا أغذيه بدمي واعكس على مرآة قلبه اشعة روحي . آه ، ليتك تعطيني ابناً . حبذا لو شفقت عليّ ورثيت لحالي وشعرت بعذاب قلبي . الا تتحرك شواعرك امام استغاثة ام ؟ انجدني واشفق عليّ . ساعدني بقوتك . اعطني ماانتزعوه مني قهراً . استحلفك باسم يسوع ان تمد يدك اليّ وتنتشلني من هوّة اليأس اقسم لك اني امٌّ لاعاهرة تمضي وراء الخطيئة . أنا امٌّ تبحث عن ابنها لاعن لذتها ، أنا أنشد الامومة ، الامومة وحدها ، حتى اذا بدت تباشيرها واخذت تضفر أكاليلها على راسي ، طردوني من الدير . فأنجو من هذا السجن.

كان يخيل اليّ وانا اسمع كلماتها كأني في حلم . اعجبتني جرأتها وصدّقتها. وكيف اشك في نزاهة امرأة تطالب بحقها الطبيعي وتستغيث برجل مجهول وتصرح له علناً بقولها « انهم يمنعونني ان ألد ابناً ، انهم ينكرون عليّ حق الامومة فساعدني » .

ثم ذكرت امي التي لم أعرفها وقلت بنفسي من يدري انها لم تكن كهذه المرأة ؟ من يدري ان امنيتها لاتشبه أمنية هذه المرأة ، من يدري انها استسلمت لأبي مدفوعة بعامل الامومة ؟

فلم يسعني آنئذ الا ان اعانق هذه الصبية واستغفرها قائلاً :

– سامحيني ، لقد اسأت ظني بكِ فسامحيني باسم والدة يسوع .

– ثم أهويت عليها فضممتها وضمتني وطبعت على فمها قبلة نقية مقدسة وما زلنا متعانقين وقد امتزجت روحي بروحها الى ان أنشدنا آية الحب والحياة .

وما ان صحوت من هـــذه السكرة وأفقت حلمي المجنح حتى اعترضني خاطر شيطاني أقلق فكري فقلت في نفسي :

– من يدري انها لم تخدعني ؟ من يدري انها قصت قصتها على كثيرين قبلي؟ من يدري انها احتجت بالامومة فأوقعتني في اشراك حب شهواني ؟

قصت عليّ ماضيها فقالت أن أبويها توفيا عندما بلغت الرابعة فاحتضنها عمها وكان سكيراً شريراً يقضي الصيف على سطح الماء والشتاء في الغمقات « المستنقعات » كالضفادع وفي السابعة عشرة خدعها شاب ثري فولدت ابناً .

كانت تقص عليّ ماضيها بصوت حنو شجي يحرك شواعر النفس ، وكانت يدها الحارة مطوقة عنقي ورأسها متوسداً كتفي .

وكنت اصغي الى حديثها وقد تجاذب قلبي الشك واليقين .

اننا كلنا ننسى ان امرأة هي التي ولدت المسيح ورافقته الى الجلجلة متجلدة صابرة . اننا ننسى أن المرأة هي ام القـــديسين وكل العظماء وكل الرسل والاطهار .

لقد أضاعت مطامعنا التافهة وشهواتنا السخيفة إدراكنا وشعورنا فلم نقدر المرأة قدرها ولم نوفها حقها من الاكرام بل اتخذناها مطية واستعبدناها وأذللناها فعادت لاتلد لنا المخلصين الفداة بل المسوخ الذين هم ثمار ضعفنا وبلادتنا .

ثم أخذت تحدثني عن الدير ، فعلمت انها ليست الوحيدة التي ارغمت على المكوث في المحبس.. وفيما كانت ماضية في حديثها اذ سكتت فجأة وأسرت قائلة :

– لي صديقة عذراء نقية طاهرة تنتمي الى اسرة غنية وقد سجنتها امرتها

في هذا الدير على الرغم منها ، واهاً لها كم تتألم وتتعذب ! لو كنت تشعر بمرارة روحها لأشفقت عليها ، انها تتمنى ان تلد ابناً ، هي مثلي تسعى وراء الامومة وهكذا يطردونها من الدير فتسترد حريتها المفقودة وتعود الى اسرتها .

وما كادت هذه العبارة ترن في مسامعي واستوعبها حتى قلت في نفسي :

– رباه ، ما أشقى هؤلاء الفتيات ! ان ما قصته عليّ هذه المسترهبة انتزع من قلبي الايمان بعظمة الله وعدالة شرائعه . أين هو الله الكلي القدرة لا يرمق مخلوقاته بعين الرحمة والرأفة ؟ أمن العدل ، أمن الانصاف ان تقف المخلوقات البشرية موقفاً قاسياً فظيعاً لتجري الشريعة وتفوز ؟

ثم همست كريستينا واسرت قائلة : اذا شئت ، اذا استطعت ان تنقذها .

ذهبت هذه الكلمات بما كان قد علق في قلبي من الشك ، وادركت بعد سماعها ان كريستينا نقية طاهرة ، وانها لو لم تشعر بعظمة الامومة لما طلبت مني ان اساعد صديقتها كما ساعدتها وحققت امنيتها .

لقد كانت كريستينا مخلصة في كل ماقالته ، وكانت توسلاتها صادقة ، وانا اسأت بها الظن وحسبتها تخدعني لتنال مأربها الشهواني .

لذلك لم يسعني الا ان اعترف لكريستينا بما خامرني من الشبهات والظنون وكيف اني ارتبت في تصديق قصتها ، فاستاءت واخذت تبكي ، فلم اجسر ان اوجه اليها كلمة اطيب بها نفسها .

قالت موبخة معنفة : اتظن اني لم اذب حياء عندما دعوتك ؟ ام تحسبني همت بجمال طلعتك وقوة عضلك فجئت كالمستعطية اشحذ منك اللذة الجسدية ؟ كلا ، انك مخطىء . فأنا دعوتك لأني رأيتك قويم الاخلاق وقوراً ذا نظر سديد ، رصيناً في قولك وعملك بعيداً عن التحرش بالمسترهبات الفتيات . رأيت الشيب وقد وخط شعرك مع انك في شرخ الشباب فاستدللت على انك كريم

نبيل الاخلاق . عندما وجهت اليّ عباراتك الاولى المملوءة بالخبث حسبتك تخدعني وتسخر مني فبكيت ولكني اعملت فكرتي وعزمت على ان ادعوك .

فتضرعت اليها قائلاً : سامحيني واصفحي عني .

فعانقتني واجابت : غفر لك الله .

وفي هذه اللحظة قرعت الراهبة العجوز باب الحجرة وهمست :

ــ لقد حان وقت الانصراف وقريباً تقرع اجراس صلاة الفجر .

فخرجت وتبعتها وفيما كنا نجتاز الاروقة اذ بها تسألني : الا تعطيني رويلاً ؟

فكظمت غيظي وكبحت جماح غضبي لكي لا اضربها .

قضيت برفقة كريستينا اربعة او خمسة ايام ، كنت اود ان اقضي مـــدة طويلة ولكن الراهبات المرتلات (صف الخورس) والمسترهبات اخذن يضايقنني ويتحرشن بي وانا لاطاقة لي بهن ولا رغبة في الاشراك .

وكنت في الوقت نفسه ميالاً الى العزلة والانفراد للتأمل بهـذه المغامرة الغرامية التي فاجأتني على حين غرة . اليس في قصة كريستينا مايدعو الى التفكير والتأمل ؟

كيف يستطاع أن يمنعوا المرأة من ولادة الابناء مادامت هذه رغبتها وما دام الأبناء مبدأ حياة جديدة ؟ أليست الامومة مصدر الحياة ؟

وهناك أمر آخر رأيت ان أحول دون وقوعه .

كانت كريستينا قد عرفتني بصديقتها التي رغبت اليّ في مساعدتها على الخروج من الدير وكانت هذه الفتاة المسترهبة تدعى جوليـــا وهي نحيفة الجسم شقراء الشعر ، زرقاء العينين فيها ملامح من اولغا قرينتي المتوفاة .

كانت ذات محيا رقيق وطلعة وضاءة ونظرات تفيض كآبة ولا انكر اني ملت الى هذه الفتاة التي كانت تدفعني اليها كريستينا بالحاح ، فقد كان جمالهـا

عميقاً صامتاً يجتذب القلب والبصر ، غير اني اعتففت وأبيت أن أدنس طهارتها وهي عذراء نقية لم تعرف رجلاً خلافاً لكريستينا .

ودّعت كريستينا فاستعبرت وطلبت مني ان اواصلها برسائلي لتوافيني بأخبارها وتطلعني على مايجد من حبل او سواه . وبعد مغادرتي الدير كتبت لها فجاوبتني بكتاب لطيف ثم بعثت لها برسالة اخرى ولكني لم أتسلم جواباً .

وبعد سنة ونصف جاءني كتاب منها أخبرتني فيه انهـــا اطفلت وولدت ذكراً جميلاً يفيض صحة وجذلاً دعته ماتفي باسم أبيه ، وانها تعيش مع امرأة عمها لأن عمها توفي . وقد اوردت في رسالتها هذه العبارة التالية : (انا الآن مالكة زمام امري وسيدة نفسي ، فاذا جئت استقبلك على الرحب والسعة)

وانا كنت مشتاقاً الى رؤية ولدي ومعانقة امرأتي التي قضيت معها بضعة ايام ولكني في هذه الاثناء قد اهتديت الى الطريق القويم فلم يتيسر لي ان اجيب النفس الى رغباتها فكتبت الى كريستينا اقول لها انه اذا تعـــذر علي القدوم حالاً فسأسعى اليها في الفرصة الاولى . ولكني علمت بعدئذ انها تزوجت بأحد التجار وسكنت مع قرينها في رينسك .

وكريستينا هي اول من رأيتها من المخلوقات البشرية التي كانت تقابـل مصاعب الحياة بجرأة وتشمر عن ساعديها وتجمع كل قواها للنضال لنفسها وفي سبيل حياتها نفسها دون خوف او تردد ، غير اني لم اقدر آنئذ هـذه الصفات العالية قدرها ، ولو قدرتها لما افلتت من يديّ .

قصدت على اثر مغادرتي الدير الى المدينة حيث عزمت على البقاء فيها غـير اني رأيت معيشة المدن شاقة مرة صعبة مع انه لا تنقصني القوى اللازمـــة للكفاح .

كانت بلواي برفقائي العمال فوق ماتحتمله نفسي . خمول وجمود فكري

وصغارة وعبودة لصاحب العمل فكأن واحدهم يقول لمستخدمه : هو ذا انا رهين امرك ، إلتهم جسدي واشرب دمي فلا اعلم مايصيبني في هذه البلاد .

ان عشرة قوم كهؤلاء تقلق فكري وتنغص عيشي . كانوا يتعاطون الخمرة ثم يتخاصمون على التوافه ، كانوا ينشدون الاغاني الشجية الكئيبة ، مع هذا لاينفكون عن العمل ليلا ونهاراً اشباعاً لمطامع صاحب العمل الذي كان يجمع الثروة فوق الثروة على ظهورهم وبعرق جباههم .

كان هؤلاء العمال يعيشون كا لصحناء (سمك السردين) في صناديق تشبه التوابيت وبيوت قذرة ضيقة تعافها الحشرات ، فكانوا ينامون مختلطين . اما اللذائذ التي انصرفت اليها افكارهم فهي تنحصر في النساء وتعاطي الخمور .

وكنت اذا وقفت بينهم منددأ بالتنظيم الاجتماعي السيء اصغوا الي واهتموا بقولي ووافقوا على رأيي ، ولكنني اذا ارشدتهم ونصحت لهم وهديتهم الطريق القويم فقلت لهم « مع الله يجب ان نتفاهم ، وعن الله يجب ان نبحث » تنهدوا واعرضوا عن كلماتي التي لم يكن لها في قلوبهم صدى وكثيراً ما كانوا يسخرون بي ويتهكمون علي بكلمات قاسية .

لم احب المدينة ولا طاب لي العيش فيها . حركة دائمة وضجة دائمة ونزاع دائم . والكل يركض وراء الرزق ، ووراء بلغة من العيش مجبولة بدم القلب ومرارة الروح . وكان في المدينة حانات لاتحصى ، وكنائس لاتعد وعشرات الالوف من المساكن والاحمال والدور ، مع هذا كله ، فقد كان يخيل الي الناس ان المدينة ضيقة مزدحمة لاتتسع لساكنيها الذين يعدون بالالوف .

لم ار بين هؤلاء السكان واحداً يعيش لنفسه . كان كل منهم يسير مقيداً بواجباته ومهامه ، كان الجميع يجتازون طريق الحياة في خط واحد وعلى اعناقهم نير العبودية فذكرت حياتي التائهة في البراري والقفار ، والليالي القمراء التي

كنت اقضيها في الخلاء ، تحت سماء زرقاء صافية مرصعة بالنجوم والدراري .

ما اجمل الحقول وما احلى الأرض التي تطأها اقدامنا مخملية وتفترشها وثيرة!

في الحقول تبدو الأرض مستديرة جلية غير غامضة ، فاذا استلقى المرء فوقها شعر كأنه توسد صدر امه ، وكأنه عاد الى ايام الطفولة ببساطتها وسذاجتها ونقائها .

يستلقي المرء على الأعشاب بين الأزاهير والورود فتنتعش قواه بروائحها الذكية ويحس كأنه مضطجع على مهد الطفولة فيبتسم وكأن يد النسيم البليل تدغدغه ، ثم تتراآى له عرائس الغابات وحوريات الليل راقصة حوله عازفة منشدة اغاني الحياة وترانيم الجمال والفن ، وتنفتح امام باصرته كوى السعادة غير المتناهية ، ويشاهد كوثر الحب ويسمع خريره الرقيق ، اذا افاق من نومه خجل ان يطأ الأرض التي افترشها ، واقبل على الاعشاب والازاهير وسائر النباتات التي كست الأرض حلتها الخضراء يشبعها تقبيلاً !

ما اجمل الحياة في الخلاء ، في الحقول ، في الهواء الطلق ، لا يصد هبوبه حاجز ، ولا يقف في وجهه سد .

ما احسن الأرض ، وما احلاها يتكىء عليها المرء فيشعر كأنه متكىء على صدر حبيب يحبه ويغار عليه ويشكو اليه مايجول في صدره فيصيح :

— مباركة انت ايتها الأرض الحبيبة !

الفصل التاسع عشر

وميض نور ... في الظلام الحالك

ما كادت تبدو تباشير الربيع حتى غادرت المدينة موليـــاً وجهي شطر سيبيريا ، وهي المنطقة التي توسمت بها خيراً بعد ما سمعته من اوصافها المشوقة . وفي طريقي الى سيبيريا قادني رجل في السبيل الذي يؤدي الى معرفة الله وينـير النفس .

قابلت هـذا الرجل الذي كشف لعيني فجراً جديداً مابين برن وفيرخوتوريه .

جلست في منعطف الطريق امام حرجة استريح من وعثاء السفر ثم اضرمت النار وهيأت الشاي . وكان الحر شديداً والهواء ثقيلاً كثيفـــاً فيصعب علي التنفس .

وما انتصف النهار حتى نظرت رجلاً قادماً من برن وهو يغني بصوت اجش مرتجف فرفعت رأسي وجليت اليه بصري وارهفت اذني متصفحاً فاحصاً ، فرأيته قصير القامة يرتدي جبة وقد شد الي منطقته ابريقاً وحمل على ظهره

كيساً وقديرة .

كان هذا الرجل يمشي مسرعاً ، وما كاد يراني حتى هش لي وحياني ملوحاً برأسه .

فاستدللت بمظهره على انه احد اولئك الحجاج الافاقين الافاكين الذين يضربون في طول البلاد وعرضها استدراراً للرزق والكسب . وكنت احتقر هؤلاء الطراوين لأنهم قوم كسالى لايأنفون من الكذب ولا يتورعون عن السكر والسرقة وارتكاب الفحشاء متسترين بمظاهر التورع والزهد الكاذب . وما ان دنا مني حتى رمى اثقاله وحياني قائلًا : سلام لك ايها الاخ ، مااشد هذا الاوار ! ان نار الجحيم اخف وطأة من هذا الحر .

فسألته : أمضى على مجيئك من الجحيم زمن طويل ؟

فأجاب : أكثر من ستمائة سنة .

كان صوته رناناً ولهجته جذلة ورأسه صغيراً وجبينه عريضاً متسعاً اما وجهه فكثير التجعدات والاسارير دقيقها حتى يخال الى من يراها انها خيوط العنكبوت .

وكان الشيب قد وخط لحيته التي اعتنى بتسريحها وصقلها ، امـــا عيناه السوداوان فكانتا تلمعان كعيون الفتيان .

ثم مضى في هذره فقال : ما أجمـــل اورال (جبال في روسيا على تخوم سيبيريا) . ان الله رسم الارض على أجمل شكل وأحسن ذوق فأبدع كل الابداع ، وتجلى فنه العظيم في هذه المناظر الطبيعية الفتانة ، حرجات وانهار وجبال !

كان يتكلم وهو ينفض غبار السفر عن جبته ويصلح من شأنه .

ولما رأى الماء يغلي في ابريقي رفعه عن النار وسألني بلسان من له دالة على الآخر :

- تعال نتناول الشاي . اتحب ان تشرب مما أحمله ؟

وقبل أن اجيبه تابع قائلاً : ان الشاي الذي معي حسن جداً وقد اعطتنيه امرأة تتجر بالصنف . هيا تذوقه ..

فلم اتمالك نفسي آنئذ عن ان اقول له ضاحكاً :

- ما أطلق لسانك في الكلام واسرع يدك في العمل .

فأجابني دون ان يرتبك : انت لم تر شيئاً بعد . ان الحر يقتلني ، دعني استرح وبعدئذ ترى مني مايسرك .

فذكرت آنئذ سافيلكو وخطر لي ان امازحه ، بيد انه مامضت خمس دقائق حتى سمعت منه ماحيرني وادهشني ، فملت اليه بسمعي اصغي الى اقواله وانا امامه كالمشدوه . مضى في حديثه فقال :

- تأمل هذه المشاهد الطبيعية الفتانة ، الا تذكرنا بالفردوس ؟ الا تراها رافلة بحلل العيد . انظر الى الجبال المرتفعة بجلال إلى السماء ، والى الغابات تمتد فوق قممها مرتلة اغاني البهجة والحبور . انظر الى الحياة تتدفق في بطن الأرض بصورها واشكالها المختلفة . فعلام انت ، انت ايها الرجل ، سيد الارض والمخلوقات ، علام انت كئيب حزين ؟

فأردت أن أمتحنه وقلت له :

- وما يصنع الرجل اذا ساورته الافكار الكئيبة الشجية وتغلبت عليه ؟

فأومأ بأصبعه الى الارض وقال : ما هذا الذي امامك ؟

- ارض .

- كلا ، انظر الى مافوق الارض .

- العلك تعني الأعشاب ؟

- كلا ، انظر الى مافوقها .

ــ اني ارى ظلي .

ــ اصبت ، هذا ظل جسدك ، وانما افكارك ظل روحك ، وخيال نفسك فلماذا ترهب ؟

ــ لا ارهب شيئاً .

ــ كذبت ، لولا خوفك لجاءت افكارك جذلى تفيض حبوراً . الخوف يلد الحزن وهو ينشأ عن نقص الايمان ، افهمت القضية ؟ اشرب الشاي .

وكثيراً ما كان يخاطبني ويضحك وهو لا يرفع بصره عني ، فكنت اصغي اليه كما يصغي المسافر التائه في الغابات الى قرع جرس بعيد فيرهف اذنيه وهو يحسب سمعه قد خدعه ، فاذا رن صوت الجرس واستيقن ان سمعه لم يخدعه امتلأت نفسه غبطة وبهجة وقام يتبع الصوت مسترشداً به :

سألته عن غرفته فأجابني :

ــ يدعونني لغيودويل ، القصاص الطروب ، واحسن الاصدقاء لنفسي .

ــ اكنت كاهناً ؟

ــ نعم . سموني كاهناً ولكن مدة كهنوتي لم تطل اذ انتزعوا مني السلطة الروحية وكفوا يدي من خدمة القداس والوعظ في الكنائس . وهل تدري الذي حملهم على معاقبتي ؟

كنت القي المواعظ على الشعب واخطب فيه محركا شعوره الساذج مفسراً له آيات الانجيل بمعناها الحقيقي ، فما مضت مدة حتى استعذب الشعب عظاتي اقبل على سماعها بارتياح شديد . فساء الرؤساء نجاحي الذي لم ينله كاهن مثلي واندفعوا بعامل الحسد فجرموني واشتدت نقمتهم على الرعية ، ولولا القليل لسجنوا كل من تحمس لي !

كان يقص عليّ حكايته وهو يضحك ، فيبدو لناظره ان ضحكه يتراقص

في اسارير وجهه . كان يضحك فتضحك جوارحه .

وكان اذا القى نظرة الى ما حوله من الغابات والجبال شمخ بأنفه واخذتـه نشوة الاعجاب كأنها من صنع يديه.

ولما خفت وطأة الحر تابعنا سيرنا ، وفي الطريق سألني : وانت من انت ؟

فأخذت استعرض الماضي امامه كما استعرضته امام انطوني ،وشرعت اقص عليه حياتي واخبار لاريون وسافيلكو فكان يضحك ويقول :

— ما احسن هذين الرجلين ! حقا انهما من ابناء الله . هكذا فلتكن الرجال والا فلا ، هما من نخبة الارض الروسية ، من رجالها العظام .

واني والحق أقول ، لم أدرك معنى اسرافـــه في الثناء على لاريون وسافيلكو . واستغربت أن يلقبهما بهذه الالقاب العريضة التي رأيتها كالثوب الفضفاض .

وكنت استغرب كثرة ضحكه وشدة جذله ، كان يأخذه الضحك فلا يستطيع السير فيقف متلوياً ويرفع نظره الى السماء هاتفاً طروباً حتى يخيل الى من يراه ان له في الجو صديقاً يريد أن يشركه معه في اغتباطه وابتهاجه .

ولما قلت له انه يشبه سافيلكو تعجب واجاب :

— أصحيح ؟ ان لي في هذه المشابهة فخراً ومباهاة . آه ياصديقي ، لو ان الكنيسة لم تقس علينا وتحطمنا ، لتغيرت الاشياء كلها . .

وعندما حدثته عن تيتوف تراءى لي ان رفيقي يعرف حمي فانهال عليـه بالشتائم وقال : لقد تعرفت بكثيرين من الاوغاد اللؤماء الجبناء الذين يمتصون دماء الشعب . تيتوف ليس الا نزّافة بشرياً يعيش كالعلق من دماء الآخرين !

غير اني بعد ماأطلعته على حكايتي مع انطوني ، أعمل فكره وأجاب :

— انطوني كان جاحداً زنديقاً . ولكن كثيرين يندفعون بعامل الغباوة

ويكفرون . وهذا أسوأ أنواع الكفر .

كنت أصغي الى أقواله بانتباه فلا أترك كلمة واحدة دون ان أستوعبها في ذهني . لقد رأيته داهية يافعة ذا فكر ثاقب ورأي سديد . ولذلك ماعتمت ان خاطبته كما يخاطب المعترف كاهنه، فبحت له بما يجول في خاطري . غير اني لم أجسر ان افشي له مايخامرني من الشك في الله فكنت كلما حدثتني النفس ببسط ريبتي وظني عقل الخوف لساني فأسكت .

كانت صورة الله المرسومة في روحي قد اعتراها الصدأ واكمدّ لونهـــا فكادت تمّحي ، وانا اريد ان اجلوها وأنزع عنها ماعلق بهـــا من غبار الايام والحوادث فتبرز جلية واضحة زاهية . ولكنني لحظت اني كلما حاولت جلاءها ازدادت امحاء ودرساً ، فأشعر بقلبي يرتجف ويهتز متلهفاً .

وكان رفيقي يلح عليّ بالكلام ويدعوني الى افشاء اسراري قائلا :

– لا تخش شراً ، اذا كنت تخفي عني شيئاً فإنما تخدع نفسك . تكلم ، تكلم وبح بمكنونات صدرك .

فكنت اتشجع واقص عليه مايحضرني من دفائن قلبي . وما يخالجني من افكار . فلا يلبث ان يجيب عما القيه عليه ، وما زلنا نتجاذب اطراف الحديث الى ان أدركنا الظلام فأخذنا نبحث عن مكان يصلح لمبيتنا فيه الى ان وجدنا صخرة عظيمة هبطت من الجبل فغلت حولها الاشجار وافترشتها الاعشاب.

وبعد ان جلسنا على كتفها واسترحنا ، شرعنا نضرم النار ثم هيأنا الشاي.

وملت الى رفيقي فسألته : والآن ماذا تقول في ماقصصته عليك ياصديقي ؟

فضحك واجاب : سأروي لك كل مااعرفه دون ان اخفي عليك شيئاً .

انا لاأعلم واعظ بشراً ، وانما اقص دون ان اؤكد او اثبت.

ان التوكيد لايلجأ اليه الا اولئك الذين يهددهم مجرى الحياة بخطر عظيم

او اولئك الذين يضر بهم انتشار الحقيقة وترويجها .

هؤلاء اذا علموا أو وعظوا اكدوا اضطراراً ، اذ انهم يرهبون عظمة الحقيقة الآخذة بالانتشار والنمو والمالئة القلوب نوراً ، فلا يلبثون بعدئذ ان يتناولوا جزءاً موافقاً لمصالحهم من الحقيقة ، وبعد ان يضعوه ويكسبوا عليه في قالب خاص يقدمونه كتلة صغيرة صارخين :

ـ هذه هي الحقيقة ، الغذاء الروحي النقي الطهور ، هذه هي كما هي الآن وكما ستكون في مدى الاجيال .

وعلى هذا يشوهون جمال الحقيقة ويخنقونها ويضيقون نطاقها منعاً لها من النمو والانتشار .

ان هؤلاء الرجال هم اعداؤنا ، واعداء كل ماهو جوهري حيوي ، اما انا فلا أستطع الا ان اقول شيئاً واحداً : الامور هي اليوم كما نراها . اما ماتصير اليه غداً فهذا أجهله ، ذلك لأن الحياة لم تعرف حتى الآن سيداً حقيقاً . وانا لا أدري مايصنعه عند مايأتي ولا مايعدله من الانظمة وينقضه من القوانين ولا مايقيمه من الهياكل . انا أجهل مايخبئه للعالم هذا السيد الحقيقي .

وكانت هذه اول مرة اسمع فيها هذه التعابير التي بدت لي غامضة مبهمة .

فقد تخيلت رفيقي واقفاً بي أمام باب مقفل ، اراني الباب ولكنه لم يرد أن يفتحه لي ولا شاء ان يكتشف ماوراءه .

كانت اقوال ليغودويل صعبة الفهم يستعصي ادراكها عليّ ، وكنت اذا قدحت زناد الفكر مستفسراً تطايرت من تعابيره شرارات نورانية لاتضيء ظلمات روحي حتى تنطفيء .

كانت الاظلال تحدق بنا ، والقمر تكبد السماء وأرسل أشعته الفضية ، وفوقنا الغابة وقد امتدت الى الجبل ، وفي الأعالي لمعت النجوم بين أفانين

الاشجار كأنها طيور من نار . كنت ادير لحظي في ماحولي فلا يقع الا على جمال صامت فتان وجلال ناطق بعظمة الكون .

وبعد أن كحلت عيني بمحاسن القبـــة الزرقاء سألت رفيقي ان يجلو لي تعابيره ويفسر ماأغلق علي ، ولكنه كان يحاذر الجواب عن أسئلتي ويجتنب الايضاح والتبيان . مع هذا لم اعدم سبباً أتوسل به لأقتبس من نور هدايتـــه وحكمته . قلت له :

– أكد لي أحدهم ان الايمان لايخرج عن التخيلات والاوهام فما قولك ؟

– لقد أخطأ من وصف لك الايمان بهذا الوصف ، ذلك ان الايمان شعور مبتكر خالق ينشأ من أعمق قوى البشر الحيوية ، هذه القوة الهائلة التي تحرك العقل وتدفعه الى العمل . والاسوأ ان البشر يعيشون مغلولين مقيدين تصدهم الحواجز عن الانطلاق ، ترغمهم على ان يصنعوا الخبز والحديد بدلاً من ان يكونوا أحراراً يستطيعون ان ينقبوا عن الثروات الحية الكامنة في النفس .

ان البشر لم يعرفوا حتى الآن كيف ينقبون عن كنوز النفس الثمينـــة وكيف يستخرجونها ويستخدمونها . ذلك لانهم يخشون ان تضطرب أرواحهم وتهب عليهم عواطف نفسانية شديدة لاقبل لهم بها ، وهذا مايحدوهم على صياغة تخيلات المسيخة وتصنيف الخرافات والاوهام .

فسألته : ولماذا تحاذر ان تفضي برأيك في الله ؟ لماذا تتجنب الخوض فيهذا الموضوع ؟

فنظر الي محملقاً مذعوراً وأجاب :

– ماهذا السؤال ؟ ان الله كان دائماً محور كلامي ، ياصديقي .

ثم ركع امام النار المشبوبة فانعكست انوارها على وجهه ، وبعد ان بسط يده قال بصوت خفيت ولهجة عذبة : من هو الله صانع العجائب ؟ اهو ابونا ام

ابن روحينا ؟

فارتعدت وشرعت انظر الى ماحولي قلقا خائفاً وقد عيل صبري ، فأرهفت اذني ّ واصغيت الى كلماته استوعبها واحدة واحدة .

وما عتم الكهل ان رفع صوته كأنه يناقش أحداً فقال :

كلا كلا ، الله لم يخلقه ضعف البشر وانما جاوزت قواهم حدها وطغت فابتدعوا الله . كلا كلا ، ان الله لا يعيش منفصلاً عنا وانما يعيش في داخلنا .

لقد اخرجوه منا لأنهم يتخوفون على القضايا الروحية فوضعوه فوقنا ليروا الى أي حد ّ تصل انانيتنا ، وهي دائما على خلاف مع قيود ارادتنا . اقول لك انهم حولوا القوة بعنف الى ضعف ليؤخروا نموها ويحولوا دون اشتدادها . ان مثلانيات الكمال مصنوعة على عجل وفي هذا من الضرر مافيه .

اما البشر فقد انشطروا الى قسمين : الاول لا ينفك عن اختراع الالهة وتزييفها والثاني كان ولا يزال عبداً لنزعته الى السيطرة على الارض كلها ، حتى اذا استولى عليها وتسلم مقاليد السلطة استخدمها ليؤكد وجود اله خارجي عدو للبشر مستقل عنهم ، فشوه سيد الارض وقاضيها محاسن يسوع ومسخا تعاليمه لان المسيح كان عدواً لها . كان مقاوماً لاستعباد البشر .

كان رفيقي يتكلم وملء قلبه ايمان حار فيفيض وجهه سروراً ونوراً .

وتابع فقال : بيد ان اولئك الذين يبتدعون الالوهيات هم قوم خالدون لأنهم يصنعون سراً دون انقطاع الهاً جديداً كاملاً يقبله العقل ، اله عدل ومحبة .

كانت عباراته تشحذ عزيمته وتملأ قلبي نوراً فأشعر بأن طرق الهداية انفتحت امام عيني واحس كأني كمي لا اعزل .

أخذت اتأمل ماحولي وأدرت لحظي في الاخيلة فاستولى علي شيء من الخوف وخيل الي ّ ان الارض تدور بي فقلت في نفسي : « واذا صح ما يقال

وكان الشياطين حقاً يستهوون الناس بخطبهم الساحرة؟من يدري ان هذا الكهل لم ينصب لي فخاً من الاكاذيب ليلقيني في جحيم الخطيئة الكبرى ؟ من يعلم انه لايحاول ان يلقي على عيني غشاء من الكلام المزوق ليزين لي الخطيئة ؟ من يدري انه ليس بطاغوت جاء يضلني بأكاذيبه العذبة ؟

وما عتمت ان ملت اليه وسألته :

– ومن هم اولئك الذين يصنعون الالهة ، واي الالهة تنتظر انت ؟

فأخذ يضحك غير عابىء بشيء واجاب : ان الذي ابتدع الله هو الشعب ، الكثير العدد المنتشر في كل الارض ، الشعب الذي هو اعظم من كل الشهداء الذين تقدسهم الكنيسة . ان الله صانع العجائب هو الشعب الحي الخالد وانا بروحه اومن والى قوته أتوسل وباسمه أبشر . الشعب هو مبدأ الحياة الوحيدة . الحقيقة الشعب هو ابو الالهة الغابرة واللاحقة .

سمعت كلماته فقلت في نفسي « انه مجنون » .

كانت مواعظ ليغوديل كقبس أهتدي به الى سواء السبيل . كانت كلماته تلقي في نفسي نوراً فتنحجب ظلمات الشك والريبة . غير انني شعرت فجأة بصدمة الخيبة وانا لا أزال في منتصف طريق الهداية فأحسست قلبي ينقبض وخفت أن اكون مخدوعاً واهماً فرفعت رأسي الى رفيقي وسألته مستفهماً :

– ماذا تعني بالشعب الذي تتحدث عنه ؟ أهؤلاء الفلاحون ؟

فشمخ بأنفه وأجاب : اني لاأعني طبقة معينة وانما اقصد المجموع كله دون استثناء . الشعب هو ينبوع الالوهية الأوحد ومعينها الخالد .

ان ارادة الشعب تستيقظ وهذا المجموع الكبير الذي انشطر بعامل الشدة والقساوة سيعود الى اتحاده . ان عدداً كبيراً من الافراد يبحث عن طريقة يسبك بها كل القوات الارضية في قالب واحد . وهذه القوة الموحدة هي التي

تؤلف اله الارض الهادي العظيم ، الاله العالي الذي يدرك كل شيء .

كان يتكلم بصوت جهوري كأنه يقول للجبال والغابات وكل الكائنات الحية اسمعي كلماتي وعي ما أقول .

كان يتدفق بكلماته وهو رافع يديه كأنه طائر على اهبة الطيران . أما أنا فكنت أسمع وأرى فأحسبني في حلم ويخيل الي ان جاثوماً ثقيلاً يضغط صدري فتطير نفسي شعاعاً .

ناديت الهي وتأملت صورته العظيمة التي رسمتها نفسي له ثم استعرضت أمامي أظلال المخلوقات البشرية الجاهلة الغاشمة وقلت :

ـ أهؤلاء هم الذين ابتدعوا الله ؟

ثم ذكرت الاحقاد الحقيرة والجشع والاهواء السافلة ونظرت الى الظهور التي قصمها الذل والعمل والعيون التي قرحتها الدموع الحرى وذكرت عمه البصائر وخفاف الحصاة والحمقى والاثمة فقلت بنفسي لنفسي :

ـ أمثل هؤلاء يستطيعون ان يبتكروا الهاً ؟ هذا لايجوز أن يكون !

فابتسمت روحي ابتسامة مرة وشعرت كأن رفيقي رماني بسهم سخريته ومهزأته فقلت له عابثاً غاضباً :

ـ آه ياعزيزي ، لقد هشمت روحي . اهكذا تخاطب الناس كلهم وهكذا تعلمهم ؟ انك في عرفي ترتكب خطيئة كبيرة ، انت قاس لاتشفق على البشر ، عن البأساء والعزاء يبحث الناس لاعن الشكوك ، وانت انما تزرع الريب والظنون .

فضحك وأجاب : ستمضي مثلي في الطريق نفسه ! ستتبعني في سبيلي !

فغاظني ضحكه ورددت عليه قائلاً :

ـ كلاً كلاً ! اني لن أضع الانسان في مصف الله ؟

- ولا ينبغي لك ان تضع الانسان والله في مرتبة واحدة ، واذا ساويت بينهما فانك تبتدع سيداً . وانا لم احدثك عن الانسان وانما عن الشعب.

فثار ثائري على هذا الكهل عندما رأيته يضع الشعب في مصف الله ، وما الشعب عندي الا اجرب مقمل سكير ذليل مهان يجلد نفسه اذا لم يجد من يجلده، ويستعبد روحه اذا لم يلق من يستعبده ، فأين له ان يؤلهه ويخلق الآلهة ؟

ولذلك ما عتمت ان رددت عليه بلهجة شديدة قاسية : هذا مين وبهتان ، وما انت الا كهل احمق وجاحد مجدف فما هو الشعب ؟ وما عسى ان يكون؟

ان هو الا قذر الجسم سافل الاخلاق سخيف الفكر بذيء اللسان فقير الحال والنفس، لا يستحي ان يبيع روحه الأبالسة بأبخس الاثمان ، فكيف يستطيع بعد هذا ان يؤلهه او يفكر في تصنيف الآلهة ؟

فما كاد الكهل يسمع هذه العبارات حتى تقهقر وانتصب وصب علي نظرات ملؤها الحنق والغضب وصرخ : الا فاسكت !

ثم بسط ذراعيه وحركهما وضرب الارض برجله ونظر الي مهدداً وتابع قائلاً :

- الا فاسكت ايها الثرثارة المهذار ! تلقحت بدم نبيل وما هو الا فاسد فجرت في عروقك المصالة كسائر الاشراف . اتدري على من تطعن ياهي بن بي ؟

انتم كلكم معشر النبلاء مقدودون من اديم واحد لافرق بين الواحد والثاني ، كلكم متغطرس عيل على البشرية يعيش بالسلب والنهب .

لقد سطوتم على الحزانى والمساكين وسرقتموهم ثم امتطيتموهم كالعير وسقتموهم الى حيث شاءت لكم الأهواء ، مع هذا تشتمونهم وتطعنون عليهم ولا تخجلون ان تقذفوهم بكل عوراء وسوأى !

كان الكهل يرتعد ويرتجف فابتعدت عنه حذراً من ان يضربني . لقد كنت ابدن منه واقوى ولو لكمته لكمة واحدة لقضيت عليه ، ولكني رهبته ورأيت يدي القوية اعجز من ان تمتد اليه بسوء .

ذكرت آنئذ الشتائم التي وجهها الي رئيس الاساقفة والاخ ميخا وسواهما من رجال الدين ولكن شتان مابين شتائم الكهل وشتائمهم .

اولئك كانوا اقوى مني، ومع هذا كنت اشتم في عباراتهم رائحة الخوف والجبن . بيد ان هذا الكهل الذي هو اضعف مني كان جريئاً جسوراً غير هياب، فخاطبني كما يخاطب الرجل فتى من الفتيان وغضب علي غضب الأب الكهل على ابنه الشاب، فلم اجسر ان احرك ساكناً امامه ، على حين اني ثرت على الذين شتموني من رجال الدين وكلت لهم الكيل كيلين .

كان الكهل ينهال علي بالقوارص واللوازع والتوبيخ فأصغي اليه مشدوهاً خاشعاً .

وتابع كلماته قائلا : وماذا تعرف من امور الشعب واحواله ايها الغبي الاعمى ؟ ادرست تاريخه ووقفت على نشوئه ومجرى حياته ؟ طالع اذن وانعم نظرك ، فأبونا الشعب الشهيد العظيم هو ايضاً قديس بل هو اعظم القديسين والشهداء .

تصفح تاريخ الشعب وسرح فيه رائد الطرف تتجل امامك عظمته وتدرك آنئذ معاني قواه وتحل ما استغلق عليك فهمه ، ايها الشريد الطريد التائه في صحراء الحياة !

اتعلم ماهي روسيا ؟ وما هي اليونان وروميه ؟ اتدرك العوامل والاسباب التي قضت بتأليف الحكومات ؟ اتفهم الروح والارادة اللتين دفعتا الى انشائها ؟ اتعرف اللغة التي يتكلمها الحكماء ؟ ان كل ماتراه على الارض وكل

ما تحفظه في ذاكرتك او تطبعه على صفحات قلبك انما هو من صنع الشعب وتصنيفه !

وقفت جامداً وكلي آذان وعيون . وكان الكهل يخاطبني بحدة وحماس، فرأيت العرق يتصبب من وجهه وشاهدت الدموع تنحدر من مقلتيه فشق عليّ هذا المشهد المؤثر وانفطر قلبي حزناً . اني لم ار واحــــداً بين المعلمين الذين وعظوني يبكي . اني لم الق واحداً من اولئـك الذين علموا ووعظوا يغضب للحقيقة الممتهنة فيبكي كما بكى هذا الكهل الزري المظهر الجليل المخبر .

وعندما هم بمتابعة الكلام قلت له : طب نفساً يارفيقي ولا تتأثر .

فانتهرني غاضباً ورفع يده متهدداً وقال : اسكت ايها الغبي ، اسكت ايها السبروت والا ضربتك .

فغلب علي الضحك وأجبته : يالك من رجل صالح ! سامحني اكراما ليسوع واصفح عن ذنبي اذا كنت قد اذنبت واسأت اليك .

فسكنت ثورة نفسه واجاب :

— انت لم تسيء الي ولا اهنتني ولكنك ظلمت الشعب بمطاعنك وشتائمك . فاذا جاز للنبـلاء ان يمتهنوا كرامته ويطعنوا به ويخنقوا صوته ويجلدوه ، فلا غرابة لأنهم ليسوا من الشعب ولا الشعب منهم . هم طبقة ممتازة . اما انت فمن انت ؟ الست من عامة العامة ، من صميم الشعب ؟ فعلام تسدد سهام مطاعنك الى صدرك ؟

ثم جلس يستريح بعدما مسح عرقه وقال : اسمع ما اقصه لك عن روسيا .

الفصل العشرون

على مفترق الطرق . . .

أصغيت الى أقوال رفيقي الكهل كل الاصغاء فأعجبتني نغمته العذبـــة وصوته الندي الذي كان يقع في نفسي أجمل وقع .

كان يسترسل في كلامه عن تاريخ روسيا بلهجة بليغة مؤثرة كأنه يقرأ الانجيل فيملأ قلبي خشوعاً وجلالاً .

رأيته وقد جثا على قدميه ورفع وجهه الى السماء وشخصت عيناه كأنه رسول سماوي يناجي الهه . خيّل اليّ وهو راكع انه كبيرٌ عظيم وان في جسمه الهزيل الزري المسبر نفساً علوية نورانية .

مضى في حديثه يقص علي تاريخ روسيا فذكرت ماطالعتـــه في كتاب أنطوني وتراءى لي وانا اسمعه ان الكتاب مفتوح أمامي اطالع صفحاته سطراً سطراً ، وأخذت اقابل بين كلماته وعبارات الكتاب فرأيت انها متشابهـــة الا في المعنى .

وبعدما شرح لي أسباب انحطاط روسيا سألني :

ـ أسمعت التفاصيل ووعيتها ؟

ـ نعم ، واني أشكر لك هدايتك .

ـ وهل استيقنت بعد هذا ان اولئك الابطال لم يوجدوا قط ، وان الشعب هو نفسه قمّص أعماله العظيمة في أشخاص خرافيين احياء لذكرى جهاده واستبساله في بناء الاراضي الروسية ونشر العمران ؟

ثم تابع حديثه عن الروس القدماء ، عن النواة التي انبثقت منها روسيا الحاضرة . هاقد ذر قرن الغزالة من وراء الجبال وشرعت جيوش الظلام تتقهقر امام اشعة الشمس الزاحفة عليها فتختبىء في الغابات وتلقي الذعر في قلوب الاطيار فتستيقظ من رقادها قلقة ، ثم لاتلبث ان تطمئن فتغرد وتصدح . وكانت السحائب تمر فوقنا متراكضة متسابقة تسوقها الرياح وتذر بها في الجو البعيد .

وكنت انا ورفيقي متكئين على الصخرة وقد افترشنا العشب المخضوضل بندى السحر . كان هو يبعث الأجيال القديمة وينشر ابناء القرون الماضية . وكنت انا أصغي اليه مدهوشاً بأعمال السلف متردداً في تصديق فتوحاتهم العمرانية في بلاد كشّرت لهم فيها العناصر الطبيعية عن انيابها وناصبتهم العداء .

كان يقص عليّ تاريخ استعمار روسيا وصف شاهد عيان كأنه رأى رأي عينيه وسمع سمع اذنيه . قال :

ـ كانت الفؤوس الثقيلة تحركها السواعد القوية تسطو على الغابات المترامية الكثه التي امتدت في كل الآفاق فتجندل الاشجار وتترك الحرجات أثراً بعد عين وتنشيء فيها المدن والاديار والقرى . ثم لاتلبث بعدئذ جنود العمران ان توغل في الداخلية مرافقة مجرى الأنهار المتجمدة وهي تنشد أغنية النصر هازئة

بالعناصر الطبيعية .

هؤلاء هم رسل العمران يكتسحون المجاهل المتمردة الثائرة ويرتادون المفاوز والبوادي وينشرون فوقها ألوية العمران ويبثون فيها حياة جديدة .

ثم قام الامراء سادة الشعب فأقطعوا مواليهم الاراضي التي قسموها الى حصص صغيرة وكانت هذه الاقطاعية بمثابة عبودية المجموع للأفراد .

وكان الامراء يحاربون بلا انقطاع ويرسلون الى ساحات الموت عبيدهم أبناء الشعب دون شفقة .

ثم جاءت قبائل التتر من سهول ستيب غازية فاتحة ، فماذا صنع الامراء للدفاع عن حرية الشعب ؟ ان واحداً منهم لم يتحرك ولا اهتم بصد الغزوة التترية ،بل العكس جبنوا وخافوا وخانوا الشعب الذي اهرق دمه في سبيلهم وقاموا يساومون امراء التتر (الخانات) على اولئك المساكين الذي بيعوا كما تباع المواشي ، وهكذا اشترك الامراء الغرباء في استعباد الشعب الذي سامه سادته خسفاً وذلاً .

ومضى في حديثه ينشر مطاوي المـــاضي ويستعرض حوادث السلف الى ان قال :

ـ ارأيت ماذا صنع الشعب ؟ أوعيت كيف اضطهدوه وظلموه وارهقوه ؟ فكيف اجزت لنفسك بعد هذا ان تحتقره وتزدله وتنهال عليه بالشتائم والمطاعن؟

لقد قصصت عليك ماقام به الشعب من الأعمال العظيمـــة مسيراً بارادة امرائه ،وبعد ان أستريح احدثك عن حياة روحه واخبرك كيف بحث عن الله وكيف ابتدع الالوهية . ثم استلقى على العشب وأغمض عينيه ونام كالاطفال.

اما أنا فلم أجد سبيلًا الى النوم ولا شعرت بسلطان الكرى فأقمت احرس رفيقي وقد اطلقت لافكاري وتأملاتي العنان .

كان يمرّ بالقرب منا بعض المسافرين فينظرون الينا شزراً ولا يكافون أنفسهم بتهادي التحية فقلت في نفسي : « أهؤلاء ياترى هم المنحدرون من اولئك الرجال الصالحين الذين بنوا روسيا ؟ أهؤلاء ياترى احفاد أولئك الجدود العظام الذين روى لي تاريخهم رفيقي ؟

كانت الحقيقة والخيال يتلبسان على روحي المتعبة الواهنة . لقد تركت مقابلتي اليغوديل أعمق اثر في نفسي فاستنارت بصيرتي وسلكت في الحياة طريقاً جديدة .

لقد أقلقت نفسي آراؤه في الله ابن الروح الالهية فاستولى عليّ الاضطراب بعدما سمعته يترنم بآثر الشعب وأعماله ويعزو اليه ابتكار الالوهيات .

ثم استعدت الى الذاكرة ماسمعته من المواعظ والتعاليم السالفة وتخيلت الرجال الذين تعرفت بهم واقفين امامي يلقون الخطب ويعلّمون ويشرحون الحقائق وينيرون الاذهان فلم ألقَ في كل أقوالهم الا خيالاً بديعاً ، أما الافكار والآراء فكانت سخيفة تافهة .

ثم انتقلت الى الحياة أستعرض مشاهدها فتجلى لي شقاؤها في الشغل الاجباري لكسب الخبز الضروري الممزوج بالدم ، وفي اشتية الجوع الطويلة القاسية وفي الامراض والاوبئة والآفات الفتاكة ، وفي غموم الايام العصيبة وسائر ماهنالك من العوامل العنيفة التي تنغص عيش البشر وتعبث بأرواحهم فتغمرها في حمأة المهانة .

تجلت لي هذه المشاهد التي اوجدها النزاع في سبيل الحياة فقلت بنفسي لنفسي اين الله في حياة كهذه الحياة ؟ وأي مكان يشغله فيها ؟

فملت الى رفيقي فخطر لي ان اوقظه وأصرخ به قائلًا : تكلم . أين الله ؟

وبعد قليل استيقظ الكهل فشكرني بابتسامة عذبة ثم رفع بصره الى

السماء وقـال :

- لقـد استغرقت في النـــوم وها الشمس تكبدت السماء ولا حيلة الا متابعة السفر .

- الى أين تمضي والحر يخنق الانفاس ؟ معنـا خبز وشاي وسكر ، فابق الى ان تخف وطأة الاوار . وفضلاً عن هذا فأنا لااتركك ياصديقي قبـل أن تفي بوعدك وتخبرني كيف يحث الشعب عن الله .

فضحك وأجاب : طب نفساً فسأطلعك على ماتريد .

ثم قطب وخاطبني جاداً فقال : ماتفي ، حتام تعيش شريداً طريداً ؟ لقد حان الك ان تعكف على العمل والدرس .

فأجبته : ألم يفتني الوقت ؟

فقال : تأملني جيداً . انظر الى وجهي لقد بلغت الخمسين ولا أزال أدرس على رفقائي وأعني بهم عمال المصانع . توجه الى أحد المعامـــل واختلط بالعمال وعش معهم سنة أو سنتين واقتبس منهم كما اقتبست انا .

على بعد مائة كيلو متر تلقى مصنعـاً كبيراً لي فيه أصدقاء كثيرون فسر اليه ولا تتوان .

فقاطعته قائلاً : قص عليّ أولاً ماوعدتني به وبعدئـذ افكر في مايجب عمله . فأطرق مفكراً ثم رفع رأسه وقال بلهجة عذبة وصوت رنان :

- ان يسوع هـــو الاله الاهلي الاول ، ولد من روح الشعب كولادة العنقاء من رمادها .

ثم تحمس وبسط ذراعيه أمام وجهه ورفع بصره الى العلاء كمن يبحث عن تعابير جديدة يصوغها وقال :

- لقد طالما حمل الشعب على عواتقه أفراداً مختارين وأعطى لهؤلاء الافراد

عمله وحريته ثم رفعهم الى مافوق مرتبته وانتظر بفارغ الصبر ان يدلوه على طريق العدل. ولكن هؤلاء الذين اصطفاهم الشعب لم يلبثوا ان سكروا بخمرة المجد. وما ان هودتهم نشوة العلا حتى تنكروا للشعب الذي رفعهم وامتهنوا كرامة أنفسهم بمطلق سلطانهم وظلوا في علاهم غافلين عن الذين سموا بهم وهكذا أصبحوا عبئاً ثقيلاً على الأرض بدلاً من ان يكونوا عزاء وبلسماً .

ولما رأى الشعب ان اولئك الذين غذاهم بدمه واختارهم ليخففوا آلامه تحولوا الى اعداء ، أضاع ثقته بهم وارتد عنهم وترك اصحاب السلطان في عزلتهم فلم يلبثوا ان هووا وهوت معهم عروش مجدهم وعظمتهم .

وقد أدرك الشعب بعدئذ ان ناموس الحياة لا يقوم على العمل بمقتضى ماسنه اولئك الافراد الذين تساموا على اكتاف الشعب وبمطلق ارادته ، بل ان الناموس الحقيقي يقضي بأن يكون التسامي عاماً والارتفاع شاملاً للجميع وان يشاهد كل فرد من المجموع بعينه طرق الحياة .

ويوم شعر الشعب ان لاغنى له عن المساواة في الرفعة والعلو ولد يسوع فقمَّص عدد كبير من الشعوب مايحلمون به من العدالة في كائن حي وابتدعوا منه الهاً مساوياً للجميع دون تمييز بين هذا أو ذاك .

وهكذا اندفع البشر مرَّة اخرى بهذه الفكرة الالهية وعملوا على ربطها بغاياتهم القصية ووصلها بنزعهم الروحية الشديدة لكي يستبقوها بينهم الى الأبد وتعيش في قلوبهم على الدوام . وعندما اجتمعت هذه الافكار واتحدت برز منها اله حي هو يسوع المسيح ابن الشعب المصطفى !

كل ماذكره ليغوديل عن يسوع فهمته ووعيته غير ان كلماته المتعلقة بالشعب الذي استنبط يسوع ابهمت عليَّ واستعصى ادراكها. وعندما اعترفت له بالأمر أجابني : اذا شئت ان تعتقد فستعتقد .

وبعد مسيرة ثلاثة ايام قص عليّ فيها عبر التاريـــخ واموره وشرح لي تاريخ الشعب في الماضي والحاضر ووصف لي الاضطرابات العظيمـة واضطهاد الدين للأحرار المجّان الذين كانوا يوقظون خواطر الشعب ويزرعون الحقيقـة تحت ستار الدعابة والمزاح مثل سافيلكو فأثار ذهني بمشكاة ارشاداته وتعاليمه..

وبعد ثلاثة أيام وصلنا الى فيرخوتوريه ، فلم يلبث رفيقي ان قال لي :

– علينا الآن ان نفترق لأني سأمضي في طريق آخر .

فأطرقت حزيناً وقد صعب عليّ ان افارقه وهو الذي قادني بيده الى سبيل الهدى وبث فيّ روحاً جديداً وأزال ماعلق بنفسي من الاوهـام والريب .

ولما رآني مطرقاً مفكراً سألني : ماالذي تتأمل؟ بماذا تفكر ؟ اذهب الى المعمل فاشتغل وباحث اصدقائي العمال . اؤكد لك انك تجني احسن الفوائد. فالعمال قوم لطفاء يستقبلونك على الرحب والسعة ، وأنا تثقفت بينهم . فاذهب.

ثم تناول قصاصة ورق وكتب عليها بعض العبارات وبعدما أعطانيها قال:

ـ اذهب وعش بين العمال ولا شك انك ستذكرني بالخير ، هم رجال احياء منبعثون ، ألا تصدق ماأقوله ؟ فرفعت رأسي وأجبته سائلًا :

ـ ان البصر الحسير يرى اشيـاء كثيرة ، ولكن أتراه يحسن تمييزها ؟

فصرخ بي قائلًا : انظر الى داخلك . افحص ببصيرتـــك ، بعيني قلبك وعقلك . اني لم اقل اعتقد وانما قلت تعلم وابحث واستقص .

ثم تعانقنا وسار . كان يمشي بقدم ثابتة كأنـه شاب تملأ رأسه وقلبـــه الأحلام والأوهام . اما انا فوقفت حزيناً اشيعه بنظراتي الى ان غـاب عـن عيني ذلك الطائر الصداح الذي كان يتنقل من مكان الى آخر منشداً اغاريده العذبة التي تملأ القلب نوراً والروح حكمة ومعرفة .

وقفت حزيناً مطرقاً وقد تجاذبتني الافـــكار وانتابتني الهـــواجس

فاختلطت عليّ الامور ورأيتني عيياً كليلاً فضحكت من نفسي ورثيت لها معاً. وشعرت كأني انشطرت الى اثنين كلاهما عدو للآخر .

ثم مضيت في طريقي الى ان قابلت احد العمال فسألته : الى اين يؤدي هذا السبيل ؟

فأجاب : الى معامل ايزوتسكي .

فلم البث ان حولت وجهي شطر ناحية اخرى لأني لا اريد الذهاب الى حيث ارسلني ليغوروديل . اخذت اطوف في البراري تائهاً متنقلاً من قرية الى اخرى فما وقعت عيني على ماترتاح اليه نفسي . كان الشعب غليظاً جافاً فلم آنس به ولا ملت الى محادثته ومعاشرته . وكان الناس يرمونني بنظرات الارتياب والحذر كأنهم يرون فيّ لصاً او مجرماً فكنت اضحك منهم واقول في نفسي متهكماً :

« أهؤلاء هم الذين يبتدعون الآلهة ؟ »

وكنت كلما سألت احداً : الى اين يؤدي هذا الطريق ؟ اجابني : الى معامل ايزوتسكي ، فقلت بنفسي : يلوح لي ان الطرقات كلها تؤدي الى معامل ايزوتسكي !

وما ان سرت قليلاً حتى برزت امام عيني المصانع المعهودة ، غير ان دخانها الكثيف لم يجتذبني ولا استهواني . لقد خُيل اليّ اني فقدت نصف كياني فلم اكن ادري مااريد وشعرت اني تاعس بائس وان الخيبة اخذت مني مأخذها .

وكانت تنتابني بعض الأحيان ابتسامة شريرة وتنفجر مراجل الحنق في صدري فأود لو قذفت حمم شتائمي على العالم كله وعلى نفسي ايضاً .

ثم عزمت فجأة على الذهاب الى المصانع دون ان انتبه الى ما اصنع .

الفصل الحادي والعشرون

في طريق المعرفة والهداية

مازلت أسير حتى رأيتني امام جحيم هائل يقع على سهل قائم بـــين جبال جرداء قاتمة . وكانت تنجم من الارض بنايات شتى تندلع من سطوحها السنة النيران وتنفث مداخنها المرتفعة صعداً الى السماء البخار والدخان .

وكانت قرقعة الحديد وجعجعـة الآلات وضوضاء العمال تصم الاسماع وتوقر الآذان . وكنت كيفما ادرت طرفي لا أبصر الا الحديد والفحم والحطب والدخان والبخار . واذا تنشقت فالرائحة الكريهة .

وكثيراً ما كان يقع نظري على وجوه سوداء كالفحم تنتقل هنا وهـناك كأنها سحابات دكناء تتماوج على الارض .

هذه هي مصانع ايزوتسكي !

وكنت كلما تأملتها قلت في نفسي متهكماً :

ـ شكراً لك ياليغوديل ! لقد ارسلتني الى اجمل بقعة في روسيا !

هذه أول مرة رأيت فيها مصنعاً عن كثب . ولا غرابة ان يترك في نفسي اثراً سيئاً فما تعودت ان انتشق الهواء ممزوجاً بالدخان ولا الفت رؤية الوجوه

السوداء المطلية بالفحم ولا مرنت اذني على سماع القرقعة والجعجعة والضوضاء .

وبعد أن تأملت المصانع ملياً انحدرت من زقاق سائلًا عن بييرباجيك ، والغريب ان كل الذين سألتهم عن هذا العامل كان يجيبوني بلهجة خشنة فظة ، فكأنهم استيقظوا من نومهم على أثرجاسوم ثقيل هاج أعصابهم ولما يزل ، فكنت أغض عن خشونتهم قائلًا في نفسي : هؤلاء هم الذين ابتدعوا الله ؟

وفيما كنت افتش عن باجيك اذا بي أمام رجل يشبه الدب. كان هـــذا الرجل يلبس مبذلة لماعة لكثرة ماعلق بها من الدهن والزيت .

وبعدما سألته عن بييرباجيك أجابني : أنا هو ،فماذا تريد؟

فحييته قائلًا : أنعم صباحاً . اني أحمل رقعة اليك.

كان باجيك ضخم الجثة طويل القامة عريض المنكبين ذا لحية كبيرة علتها الاقذار . أما عيناه فصغيرتان لا تكادان تريان وقد غشيهما حاجبان كثيفان .

وبعدما سلمت اليه الرقعة نشرها وأخذ يقرأها ، فلحظت من حركات وجهه وتقطيب حاجبيه واهتزاز سباله ان قراءتها ليست بالامر السهل . غير ان باجيك لم يلبث أن هش وبش وترقرقت على ثغره ابتسامة الارتياح والسرور ولمعت عيناه الصغيرتان وانبسطت اسارير وجهه وسألني :

ـ أحيّ هذا الرجل الصالح ؟ آه كم انا مشتاق الى رؤيته . كيف حاله ؟ حسن حسن ، والآن تابع سيرك في هذا الطريق حتى اذا انتهيت توجه يساراً حيث تقع الغابة ، ففي سفح الجبل ترى بيتاً اخضر اللون فادخله وسل عن ميخائيل معلم المدرسة ونسيبي ، واذا قابلته فأطلعه على رقعة ليغوديل وانا بعد قليل اتبعك.

ثم مد لي يده مودعاً وسار مسرعاً فنظرت اليه مشدوهاً وقلت في نفسي : ما اعظم هذا الرجل . .

وبعد أن سرت قليلًا وصلت الى البيت المعهود فاستقبلني شاب لطيف الهيأة

يرتدي قميصاً ومئزرة قذرة وكان قد شمر عن ساعديه صيانة الكمي قميصه من الاوساخ التي تلطخت بها يداه . وما أن قرأ رقعة ليغوديل حتى سألني :

ـ وكيف حال الأب يونا ؟ ألم يقل لك انه سيأتي لزيارتنا ؟

ـ كلا ، لم يقل شيئاً ولكني لم أعلم ان اسمه يونا .

فرماني بنظرات الريبة واعاد قراءة الرقعة وقال : ما عسى أن يكون اسمه اذن .

ـ ليغوديل على ما قال لي .

فضحك الشاب وقال : هذا لقب اطلقته عليه ، أما اسمه الحقيقي فالأب يونا .

كان محدثي ذا شعر طويل صقيل مسترسل كأنه أحد الشمامسة اما وجهه فشاحب اللون وعيناه زرقاوان لامعتان .

وكان يصعد في نظراته ويتأملني كأنني قطعة من القماش بين يدي تاجر .

وبعد ان فكر قليلاً سألني : أمن زمن طويل تعرفت بيونا ؟

ـ تعرفت به منذ مدة قصيرة جداً وقضيت بصحبته أربعة أيام واربعة ليال . وقد استغربت المئزرة التي ارتداها فسألته : علام هذا الازار ؟

ـ كنت اجلد كتاباً فلبسته وقاية لثيابي .

ثم تابع كلماته فقال : ان عمي بيير باجيك لايتأخر ثم نتعشى . الا تريد أن تغتسل ؟

فاستنكرت سؤاله وحسبته يحتقرني فأجبته : وهل جرت العادة عندكم ان تغتسلوا ؟ فاستغرب واجاب : ما هذا السؤال ؟ اننا كلنا نغتسل !

فرددت عليه قائلاً : ذلك اني لم ار بينكم حتى الآن رجلاً نظيفاً .

فعبس وقطب حاجبيه وأجاب بهدوء ورزانة : ليس عندنا بطالون وكسالى . الكل يشتغلون باجتهاد . وكثيراً مايمنعهم ضيق الوقت عن الاغتسال .

وقد دلني جوابه علي انه أقوى مني . وفيما كنت اهيىء الجواب اذا بـه يخرج فشعرت آنئذ بخجلي الشديد .

كان البهو كبيراً نظيفاً بسيط الاثاث والرياش . في احد جانبيه مائـدة الطعام وفي الجانب الآخر مكتبة حوت فضلاً عن الكتب العلمانية نسخاً من التوراة والعهد الجديد وسواهما من الكتب الدينية .

ولما خرجت إلى ساحة الدار كان بيير باجيك قدعاد من المصنع فلما رآني أغتسل دنا مني وقال : وأنا أيضاً سأغتسل فهلا صببت الماء على يدي؟فأجبته الى طلبه ،وما ان أزال الاوساخ حتى رأيته نقي البشرة ذا وجه أبيض مشرب حمرة.

ثم جلسنا الى المائدة فدار الحديث بين العم وابن اخيه على امور خاصة بهما دون ان يسألاني من انا وما اريد ، ولكنهما كانا يرحبان بي ويتلطفان بتقديم المآكل ويرمقانني بنظرات العطف . ولما رأيتهما لا يشركانني في الحديث قلت لهما اني طالب معرفة وهدى وقد جئت لأطلع على أفكاركما وآرائكما .

فرد علي ميخائيل قائلًا : ان غرضك من المجيء الينا لم يخف علي بل ادركته حالاً . ولست أنت أول من أرسله يونا الينا ، انه يقدر الرجال قدرهم ويعرف كيف ينتقيهم .

شئت ان اناقشهما واجادلهما ولكنني لم اهتد الى الذريعة التي اتوسل بها لفتح الباب . وفيما كنت اعمل الفكرة اذ دنا مني ميخائيل وسألني بلطف : أتؤمن بالله ؟

ـ نعم اؤمن ! غير اني مالفظت جوابي حتى شعرت بطيشي ، لم اكن رصيناً في جوابي ، فهل اؤمن حقاً بالله ؟

وتابع ميخائيل سؤاله فقال : وهل تحترم البشر وتخافهم ؟

ـ كلاً .

ألا تعترف اذن بأنهم خلقوا على صورة الله ومثاله ؟

فلمعت أسارير عمه سروراً واشرق وجهه جذلا وحبوراً ، أما أنا فكظمت غيظي وقلت في نفسي ليضحك مني الآن ، ولكن ليثقفني ويقوّم اودي اذا كان حكيماً .

ثم ملت الى ميخائيل واجبته قائلًا :

ـ ان احترامي للناس يؤدي بي الى الشك في قوة الله .

ولكني شعرت حالاً بأني اخطأت التعبير في هذا الجواب أيضاً فقد شككت في الله قبل ان اعرف البشر .

كان ميخائيل ينظر اليَّ محملقاً وهو هادىء رصين ، أما عمه فكان يتنقل في البهو من ناحية الى اخرى وهو يصقل لحيته ويتمتم .

لقد أوقعت نفسي في مأزق حرج لا ادري كيف انجو منه . لماذا هويت الى حمأة الكذب فأبديت مالا أعتقد ؟

خجلت من نفسي ، وادركت ان روحي كانت كالنهنهة شديدة الشفوف ، وان افكاري وخواطري القلقة كخارم النحل المذعور تجري تائهة .

ولكني مع هذا لم اهن ولا استسلمت للضعف بل اخذت اجمع افكاري المضطربة لأصب كل ما يثقل قلبي . فعدت الى المناقشة واكثرت الكلام دون ان اكترث لوقوعه من نفسي العم وابن اخيه . اذا كان حكيمين فليأتيا بالبرهان وليرداني الى السبيل القويم . وبعد ان تعبت ومللت الكلام سألتهما قائلًا :

ـ والآن كيف تعالجان روحي المعذبة السقيمة ؟

فرد علي ميخائيل دون ان يرفع نظره وأجاب : انا لا اعدك مريضاً ...

فلم يلبث عمه ان قهقه فخيل اليّ عندما سمعت قهقهته ان شيطاناً هبط من

سقف البهو وسقط على الارض .

وعطف ميخائيل على كلماته فقال :

– وانما المريض من يغيب عن شده ويعمى عن رؤية مايرتكبه من سوء وشر وهو في عرف نفسه رجل يعيش . ولكنك على مـــا ارى سليم العقل والجسم . فأنت تبحث عن افراح الحيـاة وكل ما ينزع اليه اصحاء الابدان.

– فمن أين لي اذن هذه الروح المعذبة المتألمة ؟

– لأنك ترتاح الى هذا العذاب وتغتبط به .

فصرفت أسناني غيظاً واثار حنقي هدوء هذا الشاب ورصانته التي لا تحتمل ، مع هذا كظمت مايخالجني وسألته :

– أواثق انت بما تقول ؟

فرشقني بنظرات هادئة ورد علي بسكينة وقعت في صدري وقوع الحراب وقال : لو كنت مخلصاً لاعترفت بأنه لاغنى عن آلام روحك . ان هـــذا العذاب يضعك في مصاف سائر البشر وقد احتفظت به وسهرت عليه سهرك على الكنوز والاعلاق ، بل حرصت عليه حرصك على وسام ثمين أليس كذلك ؟

كان يخيّل الي وانا اسمع هذه الكلمات ان ميخائيل يصنع بي مايصنع عادة بالنحاس لصقله وجلائه ، اي يحكني بالرمل والرماد ليزيل الصدأ .

ثم اردف فقال : يلوح لي انك تخشى الاختلاط بسائر الناس فنشأت فيك عن هذه العزلة دون ان تعي فكرة المرض وقلت في نفسك : « انا مقروح الروح ولكن قروحي لي وحدي وليس بين الناس من تضارع جراحه جروحي فأنا لا احاشي بي أحداً !

فشئت الرد عليه ولكن خانني الخاطر . كان ميخائيل احدث سناً مني واضعف جسداً بيد انني لم اشأ ان اكون غليظاً خشناً امامه .

وكان عمه يئن ويتنهد كأنه دب مسجون في القفص .

وعاد ميخائيل الى الارشاد فقال : بيدانك مخطىء ، ياصاح . ان الآلام لا تجعل الك ميزة على سائر الناس . وهذا الوهم ، هذا الغرور ، البشر كلهم فلا ينجو منه احد . ولهذا السبب اصبحت الحياة مسيخة عاجزة .

الجميع يسعون في الفرار من الحياة ، فيحفرون ثقباً ينفذون من ورائه الى العالم وهم في عزلتهم . والحياة تبدو باطلة سخيفة عندما ينظر اليها الناس من خلف الكهوف والحفائر ، باستثناء النساك المتوحدين .

ومضى في حديثه فتكلم عن الرجال الذين لم يجسروا ولسبب وآخر على امتطاء الآخرين وقيادتهم الى حيث يستمرئون الطعام ، ثم قال :

ان هذه الحياة التاعسة الشقية الترابية الروح بدأت يوم انفصلت الفردية الانسانية الاولى عن قوة الشعب العجائبية ، عن امها الكتلة البشرية . ولما اذعرها العجز والعزلة تحولت او انمسخت في كبة ، أي لفيفة من الاهواء والشهوات المدعوة « انا » .

هذه « الانانة » اسوأ اعداء الرجل ، ذلك لأنها سحقت سدى بلا جدوى كل القوى العقلية المفكرة وكل ما في البشر من طاقة على ابتكار الروحيات بحجة الدفاع عن كيانها واثبات وجودها على الأرض .

ان الخمول الفكري في « الانانة » اعجزها الابتكار والابتداع ، وهي امام الحياة عمياء خرساء بكماء ، فانحصرت غايتها في الدفاع عن كيانها والتنعم بأسباب الراحة والهناء . واذا كانت قد شذت عن غايتها في بعض الأحيان ، فابتدعت اشياء جديدة انسانية قلباً وقالباً ، فلأنها اندفعت على الرغم منها بعوامل خارجية قوية كانت تهزها بلا انقطاع .

كنت اصغي الى خواطره وأنا كالمشدوه ، ان هذه الافكار التي القاها على

مسامعي فوعيتها كل الوعي وفهمتها كل الفهم ، كانت تلامس روحي وتدغدغها ، وقد طالما تخيلت هذه العرائس الفكرية ماثلة امامي تهمس بأناشيدها واغانيها حتى اذا ماسمعت اقوال ميخائيل وتذكرها وتذكرت تلك النغمة السحرية التي كانت تحرك اوتار فؤادي. اما الآن فقد البس ميخائيل هذه الخواطر حلة قشيبة من الألفاظ والتعابير الجلية وعرضها امامي منضدة منظومة باتساق وائتلاف وانسجام كعقود الدر .

مضى ميخائيل في كلامه الى ان انتصف الليل فاقتادني الى بيت يشبه الكوخ واستلقينا فوق الهشيم فما هو الا القليل حتى استسلم لسلطان الكرى فنام نوماً عميقاً . اما انا فلم البث ان نهضت وخرجت الى عرصة الدار فجلست على مقعد خشبي وارسلت طرفي في ما حولي .

اخذت اتأمل السماء فرأيت النجوم تتلألأ في كبدها ، غير ان القمر كان يرسل اشعته الفضية حيناً ثم لا يلبث ان يتنقب بحجاب سحابي كأنه عذراء حيية قدرعة فتختفي انواره وينتشر الظلام . وسرحت رائد الطرف في الغابة القريبة التي امتدت الى قمم الجبل وكسته بردها الاخضر المعلم .

وكانت المصانع الواقعة في سفح الجبل مكشرة عن اسنانها الحمر مدمدمة طوراً مهمهمة مرة ، وقد اندلعت السنة النيران من كواها العليا فلعب بها الهواء كأنه يحاول ان يختطفها ويطير بها فلا يلبث ان يرتد عنها قانعاً بدخانها ورمادها .

اعملت فكرتي في ما القاه عليّ ميخائيل فرأيت في تعاليمه قبس هدى وارشاد . انه على صواب في ماشرحه. ولكني مع هذا لم استطع ان امزج روحي بروحه بل بقيت روحي على عزلتها كأنها في بيداء لا مؤنس لها او رفيق.

اخذت استعيد على نفسي ماسمعته من كلمات يونا وميخائيل محاولاً درسها

ومعرفة ماعلق منها في خاطري وما انطبع في روحي. ثم شرعت اقابل بينها وبين افكاري الناشئة عن شعوري الخاص على امل ان اقرن بعضها ببعض واصل بين اجزائها. ولكني لم البث ان حزنت . فما هي افكاري ؟ وما هي خواطري؟وهل استطيع ان ابني على شعوري الخاص فكرة كبيرة عامة ؟

مضت الساعات فتخاوصت النجوم وكادت الشمس تمج شعاعها دون ان يفتح علي بما يرضي نفسي القلقة المضطربة . ها هو الليل يرتد امام جيوش النور وقد حمل معه نقابه الشفاف الذي نشره فوق الاشجار .

ها قد بدأت الأرض تبرز للعيان فتبدو لرائيها بشكلها الفوضوي كأن جباراً مدّ يده الى ذلك السهل فانتزع الاشجار وحفر الاخاديد وبعثر الصخور والحجارة .

ها هو المصنع كأنه لحد قائم الى جانب الجبل وقد تراكمت فوقه الاقذار وكساه الدخان بحلته السوداء . ها هو يستقبل العمال القادمين اليه فيبتلع في احشائه الواحد بعد الآخر . تأملت هذا المشهد فقلت في نفسي :

– هؤلاء هم الذين يصنعون الآلهة . وما احسن ماصنعوه !

ثم مضيت الى الكوخ ونمت نوماً عميقاً .

الفَصلُ الثّاني وَالعُشْرونَ

صعب على العبيد أن يؤمنوا بالله ويستوعبوا فكرته

افقت صباحاً على ضجة هائلة فمن صراخ شديد الى ركض وقفز ، ومن صفير الى غناء كالخوار ، فحسبت ان الجحيم فتح أبوابه وأطلق ما فيه من الأبالسة .

وما ان خرجت من مضجعي والقيت نظرة على عرصة الدار حتى رأيت عشرات الفتيان وقد انتصب بينهم ميخائيل وهو مرتد قميصه البيضاء ، فيخيل الى ناظره كأنه زورق نشر شراعه الأبيض وقد احتاطته القوارب .

كان ميخائيل جامداً ضاحكاً يهش للفتيان ويرمقهم بحنان وعطف. وكان هؤلاء يلعبون ويقفزون حوله وقد ارتدى بعضهم القمصان البيض والآخرون الحمر وسواهم الزرق ، فما لبثت ان شعرت بشيء يجذبني اليهم فوقفت بالقرب من الساحة اتأملهم. ولكن احد الصغار رآني فحذر رفقاءه مني قائلاً :

ــ انظروا هوذا كاهن امامكم !

وعلى الأثر اجتمع حولي جمهور منهم وأخذ يصيح بملء صوته : كاهن ! كاهن !

وكان الصغار يدورون حولي ويتأملونني فيقول احدهم : ان شعره شديد

الشقرة. ويقول آخر : وما اطوله !

فيرد عليه رفيقه : اياك ان تدنو منه والاقرص اذنك .

ويصيح سواه منبهاً محذراً : ابعدوا عنه . هيأته تدل على أن المداعبة لا تحلو له . فينتهره آخر قائلًا : علام الخوف وهو ليس بكاهن ، انما هو قندلفت .

ثم يتجادل الفتيان وينتهي بهم الامر الى سؤال ميخائيل عن حقيقة عرفتي (هويتي) فيقول احدهم : ايها المعلم ، ماهذا الرجل ؟

غير ان ميخائيـــل كان مضطرباً حائراً لا يدري مايقول لتلامذته ، فبقي ساكتاً . اما انا فلم ادر ما الذي دعاهم الى الاهتمام بشأني وما الذي لفت نظرهم الي بهذه الصورة الغريبة حتى حسبني بعضهم غولاً كما عدني سواهم العوبة ، مع هذا سررت برآهم فلم ألبث ان ضحكت لهم وصرخت مداعباً : تفرقوا أيهـا الطيور الكواسر !

ثم سار الي ميخائيل ومد يده محييا وقال :

– اننا منصرفون الى الغابة ، أتحب ان ترافقنا ؟

فأجبته الى سؤاله مسروراً بهذه الفرصة التي اتيحت لي . لقد كان ابتهـاج الصغار يملأ صدري جذلاً وحبوراً ، فكأن سرورهم يحرك اوتار قلبي المنقبضة فتفيض نفسي غبطة .

ذهبنا الى الغابة برفقة هؤلاء العفاريت الصغـار الذين انتشروا في طريق الجبل كريش نثره الهواء . اني لن انسى هذا اليوم . وكيف انساه وقد انطبع في قلبي! كنت اسير الى جانب ميخائيل وقد فاض قلبي سروراً بهؤلاء الفتيان الذين لم يعرفوا آلام الحياة وشقاءها .

كانوا يسرحون ويمرحون ويلهون فيتسابقون طوراً ويتخاصمون تارة ويهزلون اخرى ، حتى اذا ما اخذ العيـــاء منهم التفوا حول ميخائيل وانهالوا

عليه بالاسئلة :

ـ ما هذه الزهرة ؟ ما هذا النبات ؟

فلا يلبث ان يشرح لهم ما غمض عليهم بلهجة ملؤها العذوبة والرقة . وبعد ان تفرغ جعبتهم من الاسئلة ويرتوي ظمـأهم الى المعرفة وينالوا قسطهم من الراحة يجددون الكر والفر وينتشرون هنا وهناك مغتبطين مبتهجين لاهم يثنيهم عن اللهو ولا غم يقعدهم عن اللعب ولا اضطراب يزجرهم عن تساقي كؤوس الصفاء الساذج . وما ان ابتعدوا قليلاً حتى قال لي ميخائيل :

ـ أتراهم لم يخلقوا الا للعمل والسكر ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكن كل واحد منهم مستقر لروح حي . اتراهم يستطيعون الاسراع في انماء افكارهم فيتحرروا من ربقة الشك والتردد ؟ ربما استطاعوا . ولكن لاشك في انهم سيسلكون الطريق المظلم الضيق الذي سار فيه قبلهم آباؤهم . ان آباءهم يأمرونهم قائلين : اشتغلوا . كما يأبون عليهم ان يعملوا الفكرة .

كثيرون من هؤلاء الفتيان ان لم اقل كلهم سيخضعون للقوة البليدة الخاملة ويقيدون انفسهم بقيودها . ألا فاعلم ان مصدر الشرور ان لاتكون للنفس حرية النمو والنضج والنشوء .

وبعد ان كحل ميخائيل عينيه بجمال الطبيعة استطرد قائلا :

ـ الحياة حافلة بالرعب والارهاب . ان الحقد المتبادل يلتهم قوى النفس البشرية والحياة لا قالب لها ، فلنترك للاطفال الوقت اللازم لينمو أحراراً بدلاً من ان يتحولوا الى حيوانات تجر الأثقال . فلا تلبث حياتهم الداخلية والخارجية ان تستضيء بنور اللهب المتصاعد من نفوسهم الفتية الجريئة الحرة .

كنت كيف التفت رأيت أمامي رؤوساً شقراء وعيوناً زرقاء ووجوهاً زهراء ووروداً حية توشي بساط الطبيعة السندسي . تأملت هذه المشاهد الفتانة

فقلت في نفسي :

ـ أمن الصواب ان يتشوه هذا الجمال ويدوسه الجشع بأقدامه الثقيلة ؟ أمن العدالة ان تهدم يد الطمع هيكل الحياة ؟ وماذا يعني هذا ؟ يلد الطفل ويربى بين الملاهي والمسليات حتى اذا نما وصار رجلاً حمل اللعنة في فمه والألم في صدره والشراسة في خلقه فلا يستنكف عن ضرب امرأته ، ولا يأنف من التمرغ في حمأة الرذيلة محاولاً سلوان احزانه وآلامه بما يفرغه في جوفه من المسكرات .

وكأن ميخائيل أدرك مايجول في خاطري وتردده نفسي فأردف قائلاً :

ـ انما الشعب هيكل الله الحي . هو هيكل الالوهة الحقيقي الوحيد ، فالذين يقوضون دعائمه وينقضونه لايلبثون ان يسقطوا تحت جدرانه فتهشمهم وتسحقهم ، حتى اذا عادوا الى رشدهم وأنعموا النظر في عملهم السيء غلب عليهم الخوف والذعر فصرخوا يائسين (اين هو الله ؟) .

وقد نسي هؤلاء الهدامون الاشرار انهم هم أنفسهم قتلوا الله ! فذكرت آنئذ ما قاله لي يونا عن سقوط الشعب الرومي في عهد الانحطاط ، وطارت أفكاري مسرعة فرحة لاستقبال كلمات ميخائيل .

بيد أن محدثي كان يتكلم بطمأنينة وسكينة ، عجباً الا يثور ثائره فيغضب للشعب المظلوم المقهور الذي يعاني مرارة الحياة ؟

كان النسيم يداعب الازاهير والرياحين فيحمل شذاها في الفضاء وينشر رياها في الخلاء فينعش النفوس بأريجها . وكانت العصافير تزقزق مبتهجة مغتبطة متنقلة بين الاشجار طوراً عاكفة على نقد الحبوب تارة . أما الصغار فكانوا يلعبون ويمرحون وقد اكسبهم الهواء النقي الطلق صحة ونشاطاً وقوة وجمالاً .

اني لم ادرك قبل اليوم ما في الطفولة من الجمال الساذج والقوة الصامتة .

وعيت ما أفضى به ميخائيل فملت الى العزلة وقلت له مبتسماً :

– سأتركك ساعة ثم أعود ، ان في نفسي حاجة الى التأملات .

فرمقني بعطف وحنان وتجلت في حركات وجهه معاني الصداقة وأنا الذي قلما حظيت بصديق حقيقي . فلم استطع اخفاء ما يخالجني من الجذل وقلت كأني اشكر له شعوره الطيب :

– انك رجل عظيمياميخائيل !

فخفض بصره حياء وتواضعاً. ثم غادرته الى الغابة فانتحيت مكاناً قصيـــاً جلست فيه وأرخيت لافكاري العنان . أردت أن أجمع في روحي كل ماأعرفه وكل ماسمعته في الايام الاخيرة فرأيتني كأني محاط بقوس قزح ، وشعرت ان روحي كبرت وعظمت الى مالا نهاية له . وبعد قليل أحسست كأني غارق في لجج الافكار والتأملات ولولا القليل لنسي نفسي .

وفي الاصيل رجعت وقلت لميخائيـل اني أرغب ان أعيش معه ومع عمه الى أن آخذ عنهما عقائدهما وآراءهما ،واني اريد ايضاً ان يسهل لي عمه العمل في المصنع فلم يلبث ان أجابني :

– وعلام السرعة ؟ استرح وطالع أولاً فأنت لاتستغني عن قراءة الكتب

– اني لم اقرأ كتباً علمانية قط فاعطني مالا أستغني عن مطالعته كتاريخ روسيا مثلاً . فأدار لحظه في الكتب وألقى عليها نظرات العطف والحنان كأنها أولاده أو قطعة من كبده وأجاب : على الرجـــل ان يطلب العلم والمعرفة ويطالع كل ما تصل اليه يده من الكتب .

عكفت على المطالعة فقضيت أياماً كثيرة بقراءة الكتب ،ولكني كنت دائم القلق والاضطراب ، فليس بوسعي ان اناقش الكتب واجادلها. وكيف نتناقش وهي تجهل وجودي ؟ وطالعت ذات مرة كتاباً اقلق نفسي وعذبها . موضوع الكتاب يدور حول تكوين العالم ونشوء الحياة البشرية ، كل ماجاء في هـذا

الكتاب مناقض لرواية التوراة مخالف لتعاليم الدين .

اكببت على قراءته فلم تفتني شاردة او واردة ، وراجعته مستقصياً متحرياً فرأيت كلماته بسيطة جلية معقولة ، غير ان هذه البساطة نفسها اغرقتني في لجج التأملات فانتصب في ذاكرتي جيوش مؤلفة من قوات متفرقة كانت تتجاذبني وتتخاطفني فعدت الى الكتاب مفتشاً عن حل يقضي على ترددي وحيرتي ، ولكني لم افز بطائل ولما . استعصى علي الأمر سألت ميخائيل ان يجلو لي غوامض النشوء قائلاً :

— كيف يمكن ان يكون الامر هكذا ؟ اين الانسان في هذا الكتاب ؟

فأجاب : يلوح لي ايضاً ان في هذا التعليم خطأ ولكني لا اعلم اين هو . ارى الفكرة جميلة ، مع هذا ففي مسألة انشاء العالم مجال واسع للنظر .

ما سألت ميخائيل مرة فأجاب لاادري او لااستطيع ان اقول بل لبى سؤالي حالاً وشرح لي آراءه . وهذا مادلني على انه غزير المعارف أهل للاجلال والاكرام .

وكان اذا اعترف بجهله وهذا نادر ، فلأن مايعرفه في الموضوع مناقض لما يسمعه . لقد كان واسع الاطلاع فعلمني اشياء كثيرة كنت اجهلها وشرح لي بأسلوبه البسيط الشائق اموراً عويصة .

وقف يوماً والقى علي درساً في مبادىء علم الفلك ووصف كيفية تكوين الشمس والنجوم والارض ، فخيل الي وهو ماض في الشرح انه رأى بعينيه حدوث هذا العمل النوراني . وكيف احاول ان اقف على رأيه في الله فلم استطع . غير ان هذا لم يمنعني عن فهم مايقوله . كان يؤكد ان المادة هي القوة الأساسية في العالم فكنت أضع الله محل المادة وهكذا اطبق أفكاره على أفكاري . المادة عنده بمقام الله عندي فاذا تغير الاسم فالمدلول باق .

وكثيراً ما كانت تدور المجادلات بينه وبين عمة حول الله . فاذا لفظ

مرة كلمة الله اهاب به عمه فرد عليه متهكما قائلاً :

– هاقد عاد الى الخبط والخلط لاتصدق مايقوله ياماتفي .

فلا يلبث ميخائيل ان يلفت نظر عمه الى خطورة القضية في نظري فيقول :

– لاتنس ياعمي ان مسألة الله قضية جوهرية في نظر ماتفي .

فينتهره عمه وينكر عليه هذه التعاليم ويأبى الا التصريح الجازم القاطع قائلا :

– لاتكذب باميخائيل ! وأنت يا ماتفي لاتغتر باقواله ؟ اما لدين والكنيسة وسائر ما يتعلق بهما فقد تحولت الى ضرب من ضروب الاحتيال والغش والخداع باسم الله وتحت ستار التقوى والورع والوعظ والارشاد .

فأخذ ميخائيل يشرح نظريته وقال :

– ان الله الذي أعنيه في كلامي وجد عندما اتفق البشر على ابتداعه بقوتهم الفكرية ، وذلك لكي يضيئوا ظلمات الحياة . ولكن عندما انشطر الشعب الى عبيد وسادة ، عندما فقد ارادته وقوة تفكيره تحطم هذا الله ومات !

فلمعت اسارير عمه والتفت الي ضاحكاً وصرخ : أسمعت ياماتفي !أسمعت؟

واستطرد ميخائيل فقال : ان أعظم جريمة ارتكبها سادة الحياة هي في خنقهم قوة الشعب المبتدعة المبتكرة . ولكنه سيأتي يوم تتجه فيه حرية الشعب الى نقطة واحدة كما اتجهت سابقاً . وعندئذ تنبثق قوة عظيمة لاتقهر فينبعث الله ، وهذا الله سيكون الاله الذي تبحث عنه .

ولكن عمه لم يرتح الى هذا التفسير ولا استحسن الفكرة فرفع ذراعيه مشدوهاً ، وقال : لاتصدق ياماتفي ، لا تصدق ما يقوله .

وكان العمال يترددون الى منزل ميخائيل ويصغون الى مايدور من الاحاديث والمجادلات فكان المعلم يحدثهم عن الحياة وينتقد الشرائع والنظم . كان واسع الاطلاع متبحراً في الشؤون التشريعية التي كان يحللها تحليلاً جلياً وافياً . وكان العمال وجلهم من الفتيان الاقوياء الذين لفحتهم نيران الافران

الحديدية يصغون الى مايلقيه عليهم ميخائيل من التعاليم والآراء ويستعذبون خطبه واقواله التي كان يصقل معانيها وبوشي حواشيها .

حسبت هؤلاء العمال لأول وهلة حزانى يغلب عليهم الحياء والخجل ، غير اني لم ألبث ان رأيتهم يميلون الى الغناء والرقص ومغازلة الفتيات .

كانت الموضوعات التي يطرقها ميخائيل وعمه على مسمع العمال تدور حول نقطة واحدة ، هي سلطة المال وظلم العمال وجشع أصحاب المصانع والغاء الحواجز القائمة بين الطبقات .

اما انا ـ ولم اكن عاملا ولا صاحب معمل ولا غنياً او باحثاً عن ثروة فقلما اهتممت بهذه الموضوعات . .

كان يلوح لي ان البشر يعقدون على رأس المال شأناً خطيراً فوق مايستحقه . ولذلك يتهالكون في سبيل الحصول عليه غير حافلين بما يرتكبونه من السفالة والصغارة في هذا السبيل . وفي ذات مرة دارت مناقشة شديدة بيني وبين ميخائيل .

كانت نظريتي في هذه المناقشة منطوية على ان الرجل يجب ان يبحث اولاً عن وطنه الروحي حتى اذا وجد ضالته استطاع أن يرى المكان الذي يجب ان يحتله على الارض ويتمكن من الوصول الى الحرية .

كانت المجادلة حامية فدافعت عن نظريتي بحماسة وصلابة . وكان العمال ينصتون الى مايلقي في هذا الموضوع وهم سكوت كالقضاة الذين يسمعون حجج المتخاصمين . وقد سرّني ان العمال الاكبر سناً ذهبوا مذهبي ووافقوا على نظريتي .

ولكن ميخائيل كان يقرع الحجة بالحجة ، وبعدما يفند اقوالي يذريها كما تذري الرياح الهشيم ، فأستجمع قواي وآتيه ببراهين جديدة فلا يلبث ان يهدم

كل مابنيته . وعندما فرغت جعبتي علق على ماأبديته من الآراء قائلاً وفي قوله فصل الخطاب .

– انت على حق ياماتفي . عندما تقول ان الرجل يعيش محاطاً بالاسرار التي يجهلها فلا يدرك كنهها وصفتها ولا يدري أخاصمة هي ام موالية . ولكنك تخطيء اذ تؤكد اننا نستطيع ان نحطم نير الجشع بعد اذ قيدتنا سلاسل العمل اليومي الثقيلة ، دون ان يطير في الهواء الصجن المادي" .

علينا ان نعرف اولاً قوة عدونا الاقرب ونزن طاقته وندرس مداوراته واحابيله ونسبر غوره . ولأصابة هذا الهدف يجب علينا ان نتعارف تعارفاً وثيقاً ، ان يعرف واحدنا الآخر كل المعرفة وان نوحد ماعندنا ونسبكه في قالب واحد . فهذا الاتحاد يأتي بقوتنا التي لاتقهر بل التي تصنع العجائب .

ان العبيد لم يكن لهم اله قط . ذلك لأنهم ألهّوا الشرائع البشرية التي سنها لهم ساداتهم . ولن يكون لهؤلاء العبيد اله . لأن الله لايستطيع أن ينشأ قبل ان يشعر كل من البشر بقرابته الادبية لمثيله . فتبادل الشعور بالنسب الادبي بين البشر شرط جوهري للتفكير في الله .

لايشيد الهيكل بالصلصال وبقايا الابنية المتهدمة بل بالصخور الصلبة والجير .

والرجل عضو من أعضاء المجتمع فاذا انفصل عنه وانفرط فما امامه الا التلاشي .

الانفراد والعزلة دليل على عجز الروح وعمه البصيرة ، اما الوحدة والتماسك ففيهما الخلود .

من عاش منفرداً فما في عزلته الا العبودية والظلمة والعجز والموت ، وشتان بعد هذا ماالعزلة والوحدة ، ماالتماسك والتفكك ، او ماالبغضة والكلية .

خُيل اليّ عندما كان ميخائيل يتكلم ان عينيه تريان عن البعد نوراً عظيماً فما احسست الا وقد اجتذبني اليه بسحر بيانه وجمال فكرته وصفاء خياله .

كانت اقوالي في باديء الامر تقابل بعـــدم الاكتراث ، فكنت اذا شرحت أمراً او أبديت رأيا قابله الحضور بالسكوت غير حافلين بمـــا اقوله ، خلافاً لأقوال ميخائيل اذ كانت تحوم حولها أفكار الجميع فلا تفوتهم منهـــا شاردة . فلا البث ان أنسل من بينهم حزيناً وانتحي مكانا خليـــا فأتحدث الى نفسي .

ولكن العمال انسو بي بعدئذ وتمكنت بيني وبينهم صلات الولاء الناشئة عن المعاشرة فصار لكلامي بعض الوزن والقيمة في عيونهم وقدروه قدره ، فكان لي في هذا أعظم تعزية .

وكانت الصداقة التي نشأت بيني وبين تلامذة المدرسة قوية . كنت أعجب بهؤلاء الصغار وارتاح الى الاختلاط بهم ومحادثتهم كلما سنحت لي فرصة . حتى اذا جاءت أيام الاعياد التفوا حولي وحول العم واحاطوا بنا احاطة الهالة بالقمر . فكان يصنع لهم الألاعيب ، وكنت انا اقص عليهم مارأيتـــه في موسكو وكييف وسائر المدن ، فيصغون اليّ اصغاء شديداً ويذهلون عما حولهم .

وكثيراً ما كان هؤلاء الصغار يلقون عليّ أسئلة غريبة تدهشني كل الدهشة .

ففي ذات يوم بينما كنت ماضياً الى الغابة برفقة فيديا ساتيهكوف وهـو فتى رصين اذ سألني عن يسوع فقصصت عليـــه ماحضرني ، ولما أنهيت كلماتي أطرق مفكراً وقال :

ــ لو ان المسيح ظل صغيراً فلم يكبر لأحسن صنعاً ، لو انه عاش عمره كله وهو في سن كسني هذه مثلاً لكان خيراً له ، اذ استطاع ان يحـــكم ويجازي الاغنيـاء ويغيث الفقراء وينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى ودون ان

يصلب ، لأن سنه تشفع به وتستمطر عليه الشفقة والرحمة . ولكنه نشأ وكبر وصار رجلاً فقتلوه وكأنه لم يأت الى العالم !

كان هـــذا الغلام في الحادية عشرة ، شاحب الوجه شفاف البشرة قلق النظرات . وهناك غلام آخر اسمه مارك ليبوف وهو من تلامذة الصف الاعلى . وكان هزيلاً ماكراً لعوبا قاسيا لا ينفك عن اضطهاد رفقائه فيقرصهم ويدفعهم ويدفرهم ويصدمهم راكضاً وهو عاكف على الصفير خداعـاً وتضليلاً ، كأن لا شأن له بهم .

رأيته ذات يوم يقسو على أحد الصغار ويعذبه فبكى واستعبر ، وبعدمـا انقذته قلت له : ألا تخشى ان يكون أقوى منك فيؤدبك ؟

فأجاب : انه مسكين لاطاقة له ان يخاصم أحداً .

فسألته : وعلام اذن تعذبه وتقسو عليه ؟

– أنا ؟ اقسو عليه لأنه ضعيف لا يؤذي أحداً !

– اتضربه اذن لأنه ضعيف ؟

– وما عسى ان يكون شأن الضعفاء ولأي شيء خلقوا وهم لا يستطيعون ان يمدوا يدهم الى أحد بسوء ؟

كان يخاطبني بحماسة كمن يدافع عن عقيدة راسخـة . كان يعتقد وهو في الثانية عشرة من عمره ان المخلوقات الضعيفة ، المخلوقات الصالحة الـتي لا تؤذي ولا تخاصم ، انما جاءت الى العالم ليضطهدها الاقوياء . .

كل من هؤلاء الطلبة الصغار كان بارعاً في فنـه ، فلذلك كنت اعنى كل العناية بدرس ذهنياتهم ومنازعهم . وكنت كلما فكرت في مستقبلهم شعرت بانقباض وقلت في نفسي راثياً لهم : أتراهم يستحقون الحياة الشاقة الذليلة الـتي تنتظرهم ؟

ولاالبث بعدئذ ان أذكر كريستينا وابني الصغير الذي ماعرفته فتنتابني فكرة سيئة ، فكرة شريرة تغمر روحي واقول : أيها الرجال ! ألأنكم تخشون ولادة كائن فيه خطر عليكم تمنعون المرأة عن حرية الولادة ؟ اتعبثون بحرية المرأة لأنكم تخافون الابن الذي يلده الحب الحر المطلق فلا تربطكم به رابطة شرعية ؟

نعم هذا هو الواقع . انكم تخافون الابن الذي لا اب له وتخشون ان ينمو ويترعرع وهو بعيد عن اشرافكم ووصايتكم فيتحول الى عدو دائم العداء.

انكم لاتستطيعون ان تصنعوا به ماتصنعونه بأبنائكم الشرعيين الذين تستحلون لأنفسكم ان تجعلوهم عمياً عندما تلقنوهم فن المعيشة وابواب الحياة . . . »

آه واشواقي الى ولدي ، ماذا خبأ له المستقبل ، وما عسى ان يكون شأنه ؟

•━•━•━•━•━•

الفَصْلُ الثّالِثُ والعُشْرُونَ

في طريق النضال والتحرير

مرت الايام فأخذ ينمو في شعور جديد دغدغ نفسي فأيقظها من هجعتها على أنوار افق يملأ العين جمالاً . فقد احسست بعد معاشرتي للعمال كأن بذرة حية سقطت في روحي فنمت واجتذبتني شيئاً فشيئاً الى الانسانية .

كنت في هذا الوقت قد باشرت العمل في المصانع الحديدية بجعل يومي قدره اربعون كوبيكاً . آه ماأمرّ الحياة في هذا المصنع الجهنمي .

كان شغلي شاقاً قاسياً فقد طالما جررت الاثقال وحملت الحديد وسحالته والآجرّ والرماد وسائر الاشياء . آه ماأقسى الايام التي قضيتها في هذا العمل المستوحل الذي لاتنقطع ضجته وصخبه !

أنشبت الافران براثنها في جوف الارض وخنقتها . وكانت تمتص بظمأ لا يرتوي دماء الارض الملتهبة وتبتلعها في أحشائها النارية وهي لاتكاد تستطيع التنفس .

وكانت تنطفىء حيناً فتبدو سوداء جافة منقبضة ولكنها لاتلبث بعدقليل ان تدب فيها الحياة فتعود الى عملها الخانق القاتل .

وكان العمال لا يبالون بصلصلة الحديد وضجيج المطارق وجعجعة الآلات ، والنيران المتأججة والشرارات المتساقطة والوحول المنتشرة ، والاقذار المتراكمة والحرارة المستنزفة للدماء ، بل يشتغلون بطمأنينة وسكينة مع ان الاخطار محدقـــة بهم من كل الجهات ، يشتغلون ولا يخافون لأن ثقتهم بأنفسهم أعمت عيونهم فكأنهم ابالسة اعتادوا الجحيم والقوة فلا يكترثون .

وقد صعب عليَّ في بادىء الامر ان أعرف اي العمال يفوق الآخر جرأة وبراعة ورشاقة ، وأيهم اشد جلداً واصبر على المكروه . فقد كانوا كلهم آلات صماء عمياء تحركهم يد النزاع في سبيل الحياة .

وكنت اشاهد بعض الاحيان رجلاً يرسل الى المصانع وآلاتها وعمالها وما فيها نظرات الزهو والغطرسة فيبتسم ابتسامة الظافر ويجر ذيول الخيلاء والتيه. هذا الرجل ان هو الا سيد المصانع التي أنشأها الجشع وسيد العمال الذين استعبدتهم الحياة . وكان العمال اذا حانت ساعة الكفاح قال واحدهم للآخر :

– هيا ، لقد دنت ساعة العمل فهلم الى المصنع .

ولكن أكانوا هم الذين يــــذهبون الى العمل ، أم كان العمل هو الذي يناديهم ؟

وكانت ترتفع من حين الى آخر أغان مطربة مرقصة تمتزج بجعجعة الآلات وضجيج المطارق ، فكنت اذا سمعت هذه الاناشيد المفرحة ضحكت في داخلي وذكرت أسطورة جوان نيغرد ، وهو الرجل الذي امتطى حوتاً ليطارد بـه عقاباً في السماء !

مع هذا كله كنت أعجب بخشونة العمال ورشاقتهم . كانوا أجرياء جفاة خشاناً وطوراً سكيرين ، ولكنهم كانوا من ناحية أخرى احراراً مستقلين شجعاناً خلافاً للحجاج وزوار الاماكن المقدسة او شبان المزارع والقرويين الذين

غلبوا الحياء والجبن والحزن وبالسكونة المستترة بالمكر .

كان العمال على جانب عظيم من الاقدام يتهالكون على العمل ، وكثيراً مايتخاصمون ويتشاحنون ولكنهم متى رأوا ان رؤساءهم يحاولون ان يظلموهم او يعبثوا بهم توحدت قلوبهم وثاروا على المستبدين متماسكين .

وكان لرفقاء ميخائيل الكلمة المسموعة النافذة بين سائر العمال فهم يتكلمون بجرأة غير هيابين . وكنت قبل ان اختلط بالشعب وافكر فيه لا أميز رجلا عن آخر ، اما الآن فكنت أدرسهم واراقبهم لأقف على الفروق القائمة بين الواحد والآخر فأعطي كلاً منهم مكانه الخاص في روحي .

وها انا ادنو شيئاً فشيئاً من النتيجة ، فاذا كانت التعابير والوجوه مختلفة متباينة فالعقائد والنزعات واحدة في كل شيء . لقــد كانوا يبنون . كانوا يزرعون . كانت لهم محجة بعيدة فساروا اليها بولاء وايمان ولكن على مهل .

كان اصدقاء ميخائيل على جانب عظيم من الرقــة وحسن العشرة ، هم كالأنوار في وسط الظلمة والمصابيح الهادية في الغابة الكثيفة التي يتوه فيها المسافر ويضل ، فما وقعت عينهم على رفيق ذكي لبيب الا اجتذبوه الى كتلتهم فأنشأوا في العمل مجمعاً روحياً نعرض فيه الافكار النورانية والآراء المشرقة . ما أسمى هذا المجمع الروحي وما اعظم غايته التثقيفية ، وما اثمن خدماته للعمال التائهين في ظلمة الحياة !

عندما دخلت المصنع للعمل نظر اليّ العمال شزراً فناصبوني العــداء وسلقوني بألسنتهم السليطة وانهالوا عليّ بالشتائم والاهانات وأخذوا يتهددونني ويتوعدونني . ولكني قابلتهم بالصبر وطول الاناة ولم افكر قـط في مقابلة الشر بالشر .

وفي أحد الايام كمن لي خمسة او ستة وحاولوا الايقاع بي ليحملوني على

الخروج من المعمل . وبعدمـــا احتاطوبني وقد كشروا لي عن أنيابهم ، اذ بشاب قوي البنية كريم الاخلاق وقف الى جانبي مدافعاً عني .

يدعى هذا الشاب كوستيني وهو من أصحاب الكلمة النافذة بين العمال .

ساءه ان يعتدي على الرفاق دون ان اجني ذنباً فهب الى نجدتي وصرخ في العمال :

—علام تضطهدون هذا الرجل أيها الرفاق؟ أليس عاملاً مثلكم ؟ انكم ظالمون تسيئون بأنفسكم الى انفسكم دون أن تفقهوا . ألا تعلمون ان قوتنـا تقوم على ولائنا الاكيد واتحادنا الوثيق !

وما رنت كلماته في آذانهم حتى أمسكوا عني وقد طأطأوا رؤوسهم حياء وخجلاً وانصرفوا كالطفل وقد أنبه أبوه .

وكان اصدقاء ميخائيل يغتنمون كل مايلوح لهم من الفرص لنشر تعاليمهم ونزعاتهم بين العمال . أما خصومي فعادوا يجرون أذيال الندامة والخيبة بعدما اتضح لهم ان لا معـــنى لاعتدائهم علي . وأنا نفسي تأثرت بكلمات كوستيني ، فلذلك لم ألبث ان وقفت خطيباً بين العمال وشرحت لهم أمري فقلت :

— ما انتظمت في السلك الاكليركي رغبة في العظمة أو حبـاً للمجد ، وانما شعرت ان نفسي جائعـة وروحي ظمـأى ، فارتديت الثوب الاكليركي لأسد جوعي وأروي غلتي .

لقـد ذقت الفاقـــة وغمرتني الاحزان وذرفت الدموع وقاسيت التعس والبؤس وشاهدت الشرور والمصـائب على تعدد أشكالها ، فرأيت الشقاء باسطاً جناحيه فوق البشر .

رأيت هذا كله فأردت ان أعرف من هو الذي هيأ هذا الوجود وأداره . أحببت ان أعرف أين هو إلهنا العادل الحكيم . أردت ان ابحث عنه واستقصي

أخباره وأجلو أسرار حكمته وعدالته . الا يرى بعينيه ماتعانيه مخلوقاته من العذاب الدائم وما تكابده من الشقاء المستمر ؟

وما مضى الا القليل حتى رأيتني محـاطاً بعدد غفير من العمال الذين أصغوا الى كلماتي كل الاصغاء ووعوها ، وقد اعجب أحدهم وهو كهل اسمه كربوكوف بمـا القيته فقال لكوستيني : ان هذا الراهب ذو نظر نافذ ورأي ثاقب ، وهو اذا عالج الامور أحاط بها من كل الجهات ونظر فيها نظرة الحكيم الذي يستأصل الشر من أرومته .

فوقع هـذا المديح في نفسي أجمل وقع . ثم ان كربوكوف مال اليّ وقد اخذت منه الحماسة مأخذها فقال :

ـ لافض فوك ايها الاخ . ثابر على الخطابة وانشر أفكارك وبث تعـاليمك الصالحة ، وحارب الظلم والظلام فقد رأيتك مصيباً في كل ماقلته .

وكأنه شاء بعدئذ أن يداعبني فتابع قائلاً : ولكن لاتنس ان تقص هذا الشعر الطويل المسترسل . احلقه فهو يحمل على الضحك فضلاً عن انه قبيح !

وقد أضحكت الحضور هذه المداعبة فالتف حولي العمال يزاحمونني وقـد رمقوني بعين الولاء والمحبة . وكنت أنتهز الفرص فأخاطب العمال لأبث فيهم روحاً جديدة وشعوراً جديداً ونزعة جديدة .

وفي ذات يوم اختلى بي كوستيني وأسرّ اليّ قائلاً :

ـ اني احذرك ياماتفي من غوائل خطبك وتعاليمك . ألا تعلم ان الذين يطرقون الموضوعات التي طرقتها تلقي بهم السلطة في غياهب السجون ؟ حذاراً ياماتفي ولا تعرض نفسك للسجن .

فدهشت وسألته : ماذا تقول ؟ وما هو الذنب الذي جنيته ؟ ألا يحق لي أن اعبر عما أشعر به وعما افكر فيه وعمـا أراه صالحاً لرفقائي فأسدد خطواتهم

الى سبيل الهدى والرشاد ؟

ـ كلا ، ان السلطة تحظر علينا حرية التفكير والشعور .

ـ أراك تمازحني ، ياكوستيني ..

ـ اذا لم تصدق فسل ميوهايلو فعنده الخبر اليقين .

ثم انصرف وتركني مشدوهاً حائراً مضطرباً .

لم أرد ان اصدق ماقاله ، ولكني عندما قابلت ميوهايلو مساء وقص علي مايلاقيه المصلحون من الاضطهاد والتعذيب وما يعانيه المفكرون من الظلم والاستبداد زالت شكوكي وتجلت لي الحقيقة الرهيبة .

قضى ميوهايلو الليل كله يقص علي مظالم الحكومة وانتقامها الفظيع من رسل الحرية والنور . الوف من الناس ماتوا في أعماق السجون ومجاهل سيبيريا. الوف من الناس لاقوا حتفهم تحت سياط الجنود او برصاص البندقيات او بين انياب البرد والثلج ، دون ان يجنوا ذنباً او يرتكبوا وزراً سوى جهرهم بالحق ، لأن الدفاع عن الحق في عرف الحكومة جناية لا تغتفر .

ولكن هؤلاء الشجعان الذين رذلوا الظلم ودولته والاستبداد ورجاله كانوا يزدادون يوماً فيوماً غير حافلين بما كابده رفقاؤهم في ظلمات السجون ومهالك سيبيريا ، وبما ينتظرهم من العقاب القاسي .

وما لفظ ميوهايلو عبارته الاخيرة حتى اغتبطت نفسي وغمرتها انوار جديدة .

لقد ادركت الآن معنى الخطب التي القاها ميخائيل ورفقاؤه وفقهت ما تنطوي عليه ، وحللت رموزها واشاراتها . لقد كانوا مخلصين كل الاخلاص في كلماتهم . ان الذين يعرضون انفسهم للهلاك في سبيل الحرية والحق هم شجعان مخلصون أنقياء ، بل ما أشبههم بالشهداء القدماء الذين ماتوا لأجل يسوع .

فهل أقف موقف الجبان الرعيد فأسكت على الظلم والظالمين .

اأرضى لنفسي مالا يرضاه لنفسه بطل الحرية والنور ؟ ما أجمل التضحية في سبيل الحق العام وما أعظم الاستشهاد في سبيل الحياة الحرة التي تبعث شعباً ميتاً

خيل الي بعد ان وعيت كلمات ميوهايلو ان الارض ليست الا بيت لحم صبغتها يد الظلم بنجيع أبنائها . وأدركت آنئذ شدة رغبة العذراء في العذاب أمام مرأى الجحيم اذ طلبت من رئيس الملائكة ميخائيل ان يدعها لتعذب نفسها في تلك النيران المتأججة . ايستهويها العذاب في الحطمة وهي العذراء الضعيفة ولا يستهوي الرجال الاقوياء ! كلا ، حبذا العذاب والنار .

انا ايضا احب ان اجتاز الجحيم وألهب نفسي بجمراته المستعرة .

لم يكن الذين رأيتهم من الخطاة بل رجال عدل وحق يريدون ان يحطموا الجحيم الارضي متأهبين غير هيابين ليذوقوا كل اشكال الالم والعذاب ، مؤثرين الموت في سبيل الحرية على حياة ملؤها الظلم والظلام .

وفي ذات مرة سألت ميخائيل : اقضي على القديسين النساك لأن الانسان التصق بأخيه الانسان ولزمه بدلاً من ان يعتزله ويتنحاه ، فلم يظهر احد منهم في هذا العصر ؟

فأجابني : ان الايمان الحقيقي هو معين العمل في كل العصور .

فسألته : كرسني اذن للعمل وافتح امامي باب الايمان .

فرد علي قائلًا : كلا ، لم تحن ساعتك بعد . انتظر وفكر . اذا وقعت الآن في فخاخ العدو ، فلا يسهل عليك ان تنجو منها وهذه طباعك واخلاقك ، بل تمكث سجيناً مدة طويلة بلا جدوى . وعليه خير لك ان تنصرف عنا بعدما القيت تلك الخطب المثيرة لغضب السلطة .

غادر المصانع قبل ان تصاب بأذى ودون ان يجني احد فائدة من تضحيتك . ان امامك مشاكل كثيرة للدرس والحد . ولست طليقـــاً مدرباً لتشترك في

عملنا الذي يغويك جلاله ويستهويك جماله .

وكأني بك قد وقفت امام سهل يبنى فيه هيكل فخم متسع جليل حيث تقوم أعمال البناء بسكينة وهدوء على طريقة واحدة منظمة ، فاذا شمرت عن ساعديك الآن قبـــل ان تعرف الخطـة الهندسية والفكرة المولدة وتدرس التفاصيل فلا تلبث خطوط الهيكل ورسومه ان تمحى من عينيك ، والرؤيا وهي لم تنقش بعد في روحك تتلاشى وتضمحل ، فيبدو لك العمل فوق طاقتك .

فسألته : علام تطفىء جذوة حماستي بماء التزهيد ؟ لقـد لقيت مكاناً في الحياة فما أسعدني اذ اراني نافعاً .

– اني اعدك غير كفء لتعيش وفاقاً لفكرة لم تنجل لك ، فنفسك لم تدرك معنى الصلة الروحية التي تربطها بنفس العمال ، انما انت على مايلوح لي دماغ شعبي أرهقته الندامة الدينية فدفعته الحياة الى الامام ، وخيل اليك انك بطل مقدام متأهب لتعطي الضعفاء صدقة قوتك غير النافعة ، وانك شيء ممتاز في حين انك لست الا البداية والاالنهاية، لاتتمة سرمد جليل جميل. عليك ان تمضي في الطريق الذي قدمت منه لترى حياة الشعب بعين جديدة، لتلقي عليها غير نظراتك السالفة.

ان القداءة لاتجديك نفعاً ولا تروي ظمأك . انك لاتحب ان تعتقد ان الكتب تحوي العقل البشري ، بل تعبر باختلاف لاحد لهنزعات الروح الاهلية الى الحرية . لايسعى الكتاب ان يسيطر عليك وانمـا يقدم لك سلاحاً لم تعرف ان تستخدمه للدفاع عن نفسك .

وقد أصاب في ما قاله : فاني كنت غريبـاً عن مطالعة الكتب اذ تعودت ان أطالع المؤلفات الدينية ، لذلك كان يصعب علي ان افهم المؤلفات العلمانية .

فالآراء التي كنت اقتبسها من هذه الكتب لاتكاد تعلق بروحي فلا يمضي القليل حتى تتلاشى وتمحى .

وفضلا عن هذا كله ، فهذه المؤلفات لم تستطع ان تجيبني على سؤالي الرئيسي وهو : ماهي الشريعة التي وضعها الله في احكامه ؟ ولماذا ، بعد ماخلق الانسان على صورته ومثاله ، خفض قدره وحط من شأنه مخالفاً ارادة مخلوقاته ؟

فما هي اذن ارادة الله وما الذي نستنتج من اعماله ؟

وهناك سؤال آخر كان يراودني دائماً ويقلق روحي وهو لايعكس السؤال الاول . كنت اتساءل قائلًا :

– أهبط الله من السماء الى الارض ام رفعه البشر من الارض الى السماء ؟

كان يتنازعني آنئذ عاملان ، كنت احب ان ابقى الى جانب ميخائيل أدرس عليه وأستقي من ينبوعه الصافي ، كما كنت في الوقت نفسه اميل الى الانصراف لأدرس تأثير أفكاري الجديدة وافتش عن (المجهول) الذي غل حريتي بقيوده وأثار قلقي الروحي . وكان العم يحثني على السفر قائلًا :

– ينبغي أن تغرب عن هذا المكان الى حين ، ياماتفي . لقد انتشرت اخبار خطبك وتناقلتها الافواه وفي هذا خطر عليك .

وبعد قليل انحلت المشكلة دون ان يكون لي رأي . في احدى الليالي قدم من مصنع مجاور رجل ممتطياً جواداً ليحذر العمال ان الشرطة كبست المصنع وانها تنوي أن تأتي الى مصانعنا . فاستاء ميخائيل اذ وقف على الخبر وتمنى لو ان الشرطة أخرت زيارتها غير المرغوبة شهراً أو شهرين اذ يتسنى لي أن أدرس واطالع .

وانتشر القلق في البيت واجمع الحضور على وجوب سفري حالاً وكان العم يصرخ بي قائلًا : اذهب ياماتفي ، أغرب عنا فلم يبق لك ماتصنعه عندنا .

ونصح لي ميخائيل أن أسافر وقال : الافضل أن تنصرف ، ان بقاءك بيننا لايفيدنا بل يأتي بنتائج سيئة .

فأدركت انه لابد لي من السفر . ولكن ساءني أن انصرف على هذه الصورة . وفي الوقت نفسه دب الوهن في قلبي وخشيت الشرطة . انها لم تصل بعد مع هذا كنت ارتعد فرقاً . لقد علمتني المروءة ان التخلي عن الرفاق في ساعة الخطر منتهى الجبن ، ولكن ماذا اصنع وقد أبوا إلا أن أفارقهم وانصرف عنهم .

ما أنبل شعور هؤلاء الرفاق ! لقد اختاروا أن يعرضوا أنفسهم لشر الشرطة وينقذوني ، فألحوا علي بالسفر .

• • •

الفصل الرابع والعشرون

الشعور بالخوف، لاتكن جباناً ..

توقلت في الجبل متجهاً الى الغابة وانا اسير بين النباتات المرتفعة واغصان الاشجار وكان يسير ورائي غلام اسمه ايفان فيكوف وقد أرسلوه ليخبيء في الغابة مجموعة من الكتب . وما زلنا نجد السير حتى وصلنا الى الغابة ، فاختار الغلام مكاناً مناسباً متفقاً عليه وبعدما حفر التراب دفن مجموعة الكتب ، فارتاحت نفسه واطمأنت كأنه القى عبئاً ثقيلاً عن عاتقه . اما أنا فكان القلق يساورني والهلع ينتابني فترتعد فرائصي ، بيد أني كنت اتجلد فاسترد رباطة جأشي شيئاً فشيئاً . وبعد أن قام بمهمته سألته :

ـ أتراهم لا يأتون هذا المكان ؟

فأجاب : من يعلم ؟ إن الشرطة ترصد خطوات العمال وتتعقبهم وتحصي عليهم أنفاسهم . والآن هيا بنا نمضي مسرعين .

كان هذا الغلام قوي البنية كأنه جذع سنديانة ، كبير الهامة عريض المنكبين طويل الذراعين اجش الصوت . وبعدما تأملته ملياً سألته :

ـ الا تخاف أن تأتي الشرطة وتلقي عليك القبض ؟

– لا يهمني ان يقبضوا عليّ بقد مايهمني ان يبقى ماخبأته مدفوناً .

وبعد ان اخفى اثر الحفرة التي طمر فيها الكتب وغطاها بالاغصان جاس وقال لي :

– انتظر قليلاً ، فسيرسلون اليك رقعة مكتوبة .

رفعت بصري فتراءى لي ان في شوارع المدن وفي وسط الظلام رجالاً يضطهدون رجالا وقد امتلأت قلوبهم بالاحقاد فسحق الواحد عظام الآخر .

وبعد قليل تهيأ ايفان للانصراف وأخذ يمشي على مهل فسألته :

– الى اين انت ذاهب ؟ ماذا تصنع اذا قبضت عليك الشرطة ؟

– اني حديث العهد في هذه الامور . والشرطة لاتشتبه بي . وعلى كل اذا وقعت في قبضة الجنود فالمصيبة هينة . فالسجن يعلم ويثقف .

وبغتة خيل الي اني اسمع صوتاً ندياً جلياً يسألني قائلاً :

– كيف تخشى شر الشرطة ياماتفي وانت لاتخاف الله ؟

فأرهفت اذني ورفعت بصري الى ايفان وكان جامداً ساكناً يتأمل الوادي فسألته : ماذا قلت ، ماذا قلت ؟

فاجاب : قلت ان السجن يعلم ويثقف وان السجين يطالع الكتب أيضاً .

– ولكن الكتب التي تطالعها تختلف عن التي خبأتها .

– لابأس ، فالمطالعة مفيدة دائماً .

وانتبهت الى نفسي فأدركت ان الصوت الذي رن في اذني مؤنباً انما كان صادراً عن ضميري . لقد كانت مختبئة في روحي اكذوبة ، ومن هذه الاكذوبة كانت تتساقط علي كالشرارات اسئلة شائنة .

ولما رأيت ايفان مصراً على الانصراف قلت له : اني سأذهب معك .

فأجابني : كلا ، انت لاتستطيع العودة معي ولا شك انهم يعتقلونك

حالاً ، لأن خطبك التي ألقيتها على العمال هي التي حملت الشرطة على كبس المصانع .

فسألته مستغرباً : وكيف هذا ؟

وأجاب : ان كاهن المصانع وشى بك الى شرطة فيرخوتسورين .

فاغتممت وتأثرت وقلت له : اذن يجب ان أهرب حالا .

ولكن الذعر شل قدمي فلم أستطع ان احركهما .

كان الوقت ليلاً والقمر يحتجب طوراً وراء الغيوم ثم يسفر عن وجهه المشرق ، وكان الوادي امامي كتلك الحيوانات الخرافية الهائلة فاغراً فاه لابتلاع فرائسه .

جمدت في مكاني فلم اتزحزح ، وفيما كنت افكر في امري اذ برز بين الاغصان رأس عرفه ايفان فلم يلبث ان صفر وقال لي : هوذا كوستيا قادم الينا .

وكان هذا فتى في الخامسة عشرة من عمره أزرق العينين اشقر الشعر رقيق البنية تخرج على ميخائيل وانهى دروسه منذ سنتين ثم أخذ يدرس الشرع .

وما ان رآني كوستيا حتى دنا مني وصرخ قائلاً : لقد وصلت الشرطة الى المصانع وأخذت تبحث عنك لاعتقالك . هي ذي رقعة اعطانيها العم لاسلمها اليك وقد امرني ان ارافقك الى صومعة لوبانوف فتعال واتبعني .

فنهضت وقلت لايفان : الوداع ايها الاخ ، احمل سلامي الى الرفاق وسلهم ان يصفحوا عني ويسامحوني .

فدفعني كوستيا وخاطبني بلهجة الآمر ذي السلطان قائلاً :

— هيا بنا نسري ، فما معنى هذه التحيات التي أرسلتها ؟ ولمن ارسلتها ؟ الا تدري ان جماعتنا ستعتقلها الشرطة وتزج بها في غياهب السجن ؟

فحزنت ومشيت مطأطأ الرأس وكان كوستيا قد تقدمني ، وبعدما سرينا قليلاً أخذ يقص علي بصوت منخفض ماجرى في المصانع بعد خروجي .

وكنت امشي وراءه مصغياً الى كلماته فما ان اتى على الحادث حتى خيل الي ان الايدي تمتد الى جبتي من كل الجهات وتشدها او تهزني هزاً عنيفاً كأنها تسألني :

– الى اين تذهب ؟ ان اولئك العمال المساكين وقعوا تحت طائلة القصاص بسببك وانت تتخلى عنهم وتتركهم ؟

فأخذت اناقش نفسي بصوت مرتفع قائلاً :

– اذن انا الذي جنيت على هؤلاء العمال فاعتقلتهم الشرطة بسببي ؟

بيد ان رفيقي قاطعني وقـــال : كلا ، أنت لم تجن عليهم وهم لم يسجنوا بسببك أنت ، وانما سجنوا بسبب الحق ، دفاعاً عن الحقيقة ، فمن أنت ؟ أأنت الحق ؟ أأنت الحقيقة ! أنت لاشأن لك ...

كان كوستيا كالصعلوك مع هذا ازدراني وتهكم عليّ . فأردت ان أجلو له ما غمض عليه من امري وشرعت افرغ افكاري فقلت :

– لقد عشت في ظلام الضلال والكذب ...

فقاطعني كوستيا وردد كلماتي كأنه ضميري يردد صدى نفسي وقال :

– نعم ، أنت تعيش في الضلال والكذب ، انك لاتفتأ عن التبجج . اني لا أحبك أيها الراهب . أنت أجنبي ...

– وكيف ذلك ؟

– أروسي أنت حقيقة ؟ أروسي انت تشعر شعور الروسيين وتحس حسهم ؟

لو وجهت الي هذه العبارات في سانحة اخرى لانزعجت وتأثرت ، ولكنني سكت سكوت العاجز ، سكوت المعترف بضعفه ، سكوت الحي الميت .

كانت الغابة والظلمة تحدقان بنا . أرخى الليل ذيوله الكثيفة ونشر اجنحته السوداء فظللت الارض وعدنا لانميز اغصان الشجرة . وكانت اشعة القمر تطرد الظلمة فلا نكاد نتبين ماحولنا حتى ينحجب وجه القمر وتنحجب معه أنواره الهادئة .

كان رفيقي فتى جريئاً لايخشى في الحق لومة لائم ، يرسل اقواله التي تعبر عن شعوره وحسه دون ان يكترث ، رائده الحقيقة لاسواها فهو اذن كأولئك الرفاق الذين تركتهم يجهرون بالحقيقة دون خوف والذين يؤثرون الحقيقة هم الاباة الاجرياء ذوو النفوس الكبيرة .

كان كوستيا يسري أمامي فيحجبه الظلام فلا ارى الا رأسه الأشهب ، ويبدو شعره الاشقر اللامع كأنه اسلاك ذهبية . تبعته وانا مرخٍ لأفكاري العنان فذكرت القديس برثلماوس وذكرت يسوع ابن الله وسواهما ثم ملت الى رفيقي وسألته :

ـ أطالعت تواريخ القديسين وقرأت أعمالهم ؟

ـ قرأت سير القديسين يوم كنت صغيراً لان أمي هكذا ارادت ، ولكن مامعنى سؤالك ؟

ـ اريد ان أسألك ، اتحب القديسين خدمة الله ؟

ـ لا أَدري ، حقاً لا أدري ، يعجبني بونتاليمون ، وكذلك جاورجيوس القديس الذي قتل التنين . بيد أني لا أدرك ما الذي كسبه العالم بهؤلاء الرجال الذين ارتفعوا الى مصاف القديسين .

لقد استشهدت في سبيل الايمان بيسوع كثيرات من بنات الملوك والاغنياء ، تحملن العذاب والآلام وآثرن الموت مؤمنات على الحياة وثنيات او جاحدات . ولكن الملوك والاغنياء اباءهن لم يتقوم اودهم ولا صلح امرهم . راجعت

سير القديسين فما عثرت فيها على ملك او امبراطور يقوم اعوجاجه فسلك سبل الهدى .

ثم مضى في حديثه وقال : ولا اعلم أيضاً لماذا تألم يسوع . أجاء ليقضي على الشر ويبيده ؟ ولكن ماذا كانت نتيجة آلامه وصلبه ؟ لاشيء ... لقد ذهبت آلامه ادراج الرياح ، ولم يجن العالم منها فائدة .

كنت احدث نفسي بمقاطعة كوستيا والرد عليه ولكنني سكت . لقد كنت اشفق على كوستيا ، وعلى يسوع وعلى كل الرفاق الذين غادرتهم وعلى الانسانية كلها وعلى نفسي انا ايضاً . ماهو مقامي في هذا العالم ، والى اين انا ذاهب ؟

سرينا وسرينا الى ان تصرمت انفاس الليل فتقهقرت جيوش الظلام امام اشعة الشمس فقلت لرفيقي : الم تتعب ،يا كوستيا ؟

فأجابني هذا الفتى المقدام الجريء بابتسامة هزؤ وقال :

ـ ما اجمل الاسراء ! يخيل الي وانا اسري في الظلام البهيم اني بطل من ابطال القصص التي تستهويني مغازيها ومراميها . اني مغرم بالقصص .

وما كاد يذر قرن الشمس حتى استلقينا على الارض فاستسلم كوستيا لسلطان الكرى ونام نوماً عميقا . اما انا فلم يغمض لي جفن اذ كانت حالتي كحالة ذلك التتري البائس الذي كان يطوف حول الكنيسة في ليالي الشتاء .

كان البرد قارساً والرياح تهب بشدة منذرة بعاصفة ، والتتري يدور حول الكنيسة دون ان يجسر على دخولها والالتجاء اليها لأن محمداً ابى عليه دخول هيكل مسيحي . كانت الكنيسة للتتري بمثابة صومعة الناسك لي .

كانت الشرطة تتعقبني وتبحث عني لتعتقلني ، وملجأي الامين صومعة الناسك ولكني لن ادخلها لأن نفسي تأبى علي ان اكون جباناً .

وفي الصباح عندما افاق كوستيا قلت له : اعذرني اذ اني حملتك مشقة السير بلا جدوى . اني لا اريد الذهاب الى صومعة الناسك . لا احب ان اختبىء .

فنظر الي غاضباً واجاب : كان بوسعك ان تعلمني سابقاً .

ثم اشاح بوجهه عني واخذ يلاعب غصن الشجرة .

ـ والآن وداعا ، ياصاحبي .

فأجابني بفتور وجفاء : الوداع .

وما ان ابتعدت قليلا حتى التفت الى الوراء فرأيته جامداً في مكانه يشيعني بنظراته ، فلما شاهدني ارسل وداعي الاخير صرخ بصوت رقيق مؤثر :

ـ الوداع ... الوداع ... !

فطابت نفسي آنئذ لأن تحيته الاخيرة كانت صادرة من قلبه لا من فمه .

الفصل الخامس والعشرون

الشرارات الاولى -- هاقد بدأت عملي الانساني الى النهاية !

قضيت اياماً طوالاً طائفاً من مكان الى آخر ، تائهاً هائماً على وجهي لا يقر لي قرار . كنت كالعليل الذي حمل في صدره من الهموم والغموم ماينوء به.

وكانت افكاري وقد اختلط عليها ظلي ، تمشي أمامي طوراً زاحفة زحفاً أو تتبعني كدخان خانق. أكنت ملطخاً بالعار ؟ لاأدري ، لا أذكر. وكل ما اذكره وأعلمه ان فكرة مظلمة عمياء تولدت في دماغي وأخذت تطير حولي كالخفاش .

هؤلاء ليسوا مخلوقات الله ، هم قساة طغاة .

وكانت التأثيرات الخارجية قلما تعلق بذهني ولا أتذكر ممن مررنا بهم وصادفتهم احداً فكأني في حلم لا في يقظة . وفي ذات يوم رأيتني في قرية تقع بالقرب من اومسك فما افقت من ذهولي الروحي الا هناك .

اخترقت القرية الى ان دخلت السوق فرأيت شيخاً اعمى جالساً على الأرض وهو يغني انشودة رقيقة. وكان دليله راكعاً حذاءه يرافقه في الغناء .

رفع الشيخ الاعمى وجهه الى السماء، وقد انطفأ النور في عينيه وغنى بملء صوته.

انشد ترنيمة ناجى فيها الايام الغابرة ومزق حجب التاريخ ففض ختم الماضي وقال :

– كان في عهد القيصر ايفان باسيلوف .

وكان دليله يرجّع اللحن فتقع النغمة وقعاً مؤثراً .

فجلست على الارض بالقرب من الاعمى الذي مد يده مستعطياً ثم ردها فارغة دون ان ينقطع عن الغناء .

– كان يرماك بن تيموتيو . . .

وما مضى الا القليل حتى التف حول الاعمى جمهور كبير اصغى الى اغنيته متأثراً مفكراً . وكان البعض يصوبون اليّ نظرات الدهشة والفضول ، غير ان احدهم أشار اليّ وسأل رفيقه قائلًا : وهذا الرجل الا يغني ؟

فأجبته على الفور : انتظر قليلًا وأغني .

وقد ذكرت آنئذ تلك الاغاني الاهلية التي تتمثل فيها اعمال اللصوص وقطاع الطرق ، ولكني كنت أجهل نصها والروح التي اوحت بنظمها . غير اني في تلك اللحظة ادركت ما استعصى عليّ . ان الوفاً من اصوات الشعب القديم حدثتني عن هذه الاغاني . . . « اني اصفح عنك يارجل وأغفر لك ذنبك الذي ارتكبته نحوي اكراماً لخدمتك الصغيرة التي اديتها لي . . .

وكانت الانظار تحوم حولي وتكاد تلتهمني فتلتهب روحي .

وما انهى الشيخ الاعمى أغنيته القصصية التاريخية حتى نهضت واقفاً وقد امتلأ صدري حماسة وقلت : ايها السادة ، لقد وعيتم ماسمعتموه فاصغوا الآن الى مااقصه .

كان في غابر الزمان لص زنيم يسطو على الشعب وينهب منه ماجناه بعرق جبينه ، وما زال هذا شأنه الى ان استيقظ ضميره فأنبه وزجره . وقد احب ان ينقذ روحه ويكفر عن آثامه باستخدام قواه لخير الشعب . فقام بكفارته

ووفى بنذره وصفح عنه الشعب اكراماً لما بذله في سبيله من الخدمات بعد توبته.

وانتم اليوم تعيشون بين اللصوص وقطاع الطرق الذين ينهبون أموالكم ويستحلون أرزاقكم ويمتصون دماءكم بدلاً من ان يساعدوكم ويعينوكم على متاعب الحياة ، فقولوا لي بربكم ماهي فائدتكم من هؤلاء الاشرار ، ماهي المنافع التي تجنونها ممن يسرقونكم وأنتم صاغرون ؟

وما بدأت خطبتي حتى احتشدت أمامي جماهير غفيرة من الشعب الذي اقبل على سماع كلماتي . وقد تحمست امام مارأيته من الانتباه والاصغاء فكنت أرسل عباراتي بصوت رنان ولهجة قوية .

ثم اشتدت حماستي فتدفقت كالبحر الزاخر ونسيت مايتهددني من الاخطار. وكانت كلماتي تقع في آذان الجماهير فتكهربها فلا تلبث ان تطالبني بالافاضة والاسترسال ، وترفع الاصوات قائلة :

ــ تكلم ... تكلم ... قل الحقيقة كما تعرفها ولاتخبيء عنا شيئاً .

واتفق آنئذ ان مرّ أحد الشرطة ، فاستغرب تجمهر الناس حولي وأمرهم ان يتفرقوا ثم مال اليّ وسألني عن أوراق هويتي .

اما الجماهير فلم تلبث ان تفرقت كأنها غمامة صيف وانقشعت .

وشاء احد السامعين ان يدافع عني فرد على الشرطي قائلًا : كان يتكلم عن الله. وعطف آخر فقال : وعن القديسين والرسل.

وتلاه ثالث : انه يعظ الشعب ويرشده .

وكان على الرصيف الآخر رجل من العمال يحدق اليّ ويبتسم لي ابتسامة عطف فتشجعت ، ولما رأى الشرطي اني لم اجبه الى طلبه امسك بتلابيبي لئلا اهرب .

وكانت العيون شاخصة اليّ كأنها تقول : والآن ماذا تصنع وماذاتقول؟

فلم ارهب ولا دب الخوف في قلبي بل دفعت الشرطي وتملصت منه قائلاً :

- اتريد اذن ان تعرف ماذا كنت اقول ؟ اسمع

ثم شرعت اخطب في مظالم الحياة فنددت بالظلم والظالمين وحملت على الذين حولوا هناء الحياة الى شقاء .

وما فتحت فمي بالعبارات الاولى حتى تجمهر الناس امامي وضاع بينهم الشرطي فتشددت عزائمي وذكرت آنئذ كوستيا وكل رفاقي في المصنع واستولى عليّ سرور عظيم ولعبت بي سورة الغطرسة وشعرت اني قوي غير جبان ولا بماذق وخيل اليّ اني في حلم .

وعندما رأى الشرطي انه لاسبيل الى الوصول الي بين ذلك الجمهور الغفير الذي وقف امامي كالبناء المرصوص أخذ يصفر بشدة ، فما هي الا لحظة حتى اضطرب الجمع وتحرك وقد احدق بي حتى صرت في وسطه وحدة من وحدانه.

ثم امسكني احدهم بساعدي وهمس في اذني قائلاً :

- اهرب ، اهرب ، يكفيك ماألقيته من الخطب .

وأخذ الجمهور يدفعني وانا اسير معه الى ان رأيتني برفقة رجلين في احدى الساحات . وكان احدهما شاباً في فجر الحياة والثاني ملتحياً .

وما ان صرنا بمعزل عن الناس حتى اشار الى حاجز وقال : اقفز واهرب.

فخضعت وقفزت الحاجز ثم وثبت عن احد الجدران الى الارض ، وكان في هربي على هذا الشكل مايضحك ويفكه .

وكان ذو اللحية يحثني على الاسراع قائلاً : اسرع ولا تتوان ، اهرب .

فسألته وأنا أمشي : ومن أنت ؟

فأجابني : انا من الرفاق ، من الجماعة . .

وكان الشاب يجري وراءنا وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، وبعد

ان اجتزنا بعض البساتين انحدرنا الى وادي ظليل لا يعكر سكينته سوى خرير ساقية تنساب في اسفله انسياب الثعبان وقد اشتبكت حولها الاشجار وتعانقت فوقها الاغصان .

فاطمأن حينئذ خاطر رفيقيّ وتقدم الملتحي فمد يده مودعاً وبعد ان تأملني ملياً بنظرات تفيض عطفاً وغيرة قال لي :

— خفرتك دون ان تستخفرني ، اما وقد بلغت بك مكاناً اميناً فاني اودعك واسأل لك صحةً وسلامةً . وهذا الشاب سيرافقك الى ان تدرك المرحلة الاخيرة .

فالتفت اليه الشاب وحثه على الرجوع قائلاً :

— عد حالاً فانهم قد يشتبهون بك اذا طالت غيبتك .

فعاد الملتحي ادراجه وتابعت السير أنا والشاب .

وما ان مشينا حتى سألت رفيقي : من هو هذا الرجل ؟

— هو احد المبعدين السياسيين .

— اني اعرف كثيرين ممن نفتهم الحكومة بتهمة الجرائم السياسية .

كان رفيقي شاباً رشيق الحركة قليل الكلام كثير التفكير ، اذا مشى امال جسمه الى الامام حتى يخيل الى من يراه انه يرهف اذنيه ويصغى الى حديث يسمعه .

وكان أفطس الانف مطهم الوجه ، أسود العينين ، أجش الصوت .

واذا سار شبك يديه وراء ظهره ، فتذكرت حميّ لأنه أِلف هذه العادة.

وبعد ان تأملته ملياً سألته : أمن سكان القرية انت ؟

— اني فلاح أحرث الارض ، وانا اشتغل الآن في أراضي كاهن القرية .

ولما كان حاسر الرأس سألته عن قبعته ، فرفع يده الى رأسه وحدقّ الي فأجاب :

ـ ولماذا تسألني عنها ؟

فقلت له : ان الليل يكاد يدركنا فيشتد البرد .

فصمت ولكنه بعد قليل لم يلبث ان تمتم وقد طبع جوابه بطابع فلسفي :

ـ ان نفقد قبعاتنا وتسلم رؤوسنا ذلك خير لنا ؟

كنا نسير على ضفة الساقية مرافقين مجرى الماء فتأنس النفس بخريره . وكان الليل قد بدأ يكسو الارض بمعاطفه السود .

وراق لي ان أطارح رفيقي الحديث فسألته : أليس في القرية سوى مبعد واحد ؟

فأيقظه هذا السؤال من غفلته وأخذ يقص أخبار المبعدين السياسيين فقال :

ـ عندنا أربعة مبعدين الاول نبيل من موسكو والثلاثة الآخرون عمال من مقاطعة الدون . واثنان من هؤلاء المبعدين جحدا مبادئهما و كفرا بالحق العام ، اما الآخران وهما النبيل وراتكوف الذي رافقنا فلا يزالان يشتغلان سراً ويمهدان السبيل في بث الدعوة بين الاهالي .

اما المنفيون فكثيرون . لقد مضى علي في القرية خمس سنوات قدم في غضونها احد عشر منفياً ثمانية من اوليكين وثلاثة من شيشكوف .

ثم اخذ يعد المنفيين المقيمين في القرية فاذا بهم يبلغون الستين .

وبعد ان سكت عطف قائلاً : وبين هؤلاء المنفيين عدد من الفلاحين وقد أجمعوا كلهم على ترديد عبارة واحدة وهي ان هذه الحياة لاقيمة لها فاقضوا علينا .

وكنت قبل ان اسمع هذه العبارة مطمئن البال قرير العين ، اما الآن فقد تغير نظري في الحياة . ها انا في سن الشباب ، مع هذا أراني مضطراً ان اطأطىء رأسي الى الارض . فما هي قيمة الحياة ، اليس الافضل ان نقضي عليها .

وكان الشاب يجهد نفسه في الكلام حتى يتراءى لمن يسمعه انه يقتلع الكلمات اقتلاعاً من فمه .

ولاح لي ان امضي في محادثته فسألته : اتحسن القراءة والكتابة ؟

ــ كنت احسنهما ولكني نسيتهما فعدت الآن الى الدرس . اني محتاج الى التثقف والعلم لأنهم يعينانا على فهم الحياة ؟ ونحن الصغار اشد الناس حاجة الى الدرس والعلم . ان الاغنياء ينظرون في الحياة نظرة تختلف عن نظراتنا نحن العمال والفقراء ، هم ينظرون اليها من كوى البحبوحة والرخاء والرفاهية وشتان مانحن وهم . فهل الحياة افراح لقوم واتراح لآخرين ، اهي ابتسامـة للاغنياء والنبلاء ودمعة للفقراء والعمال .

اني رجل ورجواتي تحملني على اقتفاء آثار رفـاقي العمال الذين ادركوا من معاني الحياة مالم يدركه سواهم ، ولا غنى لي بعد هذا عن الدرس والعلم .

كنت اصغي الى كلماته وانا اقول لنفسي : تعلم يا ماتفي تعلم واقتبس .

فأدرت ان اغالطه لأسبر غوره وقلت له :

ــ وعلام الاهتمام بشؤون الحياة مادام الله هو الذي يقضي بما يشاء ؟

وما كادت ترن هذه العبارة في اذنه حتى وقف والتفت اليّ محلقاً واجاب وهو كالمشدوه .

ــ كيف ؟ الله ؟ اني لا ارى رأيك ولا اذهب مذهبك. كانوا يقولون (لا سلطة الا من الله) ولكن الايام تغيرت فتغيرت معهـا الآيات . لكل عصر شريعة فما يوافق هذا العصر لا يوافق ذاك والعـالم يسير الى الامـام شئنا ام ابينا والويل لمن يقف . لقد عزوا آيات العصور الماضية بالعجائب ولكنهم في هذا العصر ينكرون الايمان وينسون ان هذا الايمان هو الذي صنع العجيبة .

ثم سكت كأنه اكتفى بما قاله .

ولم أشأ ان أستزيده فسكت ايضاً واخذت القي نظري على مايحيط بنا من جمال طبيعي فتان .

وما ان سرنا قليلًا حتى عاد رفيقي الى الحديث فقال :

ـ اني لاأحتمل المزاح والدعابة ، ولي كل الحق . كان لي اخ جندي فانتحر شانقاً نفسه . وكانت اختي تخدم في منزل المزراع فولدت ابناً مشلول الساقين وها هو في الرابعة من عمره ولا يستطيع السير على رجليه .

لقد انخدعت اختي بأحابيل احدهم فسقطت وجنت على نفسها وعلى ولدها، فماذا ترتجي هذه الشقية التاعسة ؟

اما ابي فرجل سكير خمير لايعي ولا يهتم بأمر ، واخي الاكبر استولى عنوة على اراضينا كلها. وانا لااملك شيئاً . وكيف ادرت لحظي ارى اليأس امامي والشقاء محدقاً بي ، فبم اتعزى ؟

كنا نسير وسط الغابة وقد سترنا الظلام والاشجار عن العيون . وكانت الطيور تأوي الى وكناتها قبل ان يسدل الليل وشاحه الاسود فوق الارض

وكان رفيقي يسير امامي بخطى متثاقلة ولو استطعت لحثثته على الاسراع ولكني تركته منصرفاً الى افكاره وهواجسه .

وبعد سكوت دام بضع دقائق عاد يحدثني فقال :

ـ ان راتكوف رجل كريم الاخلاق نبيل الصفات قصر همه على نجدة الضعيف طبقاً للشريعة الجديدة .

اعتدى عليّ ذات يوم احد القوازق واشبعني ضرباً فما وقعت عينه عليّ حتى هجم على القوازقي ورماه الى الارض فكان نصيبه السجن خمسة عشر يوماً. وهذا جزاء الاريحية والنجدة في هذا العصر .

لم اكن أعرف راتكوف سابقاً ولكن بعد ان اطلق سراحه سألته :

« كيف تجرؤ على مقاومة السلطة » فأخذ يشرح لي افكاره وآراءه التي وقعت في نفسي موقعاً غريباً .

وفي اليوم التالي اطلعت الكاهن عليها فما كان منه الا ان اجابني (لقد عرفت الآن الى اين انصرفت افكارك) . والظاهر انه وشى براتكوف للشرطة فزجته في السجن ثلاثة اشهر لأنه انار ظلمة روحي بتعاليمه الصالحة ، ولم اسلم انا ايضا من القصاص فقد اعتقلتني السلطة وبقيت مسجوناً خمسة عشر يوماً . .

وكانوا يسألونني بعد ماقبضوا عليّ قائلين : ماذا قال لك راتكوف ؟ماذا علمك ؟

فكنت اجيبهم انه لم يعلمني شيئاً ! وبعدما اطلقوا سراحه قلت له :

– سامحني يأصاح فاني غبي .

فضحك واجابني : الامر تافه سخيف فعلام تطلب الصفح ؟ ثم صمت رفيقي وتنهد وتابع حديثه :

– مهما تكن التضحية عظيمة فهي في نظر راتكوف سخيفة تافهة ، فاذا سأل دمه لم يعبأ ، هذا امر تافه . واذا جاع ولم يلقَ ماياً كله لم يغضب . هذا شيء سخيف لا يستحق الاهتمام .

كان رفيقي يقص عليّ حوادث راتكوف وهو هاديء رصين ولكنه لم يلبث ان التفت الي وصرف بأسنانه وقذف حمم غضبه وقال :

– اني اعي اشياء كثيرة . انتحر اخي ، والانتحار بين الجنود ليس امراً نادراً . وسقطت اختي في حبائل الخداع ، وسقوط الفتيات ليس نادراً ايضاً . ولكن ما لا استطيع ان أدركه وأفهمه هو اضطهادهم لراتكوف ، لماذا يعذبونه ؟ لماذا يحاولون أن يقضوا عليه ويقتلوه ؟ اني لا اعرف له جناية يستحق لأجلها هذا الاضطهاد الأعمى .

ألأنه يحنو على الضعيف وينجده ؟ اني أحب هذا الرجل وأطيعه طاعة عمياء وأذهب الى حيث يرسلني ولا أحتمل ان اراه مضطهداً معذباً .

وبعد ان سرنا قليلاً وقف رفيقي وقال :

ــ لقد انتهت مهمتي فهوذا الطريق الذي يجب أن تسلكه، فالوداع ياصديقي .

ثم أشار بيده الى الطريق الذي يؤدي الى اومسك ، وبعد ان ودعني عاد ادراجه وقد شبك يديه وراء ظهره وطأطأ رأسه . وما ابتعد خطوات حتى جلست على الارض وكان الظلام حالكاً ووجه السماء مكفهر فلا قمر ولا نجوم .

كانت الكلمات التي نطق بها رفيقي ترن في اذني ، وما أشبه رنتها بصوت ناقوس دفن في التراب مدة طويلة فتأكله الصدأ . ان صوته أجش ولكنه جديد لم تألفه مسامعي قبلاً .

ثم أخذت أستعيد في خاطري مشهد الجماهير التي احتشدت أمامي لسماع خطبتي ، وذكرت تلك الوجوه القلقة التي ارتاعت عندما حاول الشرطي ان يعتقلني فجرفتني في وسطها كالسيل وسهلت لي أسباب الفرار .

كنت أستعيد الى الذهن هذا المشهد فأكاد لا أصدق حواسي ، واحاول أن أوهم نفسي ان ذلك المشهد لم يكن الا خيالياً . ولكن كيف اخدع نفسي وأنا أمام حقيقة راهنة ؟

ثم فكرت في دليلي الشاب الذي ايقظته الحياة باكليلها الشوكي فقلت في نفسي : أليس هذا الشاب أعجوبة من أعاجيب الحياة ؟ ان قلبه يفيض محبة وحناناً مع ان الشقاء زرع فيه الحقد على البشر .

اوَليست تلك الجماهير التي اصغت الى خطبتي بانتباه شديد والتهمت كلماتي التهام الجائع للخبز اعجوبة من أعاجيب الحياة ايضاً ، فهي ليست بصماء ولا عمياء مع ان الظلم لم يترك وسيلة الا تذرع بها ليصمها ويعميها .

وهل من اعجوبة اعظم من عمل ميخائيل ورفاقه ؟

ثم رجعت الى نفسي وأخذت أجلو شعور قلبي وأكشف عما تغلغل فيه فرأيته مليئاً بالغبطة والهنـــاء ، فتهلل وجهي جذلاً وجمدت في مكاني لئلا تفيض عن جوانبه بهجة لم أعرفها منذ سنوات ، ولئلا تجفل غبطة حلت فيه قبل قبل أن تأنس به ويأنس بها .

لقد كان يصعب عليَّ أن اصدق نفسي . ها قد صرت رجلا ، ها قد بدأت الرجولة تحقق في قلبي ، ها قد باشرت عملي الانساني فالى النهاية !

لقد استيقظت روحي على الحان بلبل صداح يغرّد تغريدة الفجر والحياة فوددت لو اني أمام جماهير لا تحصى أخطب فيها مرجعـاً صدى أغنية البلبل الغرّيد .

وتراءى لي وجه يونا ونظرات ميخائيل الوديعة الحنون وسخرية كوستيا القاسية ، هؤلاء كلهم تمثلتهم وقد حلوا في صدري ونزلوا فيه فاتسع بعد ضيقة وقوي بعد ضعف .

كان الظلام حالكاً ولكن وجوه هؤلاء الرفاق لمعت فيه ، وكانت السكينة سائدة ، ولكن قلبي لم ينقطع عن التغريد والغناء .

وبعد ان استرحت قليلا وقفت ومضيت في طريقي وما زلت أسير من مكان الى آخر وأطوف في ناحية وانتهي الى سواها حتى ودَّع الخريف الارض وأقبل الشتاء . وكنت في هذه المدة أجمع ما يتصدق به العالم على روحي من العطايا والهبات الكريمة الجديدة .

ولما وصلت الى محطة اومسك شاهدت جماعات من الفلاحين الذين يتأهبون للسفر الى سيبيريا فطفت حولهم أتنسم اخبارهم ولما عرفت انهم ينوون الهجرة سألت بعضهم :

– ألا تخافون ان تهاجروا الى مكان سحيق كسيبيريا ؟

فأجابني كهل قوي البنية بقوله :

– اننا نتجشم مشاق السفر للحصول على أرض نحرثها ونعيش بجناها . لقد ضاق بنا وطننا ولم يبق أمامنا الا الهجرة سعياً وراء الرزق .

فاستحسنت ان امضي في محادثة هذا الكهل النشيط وقلت له :

– لقد مضت على الشعب قرون كثيرة وهو يتنقل من مكان الى آخر باحثـــاً عن قطعة من الارض يستطيع ان يعيش فيها على ما تقتضيه الانفه والكرامة البشرية .

لقد مضت عليكم مئات من السنين وأنتم سادة الأرض وأصحابها الشرعيون تطوفون البلدان تائهين تضربون في طول الارض وعرضها فلماذا ؟ من هو الذي اغتصب املاك الشعب وسلبه أراضيه وانتزع منه سيادته ؟

من هو الذي خلع الشعب وحل محله ؟

من هو الذي أسقطه عن عرش السلطة وجرده من حقوقه الطبيعية وأخذ يضطهده ويتعقبه من بلد الى بلد وهو هو مبتكر كل الاعمال وهو هو البستاني العجيب الذي يرجع اليه كل الفضل في ما نراه من الجمال الذي لا يحد في هـذا العالم الواسع ؟

أتهجرون وطنكم الى سيبيريا بعد ان ضاق في وجهكم ، وأراضيه ملك لكم ، لتبحثوا في المهجر السحيق عن قطعة من الارض تحرثونها وتعيشون بغلالهـا ؟

وقد كان لكلماتي صدى بعيد في نفوس هؤلاء المهاجرين الفلاحين فلمعت في عيونهم روح البشرية المستيقظة وارتسمت على وجوههم آية الحياة وشعرت ان قلوبهم ارتوت بكلماتي فانتعشت ودبت فيها الحياة . وأحسست هذه القلوب

كلها اجتمعت بعدما جددت قواها واتحدت في قلب واحد .

ان من يقف في الشعب خطيباً ويضرب على وتر انساني عام مشترك بين الجميع ويكشف عما اختبأ في اعماق الروح ، ويهز الشعور الحقيقي الهاجع في ثنايا النفس بفعل الخمول الروحي منشأ الجهل والظلام . ان الخطيب الذي يقف هذا الموقف لا يلبث ان يرى في عيون الشعب قوة ذات أشعة تنفذ اليه وتسمو به الى ما فوق الجمهور .

ألا لا يتوهمن هذا الخطيب ويحسبن انه ارتفع بمطلق ارادته ومجرد بلاغته . كلا ، ان القوات المحيطة به هي التي سمت به وما قوته الا مستمدة من القوى المتصلة به في هذا الموقف الخطابي .

وعندما يتفرق الشعب يضمحل ذلك الجو المكهرب بالقوى العامة فلا يلبث هذا الخطيب الذي تسامى ان يعود الى محله الاول ويصبح كسائر الناس .

وعلى هذه الصورة بدأت دعوتي الوديعة ودشنت حياتي الجديدة فوعظت وبشرت ودعوت الى ديانة جديدة باسم حياة جديدة قبل ان اعرف الهي الجديد .

وعندما وصلت زلاتوست اغتنمت فرصة احد الاعياد فوقفت خطيباً في الساحة العامة : فلم تلبث الشرطة ان تدخلت ولكن الجمهور سهل لي الفرار كما فعل معي في المرة السابقة .

وقد تعرفت آنئذ برفاق كثيرين نالوا اعجابي ، منهم ياشا فلاديكين وهو من طلبة اللاهوت وقد أحببت هذا الشاب حباً جماً كما أحبني فتوثقت بيننا عرى الصداقة .

لم يكن فلاديكين مؤمناً بالله ولكنه كان يعبد الموسيقى الدينية وقدطالما شنف اذني بصوته الرخيم وألحانه الشجية التي تحرك الشعور وتثير كوامن النفس .

وفي ذات يوم قلت له مازحاً : أيها الكافر ، أيها الجاحد علام تبكي ؟

فأجابني : أبكي من شدة الفرح ، أفكر في ضروب الجمال الرفيع التي سيبتدعها الفكر الانساني فيغلب عليّ السرور وأبكي جذلاً .

إذا كانت قوة الجماعات على ضعفها وخوارها في هذه الحياة المضطربة القذرة استطاعت أن تبتدع ضروباً عظيمة من الجمال ، فما قولك اذا اتحد العالم اتحاداً روحياً ونفض عنه غبار الوهن والقلق وما لصق به من حمأة ، ما قولك إذا شاء ان يعبر عن حماسة روحه بالالحان والموسيقى ، ألا يبتكر أسمى ضروب الجمال والفن ؟

وكان ينظر الى المستقبل بعين العارف المدرك الذي لا يخفى عليه شيء ، كان ينظر اليه من وراء زجاج الحاضر فيبدو أمام عينيه جلياً واضحاً لا التباس فيه ولا غموض ، وقد طالما اذعرته هذه الرؤى وطالما ادهشته . ولم تكن دهشتي بها أقل من دهشته نفسه .

ان لهذا الشاب فضلاً لا أنكره . لقد فتح عيني لنور الفن كما غذى روحي ميخائيل بتعاليمه واقواله .

تعرفت برجال كثيرين مال اليهم قلبي وأعجبني فيهم جلاء آرائهم وصلاح مبادئهم وقوة ايمانهم بالحياة الجديدة ، فكانوا يرسلونني من مدينة الى اخرى حيث اتعرف بسائر الرفاق فكأنني كنت اسير في طريق موسوم بالنار — نار العقيدة الراسخة الملتهبة في صدور الرفاق كلهم .

يستحيل علي أن اصف كلا من هؤلاء الرجال واعبر عن السرور الذي كنت اشعر به اذ أرى اتحادهم الروحي الوثيق .

روسيا كبيرة عظيمة ، وجمال الحياة أسمى من أن يوصف بالكلمات والتعابير .

الفَصْلُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

الوهية الشعب العجائبية المبدعة

في ولاية قازان انقشعت عن عيني الغشاوة الاخيرة وأدركت ما كنت أبحث عنه ولقيت الاساس الذي أبني عليه بنايتي .

كنت أطوف المدن والقرى وأجوب البراري والقفار مفتشاً عن الحقيقة باحثاً عن الله ، الى ان عثرت عليها في قازان .

لقد وجدت الضالة التي طالما نشدتها وأبت الايام الا ان تفض امام عيني سر الدهور الرهيب ولغز البشر المستعصي الحل .

عندما وصلت الى منسك سيميوزيرونا شاهدت هناك عدداً لا يحصى من الشعب الذي كان ينتظر التطواف الديني (الزياح) الذي حملت فيه صورة العذراء العجائبية من المدينة الى مكانها في المنسك .

وقفت في أعلى الجبل فرأيت أمامي خلقاً لا يحصى كأنه موجة سوداء قذفتها الرياح الى أبواب الدير .

كانت اشعة شمس الخريف شديدة الاحمرار . وكانت الاجراس تخفق خفقان الاطيار وقد تأهبت للطيران بعد التغريد والغناء ، وكانت الرؤوس الحاسرة

وقد لونتها الشمس بأشعتها كأنها خشخاش كبير مزروع في الطرقات .

وكان الجمهور الواقف أمام باب الدير يتوقع حدوث أعجوبة . فقد استلقت في عربة صغيرة صبية شل المرض المزمن اعصابها فتمددت جامدة وقد طبع الألم وجهها بطابعه القاسي وتركه شاحباً تعلوه صفرة كصفرة الموت .

لقد قاست هذه الفتاة أوجاعاً مبرحة وتقاذفتها يد الداء كما تتقاذف الهرة كرة ولما استعصى المرض وعجز الاطباء عن معالجتها جاء بها أبوها الى الدير مغتنماً فرصة الزياح لعل العذراء تشفيها وترد اليها صحتها .

كان أبوها رجلا طويل القامة قوي البنية أصلع الرأس ذا لحية وخطها الشيب وانف كبير ، وامها امرأة بدينة ذات وجه مستدير .

وقف والداها حولها وهما ينتظران حدوث الأعجوبة ويتوقعان أن ترمق العذراء ابنتها وتشفيها من مرضها .

وكان الشعب يقترب من المقعد ويتأملها طويلا راثياً لحالها .

أما أبوها فكان يرسل صوتاً مؤثراً مرتجفاً لشدة انفعاله النفساني ويقول بلهجة تفتت القلوب :

ـ أتوسل اليكم ايها المسيحيون الصالحون ، أتوسل اليكم ان تصلوا لأجل ابنتي المسكينة ، لقد مضت عليها اربع سنوات مقعدة طريحة الفراش لاتستطيع ان تحرك يديها أو رجليها .

ايها المسيحيون ، صلوا لأجل هذه الفتاة المريضة واسألوا العذراء ان تخفف آلامها وتشفيها من دائها .

ايها المسيحيون الرحماء ، ادعوا لهذه المقعدة بالشفاء والله يجزل لكم الأجر والثواب ويضاعف الحسنات .

ايها المسيحيون ، انظروا بعين الشفقة والرحمة الى هذه المريضة المسجاة

على سرير الألم وشاركونا في الدعاء لانقاذها من انياب الداء . صلوا لأجلها والله لايضيع اجر المحسنين !

كان هذا الاب الرقيق الشعور قد حمل ابنته الى اديار شتى دون ان يفوز بأمنيته ويرى ابنته سليمة معافاة، ولما جاء الى هذا الدير كان اليأس قد تطرق الى قلبه ولكنه مع هـذا خدع نفسه على رجاء ان تجري اعجوبة وتبرأ فتاته . فلم ينفك عن ترديـد توسلاته وتضرعاته ولا سكت له صوت . وكان الشعب يسمع نداءه فتأخذه الشفقة ويتنهد وقد ارسل بصراً تائهاً في الفضاء .

لقد شاهدت في أسفاري أكثر من ثلاثين مريضاًبين مقعدين وذوي قروح وعاهات الخ . فكنت أشعر لدى رؤيتهم بخجل ، بـــل كانت تثور نفسي وتأخذني عليهم شفقة ، بيد أن هذه المقعدة أثارت شجوني وحركت كوامن نفسي وشعرت نحوها بعطف شديد لم اعهد له مثيلاً في المرات السالفة .

كنت أتامل هذه الفتاةالمستلقية في العربة فأحس ان قلبي يتفتت شفقةعليها.

كانت مرارةالألم مرسومةبأجلى معانيها على وجهها الشاحبالنحيلالعظمي.

ماذا جنت هذه الفتاة وماذا أتت من المنكرات حتى عوقبت بالشقاء والتعس ؟

وكانت امها واقفة الى جانبها وفي قلبها مناللوعة والحزن مالا يوصف. لقد كانت هذه الام تعاني من الألم الروحي مالا تعانيه الفتاة من الألم الجسدي .فمن ذا الذي يستطيع أن يرى أماً تتعـــذب وتتـألم لأجل ابنتها ولا يفيض قلبه حزناً وعاطفة ؟

خرجت من وسط الجمهور وفي القلب غصة وفي العين دمعة وقد انطبع في فؤادي هذا المشهد المؤثر .

كانت أبصار الجماهير مصوبة الى مكان بعيد كأنها ترقب وصول (الزياح) فما مضى الا القليل حتى سمعت صوتاً يقول: هاهي العذراء قادمة !

فردّد الصوت مئات النظّارة وأخذوا يستعدون لاستقبال تمثال العذراء المقدس .

كانت اشعة الشمس تنعكس على التمثال المذهب فيخيل الى الرائي ان شرراً نارياً يتصاعد منه الى السماء .

وما اقترب الموكب حتى استولى الخشوع على الجماهير فطأطأوا الرؤوس متنهدين وصرخت الوف الاصوات قائلة : تضرعي لأجلنا يا والدة الاله !

وعلى الاثر ارتفعت اصوات اخرى تدعو الموكب الى متابعة السير والاسراع .

كانت البحيرة ، وقد أحاطت بها الغابة من كل الجهات كاطار جميل نفيس وانعكست على صفحاتها اظلال الاشجار ، تبدو لمن يراها مبتهجة ضاحكة .

وكانت الشمس تغيب شيئاً فشيئاً وراء الاشجار على انغام الأجراس المعدنية . وكنت كيفما التفت وادرت لحظي ، أرى حولي وجوها تقطر ألماً وحزناً وعيوناً دامعة وأيدياً ترسم علامة الصليب وأفواهاً تتلو الصلوات همساً وتمتمة .

تأملت هذا الموكب البشري العظيم فحزنت نفسي واشفقت على هذا الشعب المتألم الذي يطمع بالعجائب .

رأيت في هذا الموكب البشري يأساً ملأ القلوب ، وحزناً فاض في الوجوه فالى م يرمي من وراء هذه الحفلة الدينية ؟

الايتوقع كل فرد من أفراده ان ينال حظوة في عيون القديسين والاولياء ليستطيع ان يمسح دموع الشقاء والتعس ؟

اليس في قلب كل منهم ايمان ثابت بحدوث العجائب .

كان الموكب يجد في السير الى ان اقترب مني فرأيت وجوهاً علاها الغبار

وتفصد العرق منها فرسم فيها ما يشبه الأخاديد ، وكان المتواكبون يلهثون تعباً وعياء مع هذا كانوا يسيرون مسرعين كأنهم لا يشعرون بكلالة . ما اعظم تأثير الايمان في القلوب .

تأملت هذه الجماهير يزحم بعضها بعضاً في طلب النعمة ، في رؤية تمثال العذراء في الدنو منه والتبرك بلمس سدوله ، فأشفقت على الشعب وشعرت بالغصة تملأ روحي .

وظل الموكب متابعاً سيره .

وكانت ترتفع من حين الى آخر اصوات تقصف كالرعد في ذلك الفضاء ، الا انها تحرك الشعور وتثير العواطف :

- تضرعي لأجلنا يا والدة الاله !

- افرحي وتهللي ايتها العذراء المقدسة .

- يا والدة الاله تشفعي لأجلنا !

فلا يلبث بعدئذ ان يرتفع صوت قائد الموكب يأمر الجمهور بالسير :

- الى الامام . . سيروا . . اسرعوا .

فينتشر الغبار ويؤلف ما يشبه سحابة تكتنف مئات من الجماهير الذين لم يبالوا بشيء ، فكنت أتأمل وجوههم فأرى فيها مظهراً من مظاهر البؤس والشقاء ثم أجيل ابصاري في عيونهم فأرى فيها شرراً يتطاير من روح واحدة كانت تنتظر بفارغ الصبر ان تتمتع بنعمة لم تعرفها قبل اليوم .

لقد توحدت الأماني وتوحدت القلوب وتوحدت الأرواح فأصبحت هذه الجماهير التي تعدُّ بالالوف وقد شبك الواحد يده بيد الآخر ، كأنها جسم واحد في قلب واحد وروح واحد .

اجلت الطرف في هؤلاء الالوف المتراصين جسماً وروحاً فخيل اليّ اني

اری بناء بشریاً مرصوصاً یسیر الى الأمام ، الى النهاية بعزم وايمان .

وكان في الوقت نفسه ينتاب روحي اضطراب شديد غامض ، ولكني ما عتمت ان ذكرت عبارة بونا القائل : « ان الشعب هو الذي خلق الله كما خلق الله الشعب » .

هذه العبارة انارت روحي وبدّدت الظلام الذي اقلقها .

ان الشعب هو الذي خلق الله !

نعم ، ان الله لم يكن الا صدى للفكرة البشرية وصـــورة الروح الانسانية .

فهببت من مكاني وتوجهت استقبل الموكب . فانحدرت من الجبل وتبعت الجماهير وانا اصرخ بملء صوتي واغني بكل مافيّ من قوى قائلا :

– تهللي وافرحي ايتها القوة المباركة ، ياسيدة القوات .

ايتها الامة ، يامبتدعة الآلهة والجمال ابتهجي واغتبطي !

وما هو الا القليل حتى حاذيت المـــوكب فامتزجت بين أفراده الذين أذابتني حرارة انفاسهم فلم أعِ بعدئـذ على شيء . ولم ادر أكنت سائراً على الارض أم طائراً في الجو لشدة ماانتابني من السرور الذي لايوصف .

لقد شعرت وأنا في وسط الجماهير بسعادة سماوية لم اعهدهـا قبلاً . كيف هبطت عليّ السعادة ؟ وما منشأها ؟ ولماذا أخذت مني الحماسة مأخذها ، هـذه اسئلة ماادركت جوابها الا عندما ذكرت عبارة يونا .

« ان الشعب هو الذي خلق الله ! »

وكان قائد الموكب يصرخ الفينة بعد الفينة .

– الى الامام ايها السادة ، اسرعوا اسرعوا . .

فكان الشعب وهو القدير على اجتياز كل الحدود وكل المهـاوي ، يتقدم

بعزيمة صادقة لاتقاوم ، وايمان يأتي بالعجائب والخوارق .

ثم وقف الموكب فجأة فتداعى هذا البناء البشري بعد ان اصطدم بعضه ببعض ورأيتني أمام عربة المقعدة .

وكانت الجماهير تنادي متهللة : لنشكر الله ! لنشكر الله !

وكانت الحماسة قد اسكرت الشعب بنشوتها فما ان رأى المريضة حتى دفع العربة الى الامام فتحرك رأس الفتاة بشكل محزن مؤثر ، وفتحت عينيها المعبرتين ابلغ تعبير عن الذعر والرعب .

وما ان شاهدتها الجماهير حتى شخصت اليها الابصار وصبّت عليها عيون المئات ذلك السائل المغناطيسي القوي ، وانصرفت افكار الجماهير كلها وقواهم الى مسألة واحدة ، وتألفت من تلك القوى البشرية العظيمة قوة واحدة وانتشرت في صدورهم رغبة واحدة وهي ان يروا هذه الفتاة المريضة المقعدة صحيحة سليمة الجسم معافاة ، أن يروها تنهض من الداء وتمشي على رجليها وتحرك يديها !

وكنت انا كسائر الافراد الملتفين حول سرير المقعدة مصوباً اليها نظراتي القوية العميقة ، مردداً في قلبي نفس مايردده الجماهير ، صارفاً كل افكاري الى نقطة واحدة وهي رؤية تلك الفتاة المريضة سليمة معافاة !

كنت اريد - كسواي - بكل مافي الارادة من قوة ان أرى هذه المقعدة تنهض من سريرها وتمشي على رجليها المشلولتين . وكما تتساقط الامطار في ارض يابسة مجدبة فتحييها ، هكذا كانت تتساقط ابتهالات الشعب على تلك المريضة ، فتستمد منها قوة جديدة تحيي آمالها وتنهض بها من سرير المرض .

كان الشعب يصرخ بصوت واحد وقلب واحد قائلاً :

— انهضي ! قومي ! لاتخافي ايتها الفتاة ! تشجعي ! ارفعي يدك ، ارفعي

ذراعيك ولا تخشي ! قومي أيتها العليلة ، قفي على رجليك. تشجعي !

كانت تضيء في روح هذه المقعدة مئات من النجوم .

انعكست على محياهـــا الشاحب الحائل ظلال وردية اللون كسته جمالاً وبشراً .

فتحت المقعدة عينها الجافلتين وشخصت الى الجمهور المحدق بها فترقرقت على ثغرها ابتسامة عزاء وأمل وايمان ؟

وكان الشعب لا ينفك عن الصراخ وقد جمع قوتـــه واستضم افـــكاره حول الفتاة .

– انهضي ! قومي ! تشجعي أيتهـا الفتاة ! انت صحيحـة الجسم فتحركي وانهضي .

وكأن الفتاة كانت نائمة نوماً عميقاً فأيقظت روحها صرخات الشعب وأخذت تستعد للنهوض . فبدأت تحرك كتفها شيئاً فشيئاً ثم حاولت أن تحرك يديهـا المرتجفتين .

– تشجعي أيتها الفتاة ، ارفعي ذراعيك ، لا تخافي . .

ثم جمعت قواها فمدت يديها الى الامـام بين التهليل والهتاف فكان يُخيل الى من يراها انها فرخ من فروخ الطيور يطير من وكنته للمرة الاولى .

وعلى الأثر علا الهتاف فكاد يشق عنان السماء ويطبق الارض وارتفعت الاصوات وقد أخذت الحماسة مأخذهـــا من الشعب حتى تراءى لي ان الارض تحولت الى جرس من الشبه يقرع قرعاً عنيفـاً ، وان جباراً هائلاً من جبابرة الاساطير والخرافات هزه هزاً شديداً بيديه العظيمتين .

كان الشعب ينادي المريضة ويحثها ويشجعها صارخاً :

– ساعدوها انقلوها الى الارض . قفي ايتها الفتاة . ارفعوها .

فحملناها من العربة حيث كانت متمددة وسندناها لتمشي فأخذت تحرك قدميها بصعوبة والشعب يهلل ويصرخ ونحن نشجعها فما ان سندناها قليلاً حتى مشت بخطوات ثابتة وصرخت وهي لاتكاد تصدق انها شفيت .

– الهي . . . الهي ! ياوالدة الالهة المقدسة ! آه، ياأصدقائي . . . !

وكان الشعب متابعاً صرخاته بلهجة الآمر المطاع :

– سيري . . . سيري . . .

يااللايمان ولأعاجيب الايمان !

لقد آمن الشعب بقوته ، بنفسه ، فصنع العجائب !

ياللشعب التعجاب الذي يعرف كيف (يريد) وكيف يشفي المرضى وكيف يأتي بالخوارق !

كانت الفتاة تنقل قدميها ببطء وهدوء ولكنها كانت تحركهما ، فاذا خانتها قواها انصبت عليها من الوف العيون سوائل مغناطيسية أكسبتها قوة جديدة .

كانت تمشي وهاهي ترفع ذراعيها في الهواء وكأنها تقول لمن سندوها :

– دعوني . . . اتركوني ، اريد ان امشي وحدي . . .

وبعد ان وقفت لحظة جرّت قدميها ومشت .

كانت يداها ممدودتين الى الامام كأنها اتخذت من الهواء عكازاً اعتمدته لتقي نفسها شر السقوط على الارض .

كانت وهي تنقل رجليها كالاطفال سروراً وحياء . كانت ترتجف ويهتز جسمها لكنها كانت تمشي بارادة الشعب الذي أحاط بها وصوب اليها مئات من الاشعة المنيرة وجعل لها من قواه المتوحدة غير المنظورة مايدرأ عنها المرض ويعيد اليها الصحة .

وما زالت تمشي رويداً رويداً الى ان اختلطت بالجماهير ثم غابت عن

الانظار وراء رتاج الدير . . .

وكأني كنت غائباً عن الرشد واستيقظت من سباتي الفكري ، فأخذت اتأمل هذا المشهد الغريب الذي تمثل لعيني على أثر العجيبة الشعبية .

كان الشعب يرقص فرحاً وسروراً وقد شاهد بأم عينه أعجوبته العظيمة .

وكانت الاجراس تقرع قرعاً متواصلاً ، وتهاليل الشعب وصرخاته تشق عنان السماء .

كان الكل طروباً جذلاً ، انى أدرت الطرف فلا تقع عينك الا على ثغر باسم وعينين تفيضان نعمة واغتباطاً .

وكانت الشمس وقد مالت الى المغيب تصبغ مياه البحيرة بلونها الارجواني وتتكسر أشعتها الذهبية على صفحات الماء الهادىء فتبدو فتنة للناظرين .

وبينما كنت أتأمل هذه الجماهير ، اذ مرّ امامي رجل لاأعرفه وسألني ضاحكاً :

ـ أرأيت أعجوبة الشعب ؟

فلم ألبث ان عانقته وضممته الى صدري كأنه شقيق او صديق حميم قابلته بعد طول الغياب . كان شعورنا المتبادل افصح معبر عما يجول في خواطرنا ، فلم نتبادل كلمة واحدة ، ثم افترقنا دون ان يفوه احدنا بكلمة .

وما معنى الكلمات في مثل هذا الموقف ؟

اليست الالفاظ تستخدم للتفاهم بين الارواح ؟

ان روحينا كانتا متفاهمتين كل التفاهم ، مدركتين كل الادراك ألوهيّة الشعب ومقدرته على صنع العجائب والاتيان بالخوارق بقوة ارادته التي لاتقهر .

* * *

قضيت الليلة في الغابة بالقرب من القرية ، كنت وحيداً منفرداً عن الناس

غير ان روحي كانت مرتبطة اشد ارتباط ، موثقة بعروة لاتفصم بالشعب ، صانع العجائب ومولى الارض وسيد المخلوقات .

كنت اشعر ان كل ماورأيته وتعلمته كان ينمو فيّ ملتهباً في شعلة واحدة . كنت انا نفسي اعكس هذا النور على العالم ، حيث كان الكل يضيء وقد اتخذ شكلاً جديداً ومعنى جديداً .

هذه الشعلة التي اضطرمت في داخلي أنشأت في روحي رغبةً في التهـــام العالم ،كما التهمتني هي .

ان الالفاظ اعجز من ان اصف بها الحماسة التي استولت عليّ في هذه الليلة . كنت اعانق الارض بحبي وابار كها وابارك معها الحياة . لقد ارتقيت أعلى درجات حياتي ونظرت الى العالم فرأيته يشبـه تياراً من نار يتألف من عناصر حية عظيمة تنزع الى الاتحـــاد في قوّة واحدة لا أدري مراميهـا وغايتها ، ولكني كنت أستدل على انهـا هي نفسها معين لا ينضب لنمو النفس البشرية نمواً لانهاية له ، فتسمو الروح وترتفع الى أعلى درجات الكمال .

وفي فجر اليوم التالي عندما ذر قرن الغزالة ، نظرت الى الشمس فرأيتها قد اتخذت شكلا جديداً لم اعرفه قبلاً .

كانت أشعتهـا تطرد جيوش الظلام شيئاً فشيئاً الى ان رفعت عن وجـه الارض حجاب الغلس ، فبرزت الارض سافرة وبدت لعيني بأبهتها الخريفيـة كأنها حقل من الزمرد رصّعته ايدي البشر بأعمالهم العظيمة ، وميدانٌ قام فيه النزاع لاجل الحرية ، ومـكان مقدّس للجهاد في سبيل انتصار الحق والعدالة.

رأيت الارض ، هذه الام الصالحة ، ترفع ابصارها بعيون اوقيانوساتها ، مفتخرة متباهية ، الى كل الابعاد والاعماق .

رأيتها تشبه شراياناً مملوءاً دماً بشرياً حياً يغلي غلياناً شديداً .

رأيت ايضاً سيد الارض ، ورأيت الشعب الكلي القدرة الخالدة ، الشعب الذي رفع شأن الارض بأعماله العظيمة المجيدة وبإيمانه وآماله .

رأيت هذا كله فوقفت بخشوع وشرعت اصلي صلاة الايمان :

– ايها الشعب ، انت هو الهي ! انت هو خالق كل الآلهة التي ابتدعتها بصلاح نفسك بين ظلمة الاضطراب والفوضى وبصيص التنقيب والدرس .

ايها الشعب ، لن يكون على الارض اله سواك ، لأنك انت الاله الاحد صانع العجائب ، فمبارك انت .

هذا ماأومن به واعترف به .

والآن اعود الى الاماكن التي يحرر فيها البشر ارواحهم من ربقة الجهل وخرافة الاديان .

اعود الى الاماكن التي تجمع الشعب وتسبك قواه في قوة واحدة وقالب واحد وتريه من الامام ماكان يجهله ، وتساعده على تثبيت عقيدته في قـــوة ارادته وفي الوهيته .

اعود الى الاماكن التي تدل البشر على السبيل الوحيد السديد الذي يؤدي الى الاتحاد العالمي والتآخي البشري ، باسم عمل عظيم باسم ابتداع الله العـادل الرحيم .

– انتهى –

صدر حديثاً

في منشورات

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

البياتي رائد الشعر الحديث

جماعة من الاساتذة

السـاقطون

مكسيم جوركي (طبعة ثانية)

أين الله

مكسيم جوركي (طبعة ثانية)

الأم

مكسيم جوركي (طبعة رابعة)

مشاكلنـا القومية

زكي الارسوزي (طبعة ثانية)

مذلون مهانون

فيدور دوستويفسكي

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مؤسسة علمية ثقافية أسست عام ١٩٣٩ بدمشق

يعضدها

نخبة من العلماء والأدباء والمفكرين

في ارجاء العالم العربي

المدير العام المسؤول

محمد حمدان

مدير الشؤون الادارية

شفيق حمدان

مدير الشؤون المالية

فائق حمدان

المركز الرئيسي : دمشق - شارع المتنبي

الهاتف ١٢٢٦٤